المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

الله

«لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ»

الكشف عن ألف فرية وفرية عن العرب

تأليف: زيجريد هونكه

سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله

ترجمة وتقديم وتعليق
محمد عونى عبد الرءوف

مراجعة: ناهد الديب
إيمان السعيد جلال

1629



الله

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾

الكشف عن ألف فرية وفرية عن العرب

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور



- العدد: 1629
- الله ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾: الكشف عن ألف فرية وفرية عن العرب
- زيجريد هونكه
- عونى عبد الرءوف
- ناهد الديب، وإيمان السعيد جلال
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

Allah ist ganz anders

von: Sigrid Hunke

First published by 1990 Horizonate Verlage GmbH

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: 27354524 – 27354526 فاكس: 27354554

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

الله

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾

الكشف عن ألف فرية وفرية عن العرب

تأليف: زيجريد هونكه

ترجمة وتقديم وتعليق

محمد عوني عبد الرءوف

مراجعة

ناهد الديب   إيمان السعيد جلال



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هونكه، زيجريد

الله "ليس كمثله شـــيء" : الكشف عن ألف فرية وفرية عن العرب/ تأليف: زيجريد هونكه ؛ ترجمة وتقديم وتعليق: محمد عونى عبد الرءوف؛ مرجعة: ناهد الديب ، إيمان السعيد جلال.

ط ١ – القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠

٤٠٠ ص ، ٢٤ سم

١ – الله

(أ) عبد الرءوف، محمد عونى (ترجمة وتقديم وتعليق)

(ب) الديب، ناهد (مراجع)

(ج) جلال ، إيمان السعيد (مراجع مشارك)

(د) العنوان ٢٤١

رقم الإيداع ١٣٦٣٧ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى: I.S.B.N - 987- 977 - 704 - 140 - 9

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

هذا الكتاب

أعارتني الزميلة دكتورة علا عادل عبدالجواد المدرس بقسم اللغة الألمانية بكلية الألسن هذا الكتاب، وهو آخر أعمال المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه، ولما قرأتُه أعجبتُ به أيما إعجاب، وعزمت على ترجمته. وبعد أن قطعتُ فيه شوطًا كبيرًا، أبلغني الزميل أ.د. محمد أبو حطب خالد عميد كلية الألسن بالمنيا، السابق، والمرحوم أ. د. محمد منصور رئيس مجلس قسم اللغة الألمانية بكلية اللغات والترجمة بالجامعة الأزهرية أن الكتاب ترجم من قبل، وأرسلا إليّ نسخة منقولة عن الشبكة الدولية للمعلومات، فاطلعتُ عليها. وأصررت بعد ذلك على مواصلة الترجمة؛ إذ إنني وجدت أن الكتاب يستحق عناية أكبر، لأن الزميل دكتور غريب محمد غريب لم يُعْنَ بترجمة الكتاب كله، ولم يزوده بتعليقات يفهم منها القارئ العربي ما ورد بالكتاب من معلومات يمكن أن يفهمها القارئ الأوربي باعتبار أن الكتاب موجه له، ويستشهد بأحداث تاريخية ومعلومات ثقافية لا تخفى عليه، وإن كان من الممكن أن تكون مجهولة للقارئ العربي. وفضلاً عن ذلك فإن المؤلفة لم تكن في حاجة إلى توثيق ما تنقله عن المصادر العربية باعتبار أن القارئ الأوربي ليس في حاجة إلى هذا التوثيق وإنما يحتاج إلى المعلومة فقط. أما القارئ العربي فيحتاج بالضرورة لتوثيق المعلومات المنقولة عن المصادر العربية، حاجته إلى أن يتعرف هذه المعلومات بصورة أدق أو أشمل مما كتبته المؤلفة للقارئ الأوربي.

ومن ثم حرصتُ على أن أقدم ترجمة دقيقة للكتاب كله وأن أقدم تعليقًا على

كل ما تعرضت له المؤلفة من معلومات عن الشرق أو الغرب. وبالنسبة للشعر العربي الذي قدمتْ المؤلفة ترجماتٍ له كله أقرر أنني لم أوفق في أن أحصل على أصله العربي إما لقلة المراجع التي تمكنتُ من الرجوع إليها، وإما لأن الترجمة لم تُعن بترجمة الشعر نقلاً دقيقًا إلى الألمانية، وإنما ترجمته إجمالاً وبتصرف يجعل الوصول إلى أصله العربي متعذرًا.

وقد حرصت على تقديم التعليقات مع مقدمة عن سيرة المؤلفة ونشاطها العلمي والسياسي والديني، وقدمت قائمة بأعمالها، والكتب التي كتبت عنها وعن مؤلفاتها.

وقد أخذ بعض النقاد عليها أنها نسبت الخطوات الحضارية الإسلامية للعرب فقط، وليس للمسلمين جميعًا، وكذلك ليس للعرب غير المسلمين. وهذا أمر غير مفهوم عندهم، فلو لم يكن الدين محركًا جيدًا لكل المسلمين، فكيف نؤكد أن العرب وسط الصحراء تمكنوا من إنشاء حضارة عالية أفاد منها العالم.

كذلك فإنها لا تتحدث عن الأتراك العثمانيين بطريقة لائقة؛ لأنها ترى أنهم لم يشاركوا في حضارة علمية أو ثقافة عامة. ولكن ربما كان هذا في الثلث الأخير من سيادة الأتراك العثمانيين وليس دائمًا.

عنوان الكتاب:

أما عنوان الكتاب «الله» فليس جديدًا، فقد سبقها - مثلاً - الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه: «الله - كتاب في نشأة العقيدة الإلهية».

وقد ورد في ص٥٩ - ٦٤ من طبعة دار المعارف الخامسة لهذا الكتاب مبحث بعنوان «الله ذات» جاء فيه:

«أما الدين فلا يستقيم بغير إله تتصل به المخلوقات، ويتقبل منها الحب والرجاء، ويستمع لها استماع العالم المريد. ولا نعتقد أن دينًا من الأديان قط دَانَ به الإنسان، وهو في قرارة نفسه مجرد من فكرة «الذات الإلهية» كل التجريد».

«فلا انفصال بين طبيعة الدين وطبيعة الذات الإنسانية والذات الإلهية، ولا يتأتى أن يتدين الإنسان، وهو ينكر ذاته وينكر ذات الإله، ويُؤمن في قرارة الضمير بالقوى الكونية التي لا تعقل ولا تعي ولا تريد. والعقل والدين في ذلك متفقان».

«فما الله؟ هو الكون كله. وما الكون كله؟ هو الله»[1].

وكتبت الأستاذة أنا ماري شيمل كثيرًا من الكتب بهذا المعنى دون ذكر لفظ الجلالة في عناوينها، منها:

- ومحمد رسوله:

Und Muhammad ist sein Prophet, Düsseldorf, 1981

مفهوم الإرادة الإلهية:

Dein Wille geschehe, Dar us-Salam, Österreich

وهي في تقديمها لكتاب «الإسلام كبديل» للدكتور مراد هوفمان[2] تذكر أن القرآن في اعتقاد المسلم هو «كلمة الله» مجسدة في كتاب، كما أن عيسى في اعتقاد المسيحيين «كلمة الله» المجسدة في صورة إنسان.

---

(١) عباس العقاد، الله، ص٦١، ٦٢، ٦٣.

(٢) الذي ترجمه غريب محمد غريب وصدر عن مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا سنة ١٩٩٣ (ص١٢).

وإذا ما أردنا أن نتفهم السبب فيما جاءت به الأستاذة زيجريد هونكه في كتابها «الله ليس كمثله شيء» نجد أنها أولاً تضمّن عنوان الكتاب جزءًا من الآية الكريمة ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١]، وأنها تكمل العنوان الرئيس بعنوان فرعي هو: «الكشف عن ألف فرية وفرية عن العرب» فلماذا إذًا تصدِّر العنوان بلفظ الجلالة؟

تكتب المؤلفة شرحًا لذلك في الفصل الثاني تحت عنوان «مفاهيم مختلفة»: «الرب هو «الله» في اللغة العربية، عبده الناس قبل بعثة محمد ﷺ بقرون طويلة، وهو ليس اسم علم مثل «يهوه» فالله هو الرب. ولذلك جاء في سورة آل عمران [٣: ٨٤] ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

وتوضح هونكه ما جاء بعنوان الكتاب في فصوله المختلفة، فتستعرض تحت عنوان «صدمة الغرب من العرب» الحملات الصليبية السبع التي شنها الباباوات والقياصرة والأباطرة الأوربيون على بلدان الشرق الإسلامي، ولم ينتصروا حربيًا إلا في حملتهم الأولى. فكان أن تبلبلت الأفكار عند الأوربيين وتعجبوا كيف ينتصر محمد ﷺ على المسيح، ولِمَ ينصر الله ديانة المحمديين على المسيحية؛ إذ إن الإله نصر المسلمين على المسيحيين، فضعفت عقيدتهم. وهي ترد على ذلك القول بعنوان كتابها، مبينةً أن الله هو الذي أراد ذلك، ولإيمان المسلمين به، وليس لأنهم محمديون فقط- كما تقول -، فإن هذا النصر يرجع إلى إيمانهم بالله، وإخلاصهم في عقيدتهم وتمسكهم بها. «فالله ليس كمثله شيء»، و «لم يلد

ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»؛ ومن ثم فإن ما يدّعونه من مزاعم ضد المسلمين والعرب من ألف فرية وفرية – على نسق ألف ليلة وليلة – ليس له نصيب من الصحة.

فالكاتبة تعرض الأسباب التي رَسَّخَت الأحكام المُسبقة عن العرب والمسلمين في العصور الوسطى، وما زال بعض الأوربيين يعتقدون أنها صحيحة. وهي حين تتعرض لهذه المزاعم تبحث عن جذورها وتفندها. وتحاول أن تدلل على رأيها بالبرهان القاطع في حَيْدة تامة، وقد قدمت ذلك كله أيضًا في كتاب «شمس الله تسطع على الغرب» الذي نشرته لأول مرة عام ١٩٦٠.

وقد شاركها في التعرض لهذه الفرى ومحاولة دَحْضِها كثير من المستشرقين، ومنهم في القرن الماضي (القرن العشرين) الأستاذة أنا ماري شيمل، ود. مراد هوفمان.

أما الأحداث التاريخية وبخاصة الحروب الصليبية فلم تحظ باهتمام المؤرخين فحسب، بل كانت مصدر اهتمام الكثير من المستشرقين والروائيين أيضًا، وبخاصة عند ذكر الأحداث التي يتلاقى فيها الصليبيون والمسلمون ليعقدوا مقارنة بين سلوك هؤلاء وهؤلاء، ومثل هذا نجده في رواية «ناتان الحكيم» للكاتب الشاعر ليسنج Lessing, Gotthold، و «الطلسم» للكاتب الإنجليزي سير والتر سكوت Sir Walter Scott.

ويعد الشاعر الألماني جوتهولد ليسنج (١٧٢٩ – ١٧٨١) أول مؤسس لكتابة الأدب الألماني الحديث، واشتهر بعِدَّة أعمال منها هذه الرواية «ناتان الحكيم»، وعرف بتسامحه الديني. وكان من أخلص أصدقائه الفيلسوف

اليهودي مندلزون (١٧٢٩ - ١٧٨٦) Mendelssohn, Moses الذي كتب عنه مسرحية «اليهود» Jews عام ١٧٤٩، وكتب روايته ناتان الحكيم Nathan, der Weise التي يجمع فيها رجلاً يهوديًا حكيمًا وأحد الفرسان الصليبيين بصلاح الدين الأيوبي الذي ضمهما إلى مجلسه. وقد كتبها عام ١٧٧٩، وهي آخر ما أنتجه من مناظرات دينية، توحي بالتسامح، وبأن الديانات الثلاث المسيحية واليهودية والإسلام ديانات موجودة فعلاً، ولها أتباع مخلصون. وكان اليهودي الحكيم قد وصل إلى مرتبة عالية من التدين، مثالية تسوي بين الأديان الثلاثة وتدعو إلى اعتبار كل منها ذات ميزة (أو فضيلة) خاصة، وأنها يجب أن تتعايش معًا.

وهو يمتدح في هذه الرواية صلاح الدين الأيوبي كثيرًا، ويشيد بفروسيته وتسامحه مع الصليبيين، واحتضانه لناتان الحكيم، لرجاحة عقله وإيمانه بوجوب التسامح مع كل الأديان، وضرورة أن يعيش معتنقوها في سلام وبلا حرب أو نزاع.

وتقدم رواية ناتان الحكيم حكايته التي رواها لصلاح الدين الأيوبي وكان يعمل مستشارًا له أثناء الحملة الصليبية الثالثة، عندما سأله صلاح الدين عن الدين الصحيح. فقص عليه قصة رجل كان يمتلك خاتمًا ورثه عن آبائه، له قدرة سحرية تجعل مالكه سعيدًا. وكان الرجل يحب أبناءه الثلاثة، ولا يريد أن يميز أحدهم على الآخر، فأمر بصنع نسختين مطابقتين لهذا الخاتم، لا يمكن تمييزهما عن الخاتم الأصلي، وأعطى كلاً منهم خاتمًا، عندما كان على فراش الموت. فاختلف الأبناء لأنهم أرادوا أن يعرفوا من منهم حصل على الخاتم

الأصلي. وذهبوا إلى القاضي ليحتكموا إليه، فأخبرهم القاضي الحكيم أنه من المستحيل معرفة ذلك في هذا الوقت، وأن محاولة التوصل إلى الخاتم الأصلي سوف تشغلهم عن الحياة. وأن قدرات الخاتم ربما تثبت الحقيقة مستقبلاً، وعليهم أن يعيشوا حياة صالحة يرضى عنها الله والبشر بدلاً من ترقب حدوث معجزات الخاتم.

وكانت هذه القصة محاولة من ناتان الحكيم يُعَبِّر بها عن الصلة بين الأديان الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام)، وأنه على كل إنسان أن يتمسك بدينه وأن يحترم دين الآخرين[١].

ويكتب سير والتر سكوت (١٧٧١ / ١٨٣٢) الكاتب الإنجليزي في روايته «الطلسم The Talisman» عن هذه الفترة الزمنية أيضًا أثناء الحروب الصليبية، ويكثر من الحديث عن فروسية صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد، ويكفي أن نعرض ما جاء في ملحق مقدمة الرواية[٢] Appendix to Introduction الذي ينقل فيه بعض الروايات التي كتبت عن هذه الحروب، وتختلط فيها الأحداث التاريخية بالخيال القصصي وينسب فيها إلى ريتشارد قلب الأسد ومن معه صفات لم تؤكدها المراجع التاريخية، فيذكر مثلاً أنهم من أكلة لحوم البشر، وأنهم كانوا يذبحون الأسرى المسلمين ويقدمون لحومهم على الموائد مع جماجمهم التي تتصاعد منها الأبخرة، على حين تشيد هذه الروايات

---

(١) وقد ترجم د.بيتر باخمان المستشرق الألماني هذه القصة بعنوان «الخواتم الثلاثة» وراجع الترجمة د. عبدالغفار مكاوي، ود. عوني عبدالرءوف ونشرت بدار الشروق.

(٢) أرجو الرجوع إلى ذلك بملحق هذا الكتاب.

بإنسانية صلاح الدين الأيوبي ومن معه من القواد والجنود.

ويورد سير والتر سكوت في روايته «الطِّلَّسم» قصة عن سير سيمون لوكهارت Sir Simon Lockhart of Lee and Gartland عند أسر أحد القادة المسلمين وكان أميرًا، فأتت إليه والدة هذا الأمير الطاعنة في السن لتفدي ولدها. فحدد لها لوكهارت قيمة الفدية، فأمسكت السيدة العجوز بكيس كبير مطرز لتعطيه الفدية، فسقطت من الكيس بللورة، وأسرعت السيدة بإعادتها إلى الكيس مما جعل الفارس الاسكتلندي يتأكد من أنها أكثر قيمة من أي ذهب أو فضة. فأكد للسيدة أنه لن يحرر ابنها إلا إذا أعطته هذه البللورة مضافة إلى فديته، فاستجابت السيدة لمطلبه ووضحت له كيفية استخدام هذه البللورة وفائدتها، وأنها إذا غُمست في الماء يتحول الماء إلى قابض يزم الأنسجة الحية المجروحة ودواء للحمى ويكتسب الماء خاصية باعتبارها طلسمًا طبيًا. فلما تعرّف سير سيمون هذه الخاصية وخبرها أعجب بها وحمل البللورة معه إلى اسكتلندا، وانتقلت إلى من ورثه بعد ذلك.

المؤلفة زيجريد هونكه (١٩١٣/٤/٢٦ – ١٩٩٩/٦/١٥)

كان والدها هينريش هونكه Heinrich Hunke ناشرًا، وأمها هيلد جارد Dr. Hildegard أستاذة جامعية.

درست علم مقارنة الأديان والفلسفة، وعلم النفس، وعلم النفس الجماعي للشعوب، والصحافة، ودرست أيضًا اللغة الألمانية، وتاريخ القرون الوسطى.

تعلمت في جامعات كيل Kiel، وفرايبورج Freiburg، وبرلين Berlin وكان من أساتذتها المفضلين لديها الأستاذ مارتن هايدجر (١٨٨٠ - ١٩٧٦)

Martin Heidegger الفيلسوف الألماني المشهور، وإدوارد شبرنجر (١٨٨٢ - ١٩٦٣) Eduard Spranger الفيلسوف والتربوي، وكان أستاذها الرئيسي د. هيرمان مانديل (١٨٨٢ - ١٩٤٦) Hermann Mandel. ودرست أيضًا عند لودفيج فيرديناند كلاوس Ludwig Ferdinand Clauss وله معها شأن كبير، كما تلقت العلم على هانز جينتر Hans F. K. Günter.

وبعد دراسة دامت ست سنوات حصلت سنة ١٩٤١ على إجازة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة فريدريش فيلهلم ببرلين. وعالجت في رسالتها «الأثر العربي في الشعر الغنائي الأوربي». وكان المشرف على رسالتها أستاذ علم النفس والحضارات المقارنة لودفيج فيرديناند كلاوس، وكانت الرسالة عن نشأة المثل الغربية (عن الألمان) وأثرها على الإنسان الألماني.

Herkunft und Wirkung fremder Vorbilder auf den deutschen, Menschen 1941.

قامت بعدة رحلات في الشرق وتعرفت شعوبه وبلاده وثقافاته. وأقامت فترة بالمغرب حيث التقت زوجها المستشرق الألماني المعروف بدراساته في الأدب العربي دكتور شولتز Dr. Peter Schulze الذي أطلق عليه سكان شمال إفريقيا اسم الشيخ محمد الطويل (تزوجا عام ١٩٤٢) وكان من كبار موظفي القنصلية الألمانية. العامة في الرباط. أمضت عامين في المغرب ثم عادت مع زوجها واستقرا في بون حيث بدأت في تأليف كتبها التي عُنيت بإنصاف العرب والمسلمين، ولاسيما الأندلسيين، مما أدى إلى تعرضها لحملات استياء في موطنها، جعلتها تنضم إلى بعض الجمعيات الوطنية الألمانية لتكف الأذى عنها.

تعلمت اللغة العربية وأتقنتها، وأخذت في قراءة الكتب العربية والتاريخ العربي الإسلامي وبالأخص الأندلسي.

وقيل إنها أسلمت في أخريات حياتها. وتوفيت عام ١٩٩٩ في مدينة هامبورج.

الجوائز والأوسمة وعضوية المجالس الشرفية:

(١) حصلت على جائزة وسام الفيلسوف كانت، عام ١٩٨١.

Kant – Plakette (Deutsche Akademie für Bildung und Kultur in München, rechtsextrem) 1981.

(٢) حصلت على العضوية الشرفية بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، عام ١٩٨٣.

(٣) جائزة الشاعر شيللر عام ١٩٨٥.

Schiller – Preis des Deutschen Kulturwerk Europäischen Geistes (DKEG) (rechtsextrem), 1985.

(٤) وسام الاستحقاق والتقدير المصري من الطبقة الرفيعة في العلوم والفنون، عام ١٩٨٨.

زياراتها للبلاد العربية:

نظرًا لنجاحها الفائق فيما قدمته عن الموضوعات العربية في الستينيات أصبحت هونكه خبيرة في الشئون الشرقية، وأرسلتها الحكومة الألمانية في بعثات كثيرة إلى بلاد عربية مختلفة بعد حرب ١٩٦٧، وزارت قبل ذلك بعضها بدعوة من رؤسائها:

- في صيف ١٩٦١ دعت الحكومة العراقية زيجريد هونكه وزوجها لزيارة بغداد تقديرًا لهما.
- في صيف عام ١٩٦٢ زارت دكتورة هونكه وزوجها الجمهورية العربية المتحدة بناء على دعوة حكومتها لهما، معربة عن تقديرها وعرفانها بالجميل، لجهودهما المتواصلة في خدمة العرب.
- ألقت دكتورة هونكه محاضرات في جامعات بالجزائر وتونس وطرابلس وحلب، وقد فرح العرب كثيرًا ورحبوا بزياراتها لأنهم وجدوا فيها شخصية أوربية تظهر اهتمامًا بحضارتهم الإسلامية، وليس العناية باستثمار حقول البترول العربية.

نشاطها الثقافي والسياسي والديني:

زيجريد هونكه مؤرخة باحثة في ميدان فلسفة الحضارة، وهي الرئيسة الشرفية لكثير من الهيئات العالمية. وقد تناولت دراسة الأديان بموضوعية، وعُرفت بانتقادها الشديد للمسيحية، وإعجابها بالإسلام والعربية، وذلك بعد الحرب العالمية الثانية وبخاصة بعد سقوط ألمانيا.

- حصلت في أول مايو من عام ١٩٣٧ على عضوية حزب العمال الاشتراكيين الوطنيين الألمان NSDAP.
- عملت منذ ١٩٣٨ رائدة اتحاد الطلاب الإقليمي في برلين، وعضوًا قياديًا برابطة الطلاب الاشتراكيين الوطنيين National Sozialistischen وكان عليها الاتصال بالصحافة والجماهير، فكشفت عن بلاغة متدفقة في

أسلوب التعبير. وقد ساعدتها هذه القدرات على النجاح الأدبي بعد الحرب، فأصبحت عضوًا بالقيادة الطلابية Gausten Studentenführung.

- التحقت هونكه وشقيقتها فالترود Waltraud في عامي ١٩٤٠، ١٩٤١ بالجماعة العلمية التابعة لمنظمة SS، وحصلت على منحة من SS – Ahnenerbe في إدارة الموروث القومي بالقوات الخاصة، وشاركت في كتابة بعض المقالات في مجلة شئون جرمانية Germanien، واعتبرها كثير من الألمان منتمية إلى الاتجاه اليميني.

- في عام ١٩٥٠ أصبحت عضوًا في جمعية اتحاد الأديان الألمانية التي تنادي بالتوحد الإلهي في الديانة Deutschen Unitarier Religionsgemeinschaft (DUR). ثم أصبحت رئيسًا فخريًا لها، ولكنها تركتها لأن الجمعية كان لها ميول يسارية، وانضمت إلى الاتحاد الألماني الأونيتيري الأوربي المؤمن بالتوحيد الإلهي (ولا يؤمن بالتثليث). وهي الجمعية التي انفصلت عن الجمعية السابقة (DUR) واسمها:

Der Bund Deutscher Unitarier - Religionsgemeinschaft europäischen Geistes (BDU).

وكانت تنزع إلى الانتماء إلى النموذج العالمي للصوفية الألمانية.

- وفي سنة ١٩٧٣ أسست الجمعية التي تحمل اسمها لتأكيد فكرها الرائد المبيّن لفضل الشرق على الغرب، وظلت رئيسة لها إلى أن توفيت عام ١٩٩٩.

- وفي عام ١٩٨٩ أصدرت جريدة العقيدة وأثرها Glauben und Wirken وقد وصفت المسيحية بأنها مرفوضة في أوربا، لأنها من نوع آخر غريب Artfremd ولأنها شرقية المنشأ Orientalistisch.
- خطبت وكتبت وأذاعت الكثير عن علوم العرب والشرقيين واختراعاتهم وأخلاقهم. وحشدت خيرة القوم من أصدقاء العروبة من الألمان، وساهمت في إقامة معرض شعاره «الأرض المقدسة وتوفير العدالة للأردن» وزودته بصور لحياة اللاجئين العرب. وأقيم المعرض في قاعة بيتهوفن الموسيقار الخالد في شهر يونيه ١٩٦٨، وأشرفت عليه جمعية الصداقة الألمانية الأردنية بالتعاون مع مكتب الإعلام والسياحة الأردني في مدينة فرانكفورت[١].

مؤلفاتها:

عادت زيجريد هونكه إلى بلادها بعد عامين قضتهما في مدينة طنجة بالمغرب فاشتغلت بالتأليف كاتبة حرة، وكتبت كثيرًا عن الحضارة العربية وصلتها بأوربا، وطبقت نظريات أستاذها كلاوس Clauss[٢] دون ذكر أن العرب ينتمون إلى الجنس السامي. وواصلت دراسة الأجناس التي بدأتها في رسالة الدكتوراه وظهرت في الموضوعات الأخرى التي تعرضت لمناقشتها في كتبها (التي نشرت بعد الحرب العالمية وبعد هزيمة ألمانيا) بطرق مختلفة. ولم يكن

(١) ترجمة شمس الله على الغرب، دكتور فؤاد حسنين، ص٦.

(٢) كلاوس هو صاحب أكثر النظريات عن الأجناس البشرية تأثيرًا في أيام النازية الألمانية، وقد بيعت كتبه في موضوع الأجناس بأعداد لا تحصى.

اهتمامها مقصورًا على العرب فحسب، بل أرادت أن تبين النفوذ العربي على أوربا كخطوة في التاريخ الأوربي.

كانت مهتمة ببعث تقاليد الفلسفة العربية. وقد تبين أن تأسيسها الفكري الذي يقوم على حب الحضارة العربية يتضح في مناقشتها ومحاضراتها السياسية والأدبية.

أولاً: كتبها التي ترجمت إلى العربية:

١- في البدء كان رجل وامرأة. وهو أول كتبها، وصدر عام ١٩٥٣.

Am Anfang waren Mann und Frau, 1953/1987

٢- شمس الله على الغرب، أثر الحضارة العربية في أوربا

Allahs Sonne über dem Abendland – Unser arabisches Erbe, Stuttgart, 1960/1989.

ترجم الكتاب مرتين:

الأولى للدكتور فؤاد حسنين على، دار المعارف بمصر ١٩٦٩.

والثانية لفاروق بيضون وكمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري)، دار الجيل، ودار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٩٣.

وهي تعرض في هذا الكتاب ما قدمه العرب وقدمته الثقافة العربية والإسلام من مآثر، هدية للعالم كله، وليس للعرب فحسب. والكتاب نتيجة عمل شاق استنفد من حياة المؤلفة سنوات كثيرة، عالجت فيه مختلف نواحي النشاط العقلي العربي في ست وسبعين وثلاثمائة صفحة، فضلاً عن كثير من الصور واللوحات. وتكتب المؤلفة زيجريد هونكه في مقدمتها (نقلاً عن الترجمة

العربية التي قام بها الأستاذ فاروق بيضون وكمال دسوقي) أن السبب في تصميمها على كتابة هذا المؤلف هو - كما قالت - «وأردت أن أكرم العبقرية العربية، وأن أتيح لمواطنيّ فرصة العود إلى تكريمها. كما أردت أن أقدم للعرب الشكر على فضلهم، الذي حرمهم من سماعه طويلاً تعصب أعمى أو جهل أحمق».

وهي تبسط الحديث في كتابها هذا - إلى جانب العديد من المسائل – لنقد الحرية الغربية التي استنتها الحقوق الجديدة في أوربا. وقد جلب عليها هذا النقد بعض الحملات، زعمًا بأنها ليست مسيحية تمامًا، وطولب بحرمانها من حقوقها السياسية. ولكن تأثيرها كان قويًا في المفكرين الذين يعارضون الثنائية اليهودية المسيحية مثل دروات Droite ومؤسسي التاولي (حلقة نقاش تاولي Thaule - Seminar) الذين اتبعوا سياسة هونكه، ويصفونها بأنها ساحرة الحياة باعتبارها المحافظة المقدسة على الشخصية الألمانية التي تحافظ على الأصل والتراث.

ويتكون الكتاب من كتب سبعة:

الأول: البهار اليومي: أسماء عربية لمنح عربية – أوربا تقاسي الحرمان لموقفها السلبي من التجارة العالمية – البندقية تحطم الحصار – في مدرسة العرب.

الثاني: العدد: التراث الهندي - البابا يستخدم الحساب العربي – تاجر يعلم الأوربيين – حرب الأعداد.

الثالث: السماء فوقنا: الأبناء الثلاثة لموسى الفلكي (الصانع، الفلكي، الرياضي).

الرابع: الأيدي الشافية: الشفاء الإفرنجي العجيب – مستشفيات وأطباء لم يعرف العالم مثلها – أحد أطباء العالم العظام – قيود الماضي – يشقون طريقهم – يقظة أوربا – قال ابن سينا – أنصاب العبقرية العربية.

الخامس: سيوف العقل: المعجزة العربية – أوربا بين الشك واليقين – شعارات المنتصر – مداد العلماء خير من دماء الشهداء – الإنقاذ العربي وفائدته التاريخية – الترجمة حدث ثقافي – الغرام بالكتب – شعب يتوجه إلى المدرسة – هدية إلى أوربا.

السادس: موحد الشرق والغرب: دولة النورمان – توحيد القلوب المتنافرة – سلطان لو كيرا – البناء على أسس عربية – حديث على الحدود – ميلاد نظرة جديدة للحياة.

السابع: الفن العربي الأندلسي: الصيغ الأولى لعبارة «السيدة المحترمة» في أوربا – العالم كله مسجدي – الموسيقى ترافق الحياة – زخارف الحياة – شعب من الشعراء – عبد الله والحبيبة – المسالك في أوربا.

٣- جمال على معطف القيصر (لقاءات عربية ألمانية، منذ كارل الأكبر)، صدر عام ١٩٧٦.

Kamele auf dem Kaisermantel. Deutsch - arabische Begegnungen seit Karl dem Grossen, Stuttgart, 1976/1978.

٤- كتاب العقيدة والعلم / وحدة الدين الأوربي وعلم الطبيعة.

Glauben und Wissen - Die Einheit europäischer Religion und Naturwissenschaft, Düsseldorf 1979.

وقد ترجمه الزميل د. محمد أبو حطب خالد، وصدرت الترجمة ضمن

المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٧. وقدّم الدكتور أبو حطب للترجمة بمقدمة في ثلاثين صفحة[١].

ويقع الكتاب في ستة فصول بعد مقدمة عن علم الطبيعة في قفص الاتهام.

وتقدم المؤلفة في الفصل الأول استهلالاً للعصر الملقب بعصر النهضة الذي يسلم القارئ إلى الفصل الثاني عن عوائق أمام علم الطبيعة، وإلى الفصل الثالث عن أساسيات علم الطبيعة الأوربي، ثم الفصل الرابع عن إطلاق الشرارة الأولى على يد العلم العربي.

أما في الفصلين الخامس والسادس فتتحدث المؤلفة عن العلم والعقيدة بين التعارض والتوافق، وعن إدانة علم الطبيعة وبراءته في ظل الأزمة المعاصرة.

٥- الله ليس كمثله شيء - الكشف عن ألف فرية وفرية عن العرب.

Allah ist ganz anders. Enthüllung von 1001 Vorurteilen über die Araber, Bad König 1990.

وفي هذه الكتب كلها نجد أن المؤلفة تدور في فلك الحضارة العربية، وما يتميز به العرب من خلق حميد، وأن الإيمان بالله هو الذي يجعلهم يسلكون السلوك القويم دائمًا.

---

(١) تعرض دكتور أبو حطب في مقدمته هذه لكثير من المعلومات التي نقلتُها عن الدراسة التي قدمها هورست يونجنجر Horst Junginger فيما سبق بعنوان «زيجريد هونكه، الدين الأوربي الجديد وأنماطها القديمة المكررة»، إلا أن الكاتب يتحامل على هونكه كثيرًا ويتهمها بالنازية وبخضوعها لنظريات أستاذها لودفيج كلاوس وتأثرها بها، وبما كان يؤمن به من اختلاف رتب الأجناس وتفوق جنس عن الآخر.

ثانيًا: بحوث ودراسات:

1- Herkunft und Wirkung fremder Vorbilder auf den deutschen Menschen, Diss, Berlin, 1941.

منشأ المثل الأجنبية، وتأثيرها على الإنسان الألماني.

2- Schulungsbrief, Rassenseelenkunde, 1955.

رسالة مدرسية عن علم الأجناس.

3- Das Reich und das werdende Europa, eine europäische Ethik, Hannover, 1965.

الإمبراطورية وما أصبحت فيه أوربا. أخلاقيات أوربية.

4- Europas andere Religion. Die Überwindung der religiösen Krise, Düsseldorf, 1969.

دين أوربا الجديد.

5- Das Ende des Zwiespalts, Diagnose und Therapie einer kranken Gesellschaft, Bergisch Gladbach 1971.

نهاية الانفصال. تشخيص المجتمع المريض وعلاجه.

6- Das nach – kommunistische Manifest. Der dialektische Unitarismus als Alternative, Stuttgart 1974.

البيان الذي ما زال شيوعيًا، الوحدة الجدلية بديلاً.

7- Europas eigene Religion. Der Glaube der Ketzer, Bergisch Gladbach 1980.

الدين الخاص بأوربا، عقيدة الكفار.

8- Tod – was ist dein Sinn? Pfullingen 1986.

أيها الموت، ما وراءك؟

9- Vom Untergang des Abendlandes zum Aufgang Europas. Horizonte 1989.

نهضة أوربا بعد أفولها.

بعض ما كتب عنها :

وفضلاً عن كتبها فإن لها مقالات عديدة معظمها عن الشرق والإسلام والعرب. وكذلك كُتبت عنها مقالات كثيرة، منها ما تناول كتبها واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والدينية، ومن ذلك:

1) Renate Bitzan: Rechter Geist aus Frauenfedern. Beiträge von Frauen in rechtsextremen, Zeitschriften 1985 – 1993.
2) Stefanie von Schnurbein: Weiblichkeitskonzeptionen im neugermanischen Heidentum und der feministischen Spiritualität, in: Fanitfa Marburg (Hrsg.) Kameradinnen. Frauen stricken am braunen Netz, Unrast, Münster 1995, S. 113 – 136. ISBN 3-928300 – 25 – 3.
3) Jens Mecklenburg (Hrsg.): Handbuch deutscher Rechtsextremismus. Elefanten Press, Berlin 1996. ISBN 3- 88520 – 585-8.
4) Horst Junginer: Siegrid Hunke. Europe's New Religion and its Old Stereotypes, in Hubert Cancik, Uwe Puschner (Hrsg.): Antisemitismus, Paganismus, (Völkische Religion. Anti – semitism, paganism, voelkish religion). Saur, München 2004.

الذين أنصفوا العرب من المستشرقين الألمان :

سبق المؤلفة مستشرقون كثيرون أنصفوا العرب وكتبوا عن أفضالهم على الغرب، ذكر منهم د. فؤاد حسنين في مقدمة ترجمته لكتاب شمس الله:

جورج ياكوب، وإنو ليتمان، كما ذكر من المستشرقين بالقرن العشرين رودي باريت، وأوتو شبيس.. والحق أن أمثال هؤلاء المستشرقين علماء ألمان كثيرون. وقد ذكرتُ بعضًا منهم في كتابي «جهود المستشرقين في التراث العربي بين

التحقيق والترجمة»، الذي صدر في جزأين، ويمكن أن ننبه هنا إلى من أشار إليهم أستاذنا دكتور فؤاد حسنين:

(١) جورج ياكوب (١٨٦٢ - ١٩٣٧) Georg Jacob

ولد في كونزبرج، وتعلم في ليبزج وشتراسبورج وبرسلاو، وإيرلانجن، وبرلين، ونال الدكتوراه من ليبزج عام ١٨٨٧. درس على إدوارد رويس من جامعة شتراسبورج، وتأثر به تأثرًا عميقًا في دراساته عن علاقة العربية لغة وحضارة بلغات أوربا الشمالية وحضارتها، فكان أن تأثر الكثير من المفكرين بتوجهاتها العلمية، كما درس على نلدكه وفلايشر وآلفارت Nöldeke, Fleischer, Ahlwardt.

ومن آثاره:

- بضائع تلقاها العرب في العصور الوسطى من بلدان البلطيق الشمالية (١٨٨٦)، استنادًا إلى «أحدث التقاسيم» للمقدسي الذي نشره دي خويه[١].

- أثر الشرق في الغرب ولا سيما في العصر الوسيط (١٩٢٤). ونقله إلى العربية د. فؤاد حسنين «وكانت الفكرة السائدة في ذلك الوقت (في القرن التاسع عشر) عن الشرق العربي لا تتفق وماضينا السعيد، وعصورنا الذهبية، فالجامعات الأوربية كانت تمهد أو تخدم الرغبات الاستعمارية وجرفها تيار السياسة فغفلت أو تغافلت عن البحث العلمي الصحيح المجرد من الغايات»[٢].

---

(١) المستشرقون لنجيب العقيقي جـ٢ ص٦٦٥، ٧٥٣.

(٢) د. فؤاد حسنين بمقدمة ترجمته لكتاب شمس الله على الغرب، ص٢١.

(٢) إنو ليتمان (١٨٧٥ - ١٩٥٨) Enno Littmann

درس في برلين، وجريفسلاند، وهاللي (١٨٩٨). حصل على الدكتوراه الأولى والثانية ١٩٠١، ١٩٠٦.

قام بالتدريس بالجامعة المصرية عند إنشائها ثم في جامعات ألمانيا والولايات المتحدة. اشترك في بعثات التنقيب في سوريا وفلسطين والحبشة، وفي تحرير دائرة المعارف الإسلامية.

تربو آثاره على ٥٥٠ مؤلفًا بين مصنف ومحقق ومترجم، وبين تراجم وفهارس، ودراسات تناولت علاقة الشرق بالغرب.

ترجم ألف ليلة وليلة في ستة أجزاء (فيسبادن ١٩٥٣)[1].

(٣) رودي باريت (١٩٠١ - ١٩٨٣) Rudi Paret

درس اللاهوت والاستشراق. حصل على درجة الدكتوراه من جامعة تيبنجن Tübingen عام ١٩٢٦ ودكتوراه الدولة ١٩٣٠. عاش باسطنبول عام ١٩٣٠. وأصبح أستاذًا اعتبارًا من عام ١٩٣٩ في هايدلبرج وبون. شارك في الحرب بشمال إفريقيا ١٩٤٣ - ١٩٤٦. منع من التدريس بين عامي ١٩٤٦ – ١٩٥١ ثم عين أستاذًا بتيبنجن ١٩٥١ – ١٩٦٨.

من كتبه:

- محمد والقرآن Muhammad und der Koran

---

(1) المستشرقون: جـ٢ ص٧٨٦.

- ترجم معاني القرآن الكريم إلى الألمانية.

- الإسلام والثقافة اليونانية.

- المرأة في العالم العربي الإسلامي.

(٤) أوتو شبيس (١٩٠١ - ١٩٨١) Otto Spies

درس الاستشراق والقانون بجامعتي بون وتيبنجن. حصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٢٣ ودكتوراه الدولة ١٩٢٨. قام برحلة دراسية في تركيا ١٩٢٩ - ١٩٣٠. وأصبح أستاذًا بجامعة أليجرا بالهند ٣٢ – ١٩٣٦، وبجامعة برسلاو ١٩٣٦، وبجامعة بون ١٩٥١ – ١٩٧١.

رأس تحرير مجلة عالم الإسلام Die Welt des Islam وكتب مقالات كثيرة عن تاريخ طب الأسنان عند العرب؛ إذ كان معنيًا بموضوع الطب عند العرب. نشر رسالة الطير لابن سينا بشرح السهروردي[(١)].

ويهمني أن أضيف إلى هؤلاء المستشرقين الرواد:

(٥) أنا ماري شيمل (١٩٢٣ - ٢٠٠٣) Annemarie Schimmel

وقد تعرضت أيضًا عام ١٩٩٥ لحملة ظالمة بسبب وجهة نظر أبدتها في حوار تلفزيوني عن فتوى الخوميني الذي أهدر دم سلمان رشدي بعد إصداره كتاب «آيات شيطانية».

---

(١) المستشرقون جـ٢ ص١٠٢.

Ludmila Hanisch, Die Nachfolger der Exegeten Harrassowitz Verlag, Wiesbaden S. 200, 208.

فقد أبدت رأيها بأن التحريض على القتل شيء فظيع، إلا أن إهانة أمة كبيرة شيء أفظع، وعندما تقرر أن يقدم رئيس الجمهورية الألماني رومان هرتسوج إليها جائزة السلام سنة ١٩٩٥ التي يمنحها إياها اتحاد الناشرين في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب طالب عدد من رجال الإعلام الألماني بسحب الجائزة، ولكنها حصلت عليها. وهي تُعد أعلى جائزة يحصل عليها المفكرون الألمان.

زارت مصر عدة مرات، وألقت محاضرات عام ١٩٩٧ بدعوة من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في مؤتمر المجلس. ومنحها الرئيس محمد حسني مبارك وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى في احتفال وزارة الأوقاف بذكرى المولد النبوي تقديرًا لبحوثها الإسلامية.

وتوفيت أنا ماري شيمل في يناير ٢٠٠٣ عن عمر يناهز الثمانين عامًا[1].

من آثارها:

1- A Study into the religious ideas of Sir Muhammad Iqbal, Leiden 1963.

- دراسة عن الفكر الديني عن سير محمد إقبال.

2- The Triumphal Sun; A Study of Moulana Jalaloddin Rumi's Work, London 1977.

- الشمس المشرقة (أو المنتصرة)، دراسة عن أعمال مولانا جلال الدين

(١) وقد كتبتُ عنها فصلاً في كتابي جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة.

الرومي.

3- Denn Dein ist das Reich. Gebete aus dem Islam, Freiburg 1978.

- الملك لك: أدعية إسلامية (ترجمة ألمانية عن العربية والفارسية والتركية).

4- Und Muhammad ist sein Prophet, Die Verehrung des Propheten in der islamischen Frömmigkeit, Düsseldorf 1981.

- ومحمد رسوله. تكريم النبي محمد ﷺ في التدين الإسلامي.

5- Calligraphy and Islamic Culture, New York 1984.

- فن الخط الإسلامي.

6- Terres d' Islam. Aux sources de l' Orient muslim, Paris (Maisonneuve et Larousse 1994)

- علم الإسلام. عن مصادر الشرق الإسلامي.

7- Weisheit des Islam, Stuttgart (Reclam) 1994.

- حكمة الإسلام.

8- Meine Seele ist eine Frau, München (Kösel) 1994

- روحي امرأة / الأنوثة في الإسلام.

9- Jesus und Maria in der islamischen Mystik, München (Kösel) 1996.

- المسيح ومريم في التصوف الإسلامي.

10- Das islamische Jahr. Zeiten und Feste, München (C. H. Beck 2001).

السَّنة الإسلامية: المواسم والأعياد.

(٦) مراد هوفمان:

ولد حوالي عام ١٩٣٢[١]. حصل على درجة الدكتوراه في القانون من جامعة هارفارد، وكان سفيرًا لألمانيا في الرباط بالمغرب. وكان أول معرفته بالإسلام بالجزائر يوم ٢٨ مايو ١٩٦٢ حين رأى صلابة وصمود المجاهدين الجزائريين، ولم يفهم من أين يأتيهم هذا الدعم الخفي حتى قرأ القرآن[٢].

اهتم بالإسلام وتعمق في دراسته وتعرف مواقفه العلمية والسياسية والمالية ووجد «في كثير من كلمات الشاعر الهندي المسلم محمد إقبال آراء متفقة مع ما يذهب هو إليه من حيث ضرورة تفسير جديد للإسلام على أسس القرآن»[٣].

«ويشجب المؤلف (أي هوفمان) ويدحض ما يحلو لنا نحن الغربيين أن نطلق عليه الجبرية الإسلامية والتي يراها كثيرون منا سببًا رئيسيًا لجمود الإسلام وركوده»[٤].

وقد اعتنق الإسلام عام ١٩٨٠. ويذكر هو نفسه في تمهيد كتابه «أنه مرافعة تدافع عن الإسلام وتزكيه، جذورها ضاربة في التاريخ وأسسها قائمة على العلم والموضوعية، مع وعي المؤلف التام بالمعاناة والأدواء والمشكلات، لكنه على كل

---

(١) وفقًا لما ورد بترجمة كتابه الإسلام كبديل، ط. مجلة النور الكويتية مؤسسة بافاريا عام ١٩٩٣.

(٢) صفحة الغلاف بالترجمة.

(٣) كما تقول الأستاذة أنا ماري شيمل في مقدمة كتابه المترجم «الإسلام كبديل» الذي ترجمه غريب محمد غريب ص١٦.

(٤) السابق، مقدمة شيمل، ص١٩.

ذلك، خال من التبريرات والاعتذارات المعروفة في اللاهوت والتي تتغيا الدفاع عن الدين»[1].

وهو يجعل كتابه في عشرين فصلاً يتحدث فيها عن الإسلام والغرب والدين الإسلامي والمسيحي وتقابلهما في بعض الآراء وتغايرهما في غيرها، وعن التصوف والمسائل الدينية والحياتية والاجتماعية في الإسلام، ومغايرتها لما هو في الغرب.

وتقول د. أنا ماري شيمل في نهاية مقدمتها: «فإنني أزعم أن القارئ سيقع في هذا الكتاب على كثير من التفسيرات والتحليلات التي يجهلها أو التي يجدها جديدة عليه»[2].

ويأتي المترجم في آخر ترجمته (ص٢٤٥ - ٢٥١) ببعض ما كتبته الصحف عن د. هوفمان وكتابه الجديد. ويذكر ما أثارته الصحف الألمانية بكافة اتجاهاتها من عواصف ضد هذا السفير في المغرب الذي اعتنق الإسلام عام ١٩٨٠. وأورد ما قالته نائبة رئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي هرتا دويبلر جملين Herta Dwiblar Gamlien في جريدة بيلد أم زونتاج Bild am Sonntag مطالبة وزير الخارجية الألماني جينشر بالاطلاع على هذا الكتاب، مصرحة بأنه لم يعد مقبولاً أن يمثل مثل هذا الرجل ألمانيا، وقالت إن هذا الكتاب إن هو إلا مرافعة يشيب لها الولدان ضد العالم الغربي، الذي يدفع لهذا السفير عشرين ألف ماركٍ شهريًا.

---

(١) الإسلام كبديل، ص٢٣.

(٢) السابق، مقدمة شيمل، ص١٨.

وحملت عليه أيضًا صحف ومجلات أخرى مثل سيد دويتشى تسايتونج Süd Deutsche Zeitung، ودي فيلت Die Welt ودير شبيجل Der Spiegel وأخذت عليه دعوته لاتخاذ الإسلام بديلاً للانهيار الغربي، وسخرت منه حيث أجرى الحوار مع التلفزيون الألماني في مكان صلاته، الذي علق فيه صورة لرئيس ألمانيا.

ومن مؤلفاته:

طريق فلسفي إلى الإسلام.

دور الفلسفة الإسلامية.

يوميات مسلم ألماني.



تمهيد

أو «ما الحاجة إلى هذا الكتاب؟»

مزاعم تطمر الحقائق

«المزاعم هي الآراء المسبقة التي تتسبب في جَعْل تفهُّم الشعوب بعضها بعضًا أمرًا صعبًا وتيسر الازدراء بينهم». نطق بهذه العبارة رومان رولان Romain Rolland[1].

وينطبق هذا التعريف في مجمله- بخاصة- على علاقة مسيحيي أوربا بالعالم العربي الإسلامي؛ فلم تتوتر علاقة هؤلاء الأوربيين بأي شعب آخر مثل هذا التوتر الشديد الذي استمر مئات السنين بسبب اتخاذ آراء مسبقة. وتتسع هذه العلاقة المتوترة لتشمل شعوبًا بعيدة كل البعد، وغريبة عنا، وشعوبًا أخرى تعتنق ديانات مغايرة نعاملها بكل بساطة معاملتنا للشعوب الإسلامية غير العربية.

ما السبب وراء ذلك؟ لابد أن هناك سببًا يجعل الأحكام المسبقة (عن المسلمين والإسلام) التي سادت القرون الوسطى، وما زالت مستمرة حتى اليوم، هي التي تعوق التعرّف الموضوعي على عالمهم الروحي وعلى دينهم وتاريخهم وثقافتهم، ويبدو أنها ما زالت تسيطر حتى اليوم على الرأي العام عن العرب من خلال تزييف التاريخ.

ولم تفلح محاولتي بكتابي «شمس الله تسطع على الغرب» Allahs Sonne

über dem Abendland عام ١٩٦٠، وكتابي «جِمال على معطف القيصر» Kamele auf dem Kaisermantel عام ١٩٧٦[*] اللذين عرضتُ فيهما جهود العرب المهمة، وأثرها على معارف الأوربيين، وفنونهم إلى النور- على الرغم من أنهما أحدثا ثغرة في الجهالة التقليدية، فإن ضيق الأفق الذي تسبب في ازدراء العرب، وتوهُّم أنهم «رعاة ماعز مهلهلون» و«شيوخ بترول» يتربعون فوق حسابات بنكية سويسرية، وظلوا يصفونهم بهذه الصفات منذ أيام شارل مارتل فقالوا عنهم إنهم مقاتلون إسلاميون. وتزايدت موجة الاستياء ضدهم بزعم أنهم يضطهدون النساء، وأنهم برابرة، وأنهم كانوا سعاة بريد للمعارف اليونانية. وتزايد التعصب ضدهم نتيجة لتزييف الحقائق التاريخية التقليدية منذ مئات السنين، ونتيجة لويلات حرب الدعاية التي تجددت ضدهم في المحاضرات وروّجتها الصحافة والسياسات المتحيزة التي ألقت بالحقائق التاريخية في مقبرة جماعية ونشرت الفرى والأكاذيب.

وكان المراد من استمرار تشويه صورة العرب في موجة العداوة القديمة التي بدأت في القرون الوسطى ضد الخصوم «الكفرة» الذين أطلق عليهم الغرب «المحمديين» أن تمتد موجة الكراهية وتستمر.

وعلى الرغم من أن قلة المعلومات عند الأوربيين عمن أسموهم «الملحدين» كان من الممكن أن تصهرها حملة إعلامية موضوعية صغيرة تقدم معارف إيجابية يمكن أن يستجيب لها المتلقي الأوربي، فقد استبدلوا بذلك حملة

(*) Sigrid Hunke, Allahs Sonne über dem Abendland – Unser arabisches Erbe – Dies; Kamele auf dem Kaisermantel – Deutsch – arabische Begegnungen seit Karl dem Grossen.

هجومية، فانتُحلت كل انتصارات العرب العلمية وبخاصة اكتشافاتهم، ونُسبت إلى أسماء أوربية متخيلة، وكأن هذه الأسماء الموضوعة هي المكتشف الأول، حتى إن بعض كبار مؤرخي الحضارة أنفسهم ما زالوا حتى الآن يتهمون العرب بالعقم الكامل، وأنهم شعب غير مبدع، وأنهم لم يؤسِّسوا على حضارة القدماء التي لا مثيل لها وكنوزهم، ولكن قلدوها كالببغاوات ونقلوها إلى الغرب مثل سعاة البريد.

ومن المهم، بل ومن الواجب أن نبرئ ساحة الإسلام (دينًا)، ورسوله وتاريخه من المزاعم والفرى والمعلومات غير الصحيحة. وهذا ما تؤكده موجات الإعلام الجديدة التي توجَّه ضدهم ويعاني منها جماعات المهاجرين الأتراك، وتمنع بعضهم من تأسيس الحزب الإسلامي بألمانيا (IPD)، وضد التعصب الأصولي للأتراك، على حين أن المعلومات الخاطئة ونقص المعرفة التامة بالإسلام لا تستند إلى أي أساس، ومن ثم أصبحت هذه المزاعم طلقات مدفع تصوَّب للإسلام ونبيِّه وللعروبة كلها. وعلى أي حال فليس كل ما هو إسلامي عربي المنشأ.

ولا يهدف هذا الكتاب إلى تصويب المزاعم القاسية الكثيرة وتفنيدها فحسب، ولكن- وقبل أي شيء- يهمنا أن نوضح كيف أن صدمة الغرب المشئومة كانت نتيجة لإصابة نفسية عميقة. وقد حالت هذه الصدمة منذ آلاف السنين دون فهم العرب، وتسببت في جعل ازدرائهم سهلاً، بدلاً من أن يوجَّه إليهم الشكر والامتنان على هباتهم العظيمة للغرب. ولن تندمل جراح المريض إلا بالتغلب على هذه الصدمة وتَفَهُّم مسبباتها، وإلا إذا عُرف سبب إصابة المريض بها.

الفصل الأول

١- المحمديـون

«ونسبوا أتباع النبي الجديد إليه، فهم عندهم المحمديون». ترى كم من القراء التفت إلى أن هذه النسبة غير صحيحة؟ فهذا التزييف الذي أطلقته صحيفة يومية، يوم ٦ من يناير ١٩٩٠ لم يلق أي اعتراض، مثلما يحدث مع رجل الشارع إذا سُئل عما يعنيه عندما يلفظ بكلمة «المحمديين». ستجد رده أنهم بالطبع أولئك الذين يؤمنون بمحمد (وعلى أيٍّ فإن المعنى المراد هو أولئك الذين يتبعون محمدًا).

ويرجع صك هذه التسمية الزائفة إلى مئات السنين؛ إذ نقله الإنجليزي فيلهلم فون ساليزبري Wilhelm von Salisbury[٢] عن تعبير شعبي كان مستخدمًا في عصره، حين يتحدثون عن مسلمي إسبانيا.

فقد عرف الغرب عنهم قصصًا تقشعر لها الأبدان، تزعم أن خلف جبال البرانس يعيش أناس في قرطبة- وهى مقر سلطان عبدة الشياطين، ومحضِّري الأرواح - محاطين بالسحرة والمشعوذين الذين يرجعون إلى كتب سرية، يتربع على عرشهم الوثن الذهبي ماهومت Mahomet أو مخمد Machmed تحرسه فيالق من الشياطين، وتركع عند قدميه عبدته، وقرابين ملوثة بالدماء يضحَّى بها قربانًا له.

وقد مضى أكثر من ثلاثة عشر قرنًا منذ أن بشّر محمد ﷺ بالإسلام- ومعنى الإسلام التسليم لله- مر اثنا عشر قرنًا منذ أن تسمى أتباعه بالمسلمين- ومفردها

مسلم- أي الذين يسلمون أنفسهم لله، ولم يطلقوا على أنفسهم قط اسم المحمديين.

وبعد أن أطلقت لفظة السراسنة «Sarazenen»[٣] على المسلمين في الغرب، وهو أصلاً اسم قبيلة عربية غربية، أطلق عليها اسم مسلمان Muselmanen، والاسم الدارج موسلمنَّر Muselmänner، وهو فهم خاطئ للتسمية الفارسية مسلمان[٤]، وتشويه لطريقة النطق بها. ثم أقلع عن هذه التسميات، وتفشت في اللغات الأوربية بالقرن التاسع عشر تسمية المحمديين. وهذا يدل على جهل الغرب المسيحي بمدلولها.

لقد مضى اثنا عشر قرنًا ونصف منذ كان للعرب المسلمين إمبراطورية أكبر من الإمبراطورية الرومانية. وعندما حكموا صقلية وإسبانيا ووطئت أقدامهم القارة الأوربية، ظلوا في صقلية قرنين ونصف، وفى إسبانيا ثمانية قرون- من ٧١١ إلى١٤٩٢م- وعاشروا الإيطاليين والإسبان. على حين دامت الحروب الصليبية قرابة ثلاثة قرون، كما أقام الفرنجة في القدس مملكة. واستمرت الحروب بين العرب والأوربيين، وكانوا في تلاحم يومي في الحرب والسلم. ومع ذلك- وهذا أمر لا يصدق- بقيت معرفة الأوربيين بالعرب وبحضارتهم وتاريخهم، وطباعهم المختلفة عن الطباع الأوربية معرفة سطحية للغاية.

ومن المخجل أن يتجلى هذا النقص المعرفي حتى لدى عالم من كبار مؤرخي الحضارة في هذا القرن (العشرين) - وهو العالم الإنجليزي أرنولد توينبي[*]

(*) Arnold Toynbee, Studie zur Weltgeschichte, Hamburg 1949, S. 25 ff.

A.J.Toynbee[٥] ويدل على ذلك حكمه على العرب بأنهم «ليسوا إلا عربًا بدائيين. وأنهم خلق غريب كان مستعبدًا للحضارة الهيلينية»، وأن «المحمديون البدائيون» يُعدون محاكاة بربرية لديانة سريانية غريبة عنهم ولكنهم لم يعتنقوا المسيحية».

وقد بقوا بسبب دينهم وعباداتهم لربهم، وكتبهم المقدسة، وفروضهم الدينية خارج كل اهتمام. وأنهم في خيال المسيحية الغربية- كما يؤكد فيلهلم فون ساليزبري Wilhelm von Salisbury «بقوا تحت رحمة أغلظ الشياطين وألعنهم.....».

وعلى الرغم من الروابط التي جمعت الغرب والعرب بالمجاورة قرونًا طويلة- إلا في حالات استثنائية- لم تزل كراهية الغرب للعرب كلية بسبب كراهية العقيدة، وقد وجهوا إليهم العديد من المزاعم الزائفة التي لم توجَّه إلى شعب آخر من شعوب الأرض، وكان لهذا سبب معين.

٢- رسوم «أسود- أبيض»

العداء وحده- ولو كان بسبب العقيدة- ليس كافيًا لتبرير فرض العراقيل أمام معلومات أفضل، وأبحاث موضوعية أدق، وتعرف الحقائق العلمية دون تحريفها وتزييفها، فضلاً عن ازدراء الخصم وكراهية عقيدة الآخر.

ولكن العداوة- فيما كان المحاربون الجرمان يعتقدون- لا تمنع احترام الخصم موضوعيًا وتقديره، سواء أكان العدو من الجيوش الصربية أم السلافية أم الإسلامية، أم كانوا من الهون[٦] الذين يقتحمون الإمبراطورية، فالإنسان يرى في أي منهم عدو الإمبراطورية، دون أن يستثنى منهم أحدًا.

ولكننا نجد في رودليب Ruodlieb[٧] وهو شعر البطولة الملحمي Versepos المعروف في العالم، الصفات التي يجب أن يتحلى بها من يمتلك روح الفروسية أمام خصمه، إذ يجب عليه «أن يجود عليه بالرحمة ودماثة الخلق وأن يرفق به».

ولكن هذا سرعان ما تغير بمجرد أن مقررًا كنسيًا، أو مؤرخًا، أو شاعرًا يقرر أن الحرب ضد «الكفرة»، وهم الذين لم يعرفوا الإله حتى الآن، ولكن إمكانية أن يُبَشروا بمعرفة الإله متاحة. وفي هذه الحالة يبقى تصميم «الأبيض والأسود» الجديد في إطار التسامح واللطف. أما إذا كان التقرير المستخدم يهدف إلى محاربة «الكفرة» الذين لا يريدون أن يتعرفوا الإله المسيحي الحقيقي، فهذا هو التضاد الحاد الذي يصل إلى السواد الحالك. ووفقًا للتقارير الكنسية فإن الفارس المسيحي يناضل في بسالة، وبالإرادة الإلهية والجلالة الربانية، في

حين أن الكفرة الخبثاء يُقْدِمون بمجون وتكبّر على حرب دون اعتبار لأي مقاييس، ويسرفون في التقتيل. وتصنف الكنيسة الرومانية هؤلاء «الملاحدة»- وفقًا لما يَدّعونه من حق مطلق- ضمن جميع الذين يدينون بديانات أخرى، الذين لم يتم تعميدهم في الكنيسة.

ويأتي العرب في حسابهم هذا على رأس «عبدة الأصنام» و «أتباع الشيطان»، كما يصفونهم في مواعظهم الكنيسة باشمئزاز وتقزز.

ولكن العرب في حقيقة الأمر يصلّون لله الواحد الذي لا إله غيره، وفى كل صلاة يؤديها المسلم ينطق عند التشهد: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله».

٣- نداء يدعو إلى قتال «أعداء الله»

عندما دعا البابا أوربان الثاني .Urban II[٨] فى ٢٧ من نوفمبر ١٠٩٥ في مدينة كليرمون Clermont[٩] بفرنسا أن يحتشد جميع الفرسان الأوربيين، وأن يحملوا الصليب، ويذهبوا لتحرير «قبر المسيح الذي خُرِّب» (أي إلى بيت المقدس)، بدأ تحول حاسم.

وقد تبين أن وراء صيغ الدعاية هذه- كما سيتضح فيما يلي- سياسة كَنَسية خفية مدروسة بعناية ودقة، تهدف إلى إثارة غضب الفرسان العاطلين نافذي الصبر؛ إذ قامت الكنيسة بإرسال الوعاظ الجوالين الذين أفلحوا في تكوين حركة جماهيرية شعبية تَمَلّكها الوجد الصوفي. وكان أوربان الثاني يأمل من وراء القيام بهذا العمل المؤكدة نتائجه أن ينجح في تحقيق خطة جريجور السابع .Gregor VII[١٠] المتحيزة برأب الصدع بين الكنيسة الرومانية والكنيسة الشرقية وأن يعيد الاتحاد الكنسي ثانية. وقد أتاحت له هذه البواعث رسالة قيصر بيزنطة ألكسيوس Alexios[١١] عندما اجتاح السلجوق الأتراك[١٢] آسيا الصغرى وكنائسها، فأرسل له يطلب النجدة بإرسال جيش من الفرسان المرتزقة الأوربيين. ولكن خطر الأتراك زال بتراجعهم بعد حربهم الثأرية، وكان الباسليق (رئيس الرهبان في الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية) يرى ضرورة شن حرب انتقامية ضد الأتراك دون الاستعانة بأي قوى غربية كاثوليكية.

والأمر كذلك بالنسبة للمباني المقدسة؛ إذ أعيد بناء الكنيسة فورًا بعد أن ظلت أربعة أجيال مهدمة. فلم يكن ثمة حاجة إذاً للتخطيط العظيم لتحريك

الجيوش. ولكن البابا- وهو أعلى سلطة كنسية في العالم كله، ورسول الرب - كانت له أهداف أخرى؛ إذ لم يكن خليقًا به أن يُخلف ظن الفرسان- والغاية تبرر الوسيلة- وهم الذين يتحرقون شوقًا لتحرير المقدسات المسيحية، ولا يحق له أن يخلف وعده لهم، حتى لا يظلوا قابعين في ديارهم التي ضاقت بهم.

وكان يهدف أيضًا إلى الخروج من الضائقة المالية، وكان كل ما يريده هو اختبارهم في الحرب بالبلاد البعيدة، وتبين ما إذا كانت رغبتهم المستعرة في القتال للدفاع عن الدين، أم أنها مجرد تعطش للنزال، ورغبة في المغامرة، وطمع في الغنائم. وقد دعا البابا- في الوقت نفسه- إلى خروج الحجاج إلى بيت المقدس مدججين بالسلاح، مستصرخًا فيهم نخوة الفروسية، ليحرروا إخوانهم المسيحيين الشرقيين في آسيا الصغرى الذين يعانون الذل. وكل هذا كان الهدف منه زيادة السلطة الكنسية، وبسط نفوذها بعد الاتحاد مع الكنيسة الشرقية، وضمها إلى كنيسة روما.

آهٍ من هذا البابا! فعند رئاسته للمؤتمر الكنسي أمام الفرسان المختارين المدججين بالسلاح، كان من الذكاء بحيث خطط بما أجراه معهم في محادثات تمثيلية مؤثرة دامت أيامًا طويلة حتى يتبين له أنهم قد فهموا أن ما يقوله إنما هو دعوة - باسم المسيح- إلى الحرب.

وسارع الأسقف إديمار Bischof Ademar[١٣]- الذي كان مُعَينًا من قبله قائدًا للحملة الصليبية - بالتقدم أمام الصفوف، وركع أمام البابا ليتلقى منه إشارة الصليب، ليكون قدوة للفرسان.

عرف البابا كيف ينتقى الألفاظ المؤثرة التي تحرك العواطف وتثير غضب

سامعيه، فهو يُفهم الفرسان أنهم المختارون، وأنهم أبناء الرب، واستطاع أن يشوّه صورة أعدائهم ويحط من شأنهم. ويقول لهم: «لست بمنذركم، وإنما الرب هو الذي يطلب منكم ويحذركم، فأنتم حملة لواء المسيح، عليكم أن تطهروا الأرض المقدسة التي يعيش فيها إخوانكم المسيحيون من هؤلاء الرعاع».

وبهذه الكلمات التي تفوه بها في إلحاح حدث شيء خطير لا يمكن مراجعته أو إصلاحه أبدًا، فبهذه المناقضة شديدة التطرف يفرض الرئيس الروحي الأعلى للمسيحية- بقوة التفويض الإلهي- على فرسان الغرب محاربة العالم الإسلامي، وهو يمدهم بالإزميل الذي يشوه وجوه العرب والمسلمين تشويهًا لا تندمل جراحه طوال قرن من الزمان، وكانت هذه طريقة ظالمة تخشى عواقبها من وجهتي نظر كما سنذكر فيما يلي...

٤- تربية النشء على الكراهية

كتب القديس أوغسطين Augustin[١٤] مقالة فصل فيها بين العالم الروحي والعالم الدنيوى فصلاً قاطعًا، وفصل أيضًا بين ملكوت الله وعالم الشيطان المعادي له. وقد ترسخ هذا بوضوح جلي في دير كلوني Cluny[١٥]، وتجسد أيضًا عند المؤرخين والشعراء الدينيين في صورة الضدين الأبيض والأسود. ولقي هذا كله استحسانًا عند السلطة الكنسية وغلاة المتطرفين، ووعاظ العامة و الوعاظ المتجولين، فصبوا كرههم الهستيري على «أعداء الرب» و «أعداء المسيح» الذين وصفهم بأنهم ديدان حقيرة. وقد اتخذوا لدعايتهم الزور للحروب الصليبية شعارات «تحرير بيت المقدس» أو «القبر المقدس» باعتبار ذلك من أهم ما يهدفون إليه. ولم يهتموا في دعايتهم أي اهتمام بتحرير «الأخوة في آسيا الصغرى» أو المنطقة البيزنطية التي سقطت في أيدي السلاجقة الأتراك، وكنائسها التي استصرخهم باسيليوس Basileus[١٦] لإنقاذها. وأرسل إلى البابا أوربان يرجو المساعدة، ولكن هذا كله لم يكن غرضًا رئيسًا، وكذلك لم يذكر أي شيء عن توحيد الكنيستين. ولكن كان من الضروري وجود لافتات دعائية أخرى لإذكاء نار الكراهية، والوصول بها إلى درجة الاشتعال، لذا انطلقت الأساطير والإشاعات والشعارات عن تدنيس مزعوم لقبر المسيح الذي وقع في قبضة الملحدين، وأنهم انتهكوا حرمة المسيحيين، وحجاج الأرض المقدسة، وعذبوهم في وحشية، كل هذا ليستنهضوا الهمم للمشاركة في الحروب الصليبية.

وقد أثمرت دعايتهم ثمرات شؤم. ولا عجب فإن كل ما زعموه في كل مكان من أعمال فظيعة مختلقة في سهولة عما لقيه قبر المسيح على أيدي الطغاة

فَجَّر شهوة الانتقام عند فرسان الحروب الصليبية الذين جاءوا مع الآباء المقدسين، متقدين حماسة، بلا أدنى دراية بالحقيقة عن مسألة انتهاك المقدسات.

والحق الذي لا مرية فيه أن ذلك لم يحدث مطلقًا، باستثناء ما حدث قبل ذلك بتسعين عامًا، وهو ما أمر به الخليفة المريض نفسيًا الحاكم بأمر الله الثاني[١٧] من تخريب، إلا أن والدته نفسها أسرعت بترميم كنيسة القيامة، وإعادة بناء تلك الكنيسة التي عهد بها الخليفة المسلم هارون الرشيد من قبل في سماحة و فروسية عربية إلى القيصر المسيحي كارل Kaiser Karl[١٨] ليبسط حمايته الشرفية عليها، وسلم البطريرك Patriarch مفاتيح المنطقة المقدسة، فخلق بذلك جوًا من السماحة لا نظير له. وبعد ذلك بحوالي مائة عام تلقى الأسقف إجناتيوز Bischof Ignatios في بيزنطة رسالة من أخيه في العقيدة البطريرك ثيودوسيوس Patriarch Theodosios من بيت المقدس. وقد قرأها الأسقف مندهشًا؛ إذ جاء فيها:

«العرب هم سادتنا هنا، وهم لا يحاربون الديانة المسيحية، وإنما يذودون عن عقيدتنا، ويحترمون كهنتنا وقديسينا، ويجعلون مخصصات لكنائسنا وأديرتنا».

ولم يكن من الممكن تصديق هذا (عنده)؛ إذ إن ذلك يحدث في الوقت الذي يخيم فيه جو معتم تتربص فيه بالمسلمين عداوة مميتة، وجو مفعم بالاستعداد للحروب الصليبية. على حين أنه منذ زمن محمد ﷺ، وظهور الإسلام، ومنذ اعتناق العرب الإسلام، وإسلام الأتراك، مارس الحجاج المسيحيون- باستثناء حوادث قليلة في أزمنة قصيرة محدودة – حقهم في السعي إلى الأراضي المقدسة في سلام.

وعلى الرغم من ذلك شهدت بلدة كليرمون Clermont دعايات البابا الحاقدة التي دبرها في إمعان عن تدمير كنائس آسيا الصغرى، وانتقلت إلى القبر المقدس وغير ذلك من أماكن، ملحّا على الفرسان المختارين جنود الرب أن يسارعوا بنصرة المستضعفين، واستخدم في ذلك كل ما أوتي من قدرة لإشعال خيالهم من خلال الوعظ الذي أثار الحمية، وأشعل نار العصبية في صورة كئيبة، وبنبرات حزينة يوقد بها نار العصبية الدينية بدعاية وهمية، وخطب تثير النفوس، تحض على اتباع أمر الإله بالقصاص من العرب المجرمين.

وعلى الرغم من شدة الإرهاق - الذي لا يمكن أن يتحمله أحد، أو يتصوره - الذي حل بالجميع، وأدى إلى الكثير من الخلافات والمعارك بينهم، تلك المعارك التي امتدت شهورًا طويلة في كافة البلدان الأوربية، وفي آسيا الصغرى دون أن تنفض، فإن حقدهم على أعداء الرب لم يتضاءل، بل على النقيض أخذ يتزايد، حتى إنهم ما أن وصلوا إلى هدفهم المنشود – وهو بيت المقدس – حتى دمرت انفعالاتهم كلّ الأهوسة والسدود، وصبوا جام غضبهم على أهل البلاد وعاملوهم بكل قسوة وعنف.

لقد لجأ الفرسان إلى الصيام ثلاثين يومًا نذرًا للإله فتأجج حماسهم، واحتد غضبهم وعصبيتهم – وبخاصة بعد المواكب المفعمة بالمواعظ والصلوات المتزايدة – فاندفع الفرسان الفرنجة والفرنسيون والنورمانديون في حواري بيت المقدس، يقتلون كل من يقابلون من رجال ونساء، وكهول وأطفال فيما يشبه حمام الدم. ووفقًا للمصادر الأوربية كانت حصيلة هذه المذابح تربو على عشرة آلاف قتيل. وكان البطريرك – فيما يذكر المؤرخ المسيحي ميشائيل السورى

Michael der Syrer - يجرى بسيفه في الحواري ويقتل كل من يلقاه من المسلمين، ولم يتوقف إلا عندما وصل إلى كنيسة القيامة وقبر المسيح، حيث غسل يديه وذراعيه من الدماء، وهو يردد كلمات المزمور ٥٨: ١٠-١١.

«يفرحُ الصِّدِّيقُ إذا رأى النقمةَ، يغسل خطواتِه بدمِ الشريرِ. ويقول الإنسانُ إن للصِّديقِ ثمرًا، إنه يوجدُ إلهٌ قاضٍ في الأرض».

ثم يقيم القداس ويقول إنه لم يقدم للرب - قبل ذلك - أي قربان يحوز رضاه مثل هذا(*). وآنذاك تحول الميدان حول قبة الصخرة والمسجد الأقصى الذي فرّ إليه معظم السكان المسلمين يحتمون به، إلى حمام دماء عندما هاجمهم الفرنجة الثائرون الذين خاضوا في حمام الدم هذا إلى كعوبهم.

وكانت هذه الحملة الصليبية الأولى الجديرة بالذكر التي دعا إليها البابا أوربان الثاني .Papst Urban II في ٢٧ من نوفمبر ١٠٩٥ (٤٨٨هـ) مقدمة لتاريخ إنساني درامي حزين، لا مبرر له. وقد تبين دهاء البابا وتخطيطه الخبيث الذي أدى إلى هذه الحملة، والغلبة الساحقة لفرسان الرب المسيحيين الذين حاربوا من أجل المسيح فيما يتوهمون، وكانت العاقبة - في الوقت نفسه - هزيمة أخلاقية مروعة سجلها التاريخ لهم. وكان لذلك في العالم الإسلامي صَدًى وخيم ما زال راسخًا في إدراك العربي ووعيه حتى اليوم، وما زالت نتائج هذه الحملة الصليبية الأولى تمثل بقعة عار فوق الدرع الأوربي.

ويكثر الشاعر أبو المظفر الأبيوردي(١٩) في شعره من التعبير عن الآلام التي جرتها هذه الكارثة التي حاقت بشعبه، لما اقترفه الصليبيون، فيرثي إخوانه،

(*) Recueil, Documents armés I 329, zit. in: Adolf Waas, Geschichte der Kreuzzüge, 1956, 1. Bd. 24.

ويستصرخ العرب داعيًا للجهاد:

اختلطت دماؤنا بدموعنا

وليس بيننا الآن من يصلح

لدرء الأعداء الذين يهددوننا

فما أشد حزن الأسلحة التي ترى الرجل يسفك الدموع

بينما تدور رحى الحرب وتدفع الجميع إلى نار

بالسيوف اللامعة.

آه، ما أكثر الدماء التي سالت ولم يستطع الرجال

أن يتركوا للنساء ما يحفظن به عوراتهن إلا كفوفهن

حد السيوف اللامعة تخضب باللون الأحمر

وتغطت أسنة الرماح ذهبية اللون بالدماء

وبين لطمات الرماح والسيوف يصبح الفزع رهيبًا

وتصبح وجوه الأطفال شاحبة البياض من الخوف

كان الفزع رهيبًا في هذه الحرب، حتى إن

الذين نجوا يأملون برغم الهول البقاء على قيد الحياة

وهم يعضون على النواجذ غضبًا وألمًا

ويصبح غضبهم كالسيف الذي يهتز في يد الكافر

ويقطع الرقاب ويحطم الرؤوس(*).

(*) [illegible] a. O. I 154.

٥- صدمة الغرب من العرب

إن ما كان يهدف إليه البابا أوربان الثاني هو تحقير المسلمين، وكذلك كان هدف وعاظ الحروب الصليبية عندما يصفونهم بأنهم «أوغاد سفلة» وأنهم «أعداء الإله»، و«أعداء المسيح». وهذا ليس حقًا، إذ إن الإسلام يؤمن بأن المسيح نبي الله ويحترمه. كذلك فإن الفرية التي يصفون المسلمين بها وهي أنهم «يدنسون القبر» ليست صحيحة. وهم لم يتأهبوا لتشويه الدين الإسلامي والسخرية منه ومن إله المسلمين ونبيهم لمجرد الإساءة لهم بطريقة لا جدوى منها، وازدرائهم، وكراهيتهم كرهًا مميتًا، ولكنهم أشعلوا الرغبة، وألهبوا الاستعداد لعقابهم على ما زعم البابا أنهم قد اقترفوه، مما جعل الفرسان يشعرون بتضخم الذات تضخمًا متزايدًا بصورة لم تحدث من قبل، فصاروا يعتقدون أنهم صفوة الناس، وأنهم أرقى من هؤلاء «السفلة»، ورأوا أن العرب ليسوا إلا شرذمة حقيرة في درك أسفل منهم، أما هم فإنهم مختارون من الله. وهذا ما سمعوه من فم خليفة الإله في الأرض، وما صدر عنه من الاستهزاء بالعرب واستنفار الفرسان للقتال حين يقول:

«أي عار يلحق بنا إذا ما انتصر هذا الجنس الملحد الذي لا يستحق إلا الازدراء، والذي يتجرد من كل كرامة إنسانية، وُجِدَ ليكون عبدًا وضيعًا للشيطان إذا قُدر له الانتصار على شعب الله المختار».

ولكن هذا الخزي نفسه هو الذي عاناه الغرب بعد قرنين ونصف من الصراع الذي كان مستمرًا طوال هذه الفترة. فقد لقيت الجيوش الصليبية هزائم

متوالية عدا في موقعتين اثنتين؛ إذ إن الصليبيين لم ينتصروا إلا في حملتين؛ هذه الحملة الأولى الدموية التي أتاحت لهم تأسيس مملكة الفرنجة في بيت المقدس، التي ظنوا - فيما قرروه - أنها ستبقى دائمًا، وفي الحملة الخامسة السلمية التي قادها القيصر فريدريش الثاني .Kaiser Friedrich II[٢٠] فقد تمت في جو تسوده الصداقة دون إراقة للدماء(*). أما بقية الجولات فقد منيت فيها الحملات الصليبية بشرِّ الهزيمة، تلك الحملات التي أشعلتها الأطماع السياسية مستغلةً الحماس الديني عند الجماهير لتحقيق الرغبة في التوسع، وبسط النفوذ(**).

وانتهت الحروب الصليبية بالهزيمة التامة، فحلت الصدمة بالغرب. أليس هذا هو قضاء الله بمعاقبة المسيحيين؟ ألم ينصر الله ديانة المحمديين على المسيحية؟ ألم يلحق بهم الخزي الذي كان البابا المقدس يخشاه، ويصفه بأنه سيكون الطامة الكبرى؟ ألم ينصر الله محمدًا على المسيحيين، وهم الذين لم يزدريهم، ولم يصفهم بأنهم عبدة الشيطان وجنس ملحد. ويتساءل ريكولدوس دي مونت كروسيس Ricoldus de Monte Crucis هل تغلبت بركات محمد على بركات المسيح؟ ويتمادى شاعر التروبادور أوستورك Austorc فيتساءل في شعره مستنكرًا: «هل آن لنا حقًا أن نؤمن بمحمد؟»(***).

حقًا لقد كانت هذه هي عاقبة العاصفة التي عصفت بالعالم على مدى قرون وكلفتهم تكاليف باهظة، وأثارت ندمهم، وتسببت في قتل الكثير من البشر بعد

(*) Sigrid Hunke, Kamele auf dem Kaisermantel, a. a. O., S. 66 f.
(**) Islam und Abendland, hg. v. M. Asad und H. Zbinden, 1966, S. 91.
(***) A. Waas, a. a. O., II 156.

تأليبهم بعضهم على بعض بطريقة مخططة منتظمة. وقد دفعت الكنيسة والبابوات ثمن ممارستهم لأعلى سلطة يتمتعون بها بسقوطهم السريع؛ إذ تهاووا إلى أسفل درك، أطيح بسمعتهم، وزُلزلت ثقة الناس بهم.

كانت هذه الكارثة التي تسبب فيها القائمون على الشئون الكنسية بإرسالهم الملايين من المؤمنين إلى الحروب، قد خلقت ارتيابًا وخاذًا، وأسى بشريًا لا يمكن أن يُقَدَّر؛ إذ لم يعد من هذه الحملات إلا الخُمس من الفرسان الأوربيين الذين أرسلوا في الحملات الصليبية الست الكبيرة، فضلاً عن الحملات الصغيرة التي لا يمكن إحصاؤها، تلك التي أُبيدت فيها أعداد لا تحصى، ومنهم المشاة البسطاء، وبينهم صبية ومراهقون يتراوح عددهم بين الثلاثين والخمسين ألفًا.

ولكن من الذي يمكنه أن يقدر مدى الشعور بالخزي والعار اللذين انتابا الصليبيين عندما تعرفوا حقيقة خصمهم ومثالية عقيدته وحماسه غير المتناهي وصوفيته عندما اتصلوا به، ومع ذلك لوّثوه بوصف المسلمين بأنهم «أوغاد سفلة»؟

كان الغربيون الذين يقيمون في المشرق هم أول من تفتحت عيونهم، فتبينوا أن من وُصفوا لهم دائمًا بأنهم «أوغاد سفلة»، يبادلونهم هذا الاحتقار نفسه لأنهم ليسوا فقط بشرًا مثلهم، بل إنهم يتفوقون عليهم، ليس فقط في فن الحروب، أو في براعتهم في تسلحهم واستخدامهم (للحديد) الصلب الدمشقي في صنع الأسلحة التي يتدجج به رجالهم وخيولهم، وفى بنائهم للقلاع والحصون وآلات الحصار، أو في عنايتهم الطبية بالجرحى، وإنما في استماتتهم في الدفاع الصادق المقدس عن وطنهم، وتنظيمهم الأفضل، والتزامهم بالخلق القويم أثناء

الحروب. أما الصليبيون فكانوا شراذم متنافرة لا تكاد تعرف كيفية التكاتف عند القتال الجماعي والالتزام بأداء الواجب الخطير. فقد رمى الغرب إلى المعركة بفرسانه المغرورين بعد أن غذى غرورهم بما بثه فيهم بأنهم المختارون الذين عهد إليهم الإله بأن يقتصوا من «الكفرة»، لما اقترفوه من آثامهم المزعومة. وأرسلهم إلى الأرض المقدسة بأمر من أعظم وعاظ الحروب الصليبية برنارد دي كليرفوه Bernard de Clairvaux يقول: «إما الدخول في النصرانية أو الإبادة».

ولكنهم دحروا في الحرب، ورجعوا إلى ديارهم يلفهم العار؛ إذ إن الإله نصر محمدًا على المسيح، أي نصره عليهم، فأصبح الإله «عدوًا لهم».

لقد أصيبوا بصدمة نفسية زعزعتهم، وألقت بهم وبشعورهم بالثقة والاعتداد بالنفس في هوة سحيقة، جرحى المشاعر. أما الدعاية المشحونة بالكراهية التي لا خلاق لها، والتي كانت تشعل جذوتها أعلى سلطة لا تشعر بالمسئولية، تلك التي نفخت فيهم روح الكبرياء الكاذب تركتهم لهذه العقدة النفسية الغائرة(*)، وما زالت تحكم موقف العالم المسيحي في الغرب، وتحدد نظرته للعرب والعروبة حتى اليوم.

ما زالت هذه الصدمة توصد الطريق أمام كل معرفة موضوعية، تتفق والواقع، دون بذل أي محاولة أو إبداء أي استعداد لمعرفة الحقيقة دون أحكام مسبقة، فضلاً عن تفهمها. وبدلاً من تقصّي الحقيقة موضوعيًا انتصر الجدل الهجومى الحاد، فانتشرت الدعايات الكاذبة التي أصبحت أحكامًا إسمنتية

(*) Muhammad Asad, in: Islam und Abendland a. a. O., S. 20.

راسخة، وأصبح لها صلاحية البديهيات المسلم بها على مرّ العصور.

ولا تزال هذه المزاعم الراسخة تتغذى بمغالطات لا حصر لها وليدة سوء الفهم، تصدر عن صور دينية ظالمة للخصم، وعن تحيز مذموم ومعلومات من جانب واحد، وكذلك عن الإساءة المشوِّهة عمدًا، ونقص بيّن في المعرفة. وكل هذا ممثل في:

- ميدان العقيدة، والتصور الديني، وتصور المسلمين للألوهية ومؤسسها ومعتنقيها (والخلط بينهم وبين إلاههم)... إلخ.
- وفى تاريخ العرب الإسلامي وتاريخ الشعوب الإسلامية الأخرى
- وفي التعايش مع الناس، ومع الذين يؤمنون بعقائد أخرى.
- وفي وضع المرأة في التاريخ، وفى الزواج، والأسرة، والعمل.
- وفى الثقافة، والعلوم، وفى الفن، والتقنية.
- وفى السياسة المعاصرة.



تعليقات التمهيد والفصل الأول

(١) رومان رولان (١٨٦٦ - ١٩٤٤) Romain Rolland

كاتب، قدم أعمالاً درامية عن أثر العادات والتقاليد على الشعوب، وكتب ترجمات لبعض الفنانين الموهوبين مثل بتهوفن Luwing van Beethoven، ثم ناضل منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى في سبيل الدعوة إلى المبادئ الإنسانية وتفاهم الشعوب، ضاربًا المثل بالمهاتما غاندي Gandi والشيوعيين. حصل على جائزة نوبل سنة ١٩١٥.

(٢) لعل المؤلفة تقصد Robert Cecil of Salisbury الذي ولد حوالي ١٥٦٣م وتوفي ١٦١٢، وهو إنجليزي، وكان رجل دولة ووزير خزانة الملكة إليزابيث الأولى وياقوب الأول.

(٣) السراسنة Sarazenen.

جاء بتاريخ مسلمي صقلية للمستشرق ميكيلي أماري (١٨٠٦ - ١٨٨٩) Michele Amari الذي أعده د. محب سعد إبراهيم وقدمه باللغة العربية، (المجلد الأول / ص١٥٣):

«لم يتخذ العرب أبدًا اسم سارتشين، أو اسمًا آخر يشابهه، ولم يرد في تذكراتهم أي أناس بهذا الاسم. وهذا اللفظ حسبما كتبه اللاتين Sarraceni، واليونانيون... كما ورد لدى بيلينيو الشيخ وبطليموس وستيفانو البيرنطي. وهو لفظ يشير إلى عدد من قبائل وتجمعات سكانية صغيرة، ويستخدم اميانو مارتشيللينو وبروكوبيو هذا الاسم بمدلول أوسع. ويعطيه كتاب الغرب امتدادًا بعد الإسلام، كما سبق ونوهت. وعليه نرى كيف اتسع استخدام هذه

التسمية في فترات متعاقبة خلال القرن الأول والرابع ثم مرة أخرى من القرن السادس إلى السابع من التقويم الميلادي.

وأصل اشتقاق اللفظ غير مؤكد، رغم اجتهاد العلماء في البحث فيه، بدءًا من سان جيرونيم الذي رأى رجوع الاسم إلى أبناء هاجر لدى سارة. ونزولاً نحو المحدثين الذين اعتقدوا بإعطاء شكل للفظ يوحي برجال بالصحراء، يقومون بأعمال خطف بسيطة أو ما شابه ذلك. وحسب رأي أراه قريبًا من المعقول فقد يكون لفظ ساراتشين هو كتابة صوتية للفظ العربي «شرقيون». في حالة جر (وهي الحالة التي تتخذ في الغالب أساسًا للنقل في جميع اللغات)، وهذا اللفظ لم يكن بمقدور اليونانيين والرومان كتابته صوتيًا ولا النطق به كذلك سوى أن يخرج على شكل ساركين أو ساراكين. ذلك أن أبجديتهم تفتقد إلى حرف الشين التي يقابلها التركيب Ch في الفرنسية، وSh في الإنجليزية».

وجاء في كتاب التنبيه والإشراف للمسعودي أن نقفور ملك الروم أنكر على الروم تسميتهم العرب ساراقينوس، تفسير ذلك عبيد سارة، طعنًا منهم على هاجر وابنها إسماعيل، وأنها كانت أمة لسارة، وقال تسميتهم عبيد سارة كذب. والروم إلى هذا الوقت تسمي العرب ساراقينوس. كتاب التنبيه والإشراف تحقيق بارون روزن Baron Rosen نشرته مكتبة خياط بيروت - لبنان ١٩٦٥ (تصويرًا عن الأصل ص١٦٨).

(٤) تقصد المؤلفة لفظة «مسلمان» Mosal-man ولفظة «مسلماني» Mosal-manee.

(٥) توينبي (١٨٨٩ - ١٩٧٥) Arnold Joseph Toynbee مؤرخ إنجليزي وفيلسوف، عين أستاذًا للغة اليونانية وتاريخها بجامعة لندن (١٩١٩ - ١٩٢٤) ثم عين أستاذًا باحثًا ومديرًا للدراسات بالمعهد الفلكي للشئون

الدولية (١٩٢٥) كتب سلسلة من الكتب السنوية للتاريخ الدولي الجاري بعنوان «عرض للشئون الدولية» واشتهر بكتابه «دراسة في التاريخ» وأخرجه في عدة مجلدات، ويدرس فيه نمو الحضارات وتطورها وانحلالها.

(٦) الهون Hunnen

شعب رُحَّل من شمال آسيا الوسطى، ينقسم إلى قبائل، قاموا بحملات واسعة النطاق. وظهروا لأول مرة في القرن الثالث قبل الميلاد. احتلوا الصين من القرن الثالث إلى سنة ٥٨١م، وغزوا وادي الفولجا حوالي ٣٧٢، وتقدموا غربًا دافعين القوط الشرقيين والقوط الغربيين أمامهم ووصلوا إلى إيطاليا وفرنسا وحطموا بهجراتهم الإمبراطورية الرومانية، وأجبروا الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني (٤٣٢م) على دفع الجزية، كما جمعها آتيلا Attilas من مقره في المجر من معظم وسط أوربا وشرقها، ثم هزم في غالة سنة ٤٥١، فانسحب الهون بعد موته، ولا يُعرف عن تحركاتهم بعد ذلك إلا القليل (راجع: الموسوعة الميسرة).

(٧) رودليب: جزازات كتب عليها شعر باللاتينية في الكساميتر، اكتشف بمنطقة تيجرنزي Tegernsee ووصل إلينا. كتبه رجال دين حوالي ١٠٥٠م.

(٨) أوربان الثاني (١٠٨٨ - ١٠٩٩) Urban II.

أوربان الثاني فرنسي الأصل، وهو البابا الكاثوليكي من سنة ١٠٨٨ إلى سنة ١٠٩٩، واصل الحرب ضد هينريش الرابع، أعلن الحرب الصليبية الأولى في الأماكن المقدسة وحث الفرسان والجيوش الأوربية على المشاركة فيها.

(٩) كليرمون Clermont – أو كليرمون – فيرّاند Clermont – Ferrand

مدينة في شرق فرنسا، وهي العاصمة التاريخية لمقاطعة أوفيرن، تكونت باندماج كليرمون ومونفيران سنة ١٧٣١ وتُعد مركزًا لصناعة المطاط

(إطارات السيارات) وهي ترجع إلى العصر الروماني، وقد أعلن فيها البابا أوربان الثاني الحروب الصليبية لأول مرة.

(١٠) جريجور السابع Gregor VII

اعتلى عرش البابوية (١٠٧٣ - ١٠٨٥). كافح من أجل مكانة الكنيسة على السلطة الدنيوية ومن أجل الإصلاح الداخلي. وقد أدى تحريمه للمتاجرة في المناصب الكنسية إلى نزاع على المناصب. حاصره الملك هينريش الرابع (١٠٥٠ - ١١٠٦) Heinrich IV في روما سنة ١٠٨٤ فاستعان جريجور بالنورمانديين، ولكن هينريش الرابع عزله. وقد توفى في منفاه في ساليرنو Salerno.

(١١) ألكسيوس الأول (١٠٤٨ - ١١١٨) Alexios I واسمه كومنينوس، وهو ابن أخي إسحق الأول. اعتلى العرش بخلعه نقفور الثالث ١٠٨٧. صد الغزوات النورماندية بقيادة روبرت جيسكار، وبوريموند. أقنع زعماء الحملة الصليبية الأولى بأن يتعهدوا بمنحه الأراضي التي يفتحونها، وأجبر بوريموند على الاعتراف بسيادته على أنطاكية. تقاتل مع الأتراك في سنواته الأخيرة، كما شهد مؤامرات ابنته أناكو كومينينا على ابنه يوحنا الثاني.

(١٢) السلاجقة الأتراك

ينسبون إلى سلجوق مقدم عشيرة الغز التركية. ظهر السلاجقة في إيران في القرن العاشر، واعتنقوا الإسلام على المذهب السني، واستنجد الخليفة العباسي القائم سنة ١٠٥٥ بالسلاجقة للتخلص من سيطرة البويهيين، فدخل طغرلبك بغداد، وبذلك انتهت سيطرة البويهيين على الخلافة العباسية فيها، وخلع القائم علي طغرلبك لقب ملك الشرق والعرب. ثم تمكن السلاجقة بزعامة ألب أرسلان ابن أخى طغرلبك، من فتح بلاد الكرج، وأرمينيا، وجزء

كبير من آسيا الصغرى، واكتسحوا الشام، وهزموا البيزنطيين في معركة ملاذ كرد عام ١٠٧١، وأسروا الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجنس.

(١٣) الأسقف أديهار Bischof Ademar

كان معتمد البابا أوربان الثاني Urban II في الحرب الصليبية الأولى وكان مطرانًا لمدينة لوباي Le Pay، وأسقفًا للمدرسة القديمة. برع في ركوب الخيل، وارتداء الدروع، وتظهر قدرته العسكرية من خلال خوضه أكثر من حرب صليبية.

(١٤) القديس أوغسطين (٣٥١ – ٤٣٠م) Augustin

اعتنق المسيحية في سن الرابعة والثلاثين، ودافع عن الكنيسة دفاعًا قويًا. أيقن بوجود العقل، وبأن وجوده في الإنسان دليل على وجود الله، لأن المعرفة الحسية كلها موضع شك من العقل حتى يثبتها أو ينفيها، إذًا فمصدرها هو الله. وهو يرى أن السبيل إلى الخير الأسمى هو الاتحاد بالله بواسطة التأمل، وأقوى دافع إلى الخير والفضيلة هو الحب: حب الله وحب الإنسان. والناس عنده: أهل الآخرة ولهم نعيم مقيم، وأهل الدنيا ولهم حياة الرذيلة وعذاب الآخرة.

(١٥) ديركلوني Cluny

كلوني قرية فرنسية صغيرة أسست حوالي عام ٩١٠، وكانت في القرن الحادي عشر مركزًا مهمًا لإصلاح عادات وطرق المذهب المسيحي، ومن ثم الإصلاح الكنسي كله، وبخاصة قواعد الترخيص البابوي. وتشتهر بالدير ذي الأبنية الثلاثة.

(١٦) باسيليوس (٣٢٩ – ٣٧٩م) Basileus.

كاهن يوناني، ومعلم كنسي، وضع الأسس لإنشاء أديرة الكنيسة الشرقية يعرف له رسائل ومواعظ.

(١٧) الحاكم بأمر الله (٣٧٥ – ٤١٢هـ / ٩٨٥ – ١٠٢١م)

سادس الخلفاء الفاطميين في مصر، تولى الملك ٣٨٦هـ وعمره إحدى عشرة سنة. مال إلى آراء الإسماعيلية والتنجيم، وفي سيرته متناقضات عجيبة. قيل إن أخته ست الملك دَسَّت له رجلين اغتالاه وأخفيا أثره.

وكان شذوذه النفسي يجعله يأتي بتصرفات في غاية الفوضى والارتباك. يقول ابن الأثير إنه «أسرف في مصر في قتل القواد، وحبسهم، وأخذ أموالهم، وسائر القبائل معه في ضنك وضيق، ويودون خروج المُلك من يده»[١].

وجاء لدى ابن تغري بردي بالنجوم الزاهرة[٢]:

«أمر النصارى بأن تحمل في أعناقهم الصُذلبان، وأن يكون طول الصليب ذراعًا ووزنه خمسة أرطال بالمصري، وأمر اليهود أن تحمل في أعناقهم قَرَامى الخشب في زنة الصلبان أيضًا، وأن يلبسوا العمائم السود...

ولم يسلم أحد من العامة والخاصة على اختلاف أديانهم ومذاهبهم من بدواته وانفعالاته. وفي سنة ٣٩٨هـ أمر الحاكم بأمر الله بهدم بيعة قمامة (أي كنيسة القيامة) وهي ببيت المقدس، وفيها الموضع الذي دفن فيه المسيح، عليه السلام، فيما يزعمه النصارى، وإليها يحجون من أقطار الأرض، وأمر بهدم البيع في جميع مملكته، فهدمت. ويضيف ابن تغري بردي: ولما أرسل إليه ابن باديس ينكر عليه أفعاله أراد استمالته فأظهر التفقه وحمل في كمه الدفاتر، وطلب إليه فقيهين، وأمرهما بتدريس مذهب مالك في الجامع، ثم بدا له فقتلهما صبرًا، وأذن للنصارى الذين أكرههم إلى (كذا) الإسلام في الرجوع إلى الشرك».

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ٩ ص٢٠٨.

(٢) جـ٤ ص١٧٨.

ويستطرد ابن تغري بردي فيكتب: «وفي سنة أربع وأربعمائة منع النساء من الخروج في الطريق ومنع من عَمَل الخفاف (أخذية) لهن، فلم يزلن ممنوعات سبع سنين وسبعة أشهر حتى مات. ثم إنه بعد مدة أمر ببناء ما كان أمر بهدمه من الكنائس، وكان أبوه العزيز قد ابتدأ ببناء جامعه الكبير بالقاهرة (يعني الذي هو داخل باب النصر)».

ويعلق المؤرخ المسيحي وليم الصوري في كتابه «الحروب الصليبية»[1] معللاً هدمه لكنسية القيامة والكنائس الأخرى فيذكر «وتقول الرواية إن الخليفة اتخذ هذا الإجراء البعيد المدى ليبرهن لأهل ملته على مدى إخلاصه للملة؛ إذ كانوا ينعتونه بالنصراني قدحًا فيه ونيلاً منه لأنه ولد من أم نصرانية، ومن ثَمّ دفعته الرغبة في محو هذه التهمة عنه على أن يقترف تلك الجريمة، ولما كان يعتقد أن لن يكون هناك عندئذ اتهامات توجه إلى شخصه، وأن خصومه لن تواتيهم الفرصة بعد ذلك الشيء لتوجيه حملات ضارية عليه، فقد هدم مهد الإيمان الكاثوليكي الذي تصدر عنه الديانة المسيحية».

أما عن إعادة بناء كنيسة بيت المقدس وغيرها، فقد اختلفت الآراء، فابن تغري بردي يذكر «إنه بعد مدة أمر ببناء ما كان أمر بهدمه من الكنائس» كما ذكرنا من قبل، ويقول ابن الأثير: «وأمر بهدم البيع في جميع مملكته، فهدمت، وأمر اليهود والنصارى إما أن يسلموا أو يسيروا إلى بلاد الروم ويلبسوا الغيار، فأسلم كثير منهم، ثم أمر بعمارة البيع، ومن اختار العود إلى دينه عاد، فارتد كثير من النصارى»[2]. ولكن لا يعرف على التحقيق من الذي أعاد بناء

---

(١) ترجمه إلى العربية دكتور حسن حبشي، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩١، جـ١ ص٧٠.

(٢) الحروب الصليبية، جـ١، ص٧٣.

الكنائس، هل كان الحاكم نفسه أم أمه، ويقال إنها كانت أُمّ ولد نصرانية، أم أخته ست الملك[1].

ويذكر وليم الصوري بكتاب «الحروب الصليبية» أن ابنه الظاهر الذي تقلد مقاليد السلطة بعده جدد الاتفاقية التي نقضها أبوه مع إمبراطور القسطنطينية الملقب بلهيوبوليس، وأنه استجاب لطلبه» فأذن للنصارى بإعادة وتشييد الكنيسة وأنهم استعانوا بمنحة من تولى العرش البيزنطي بعد الإمبراطور رومانوس واسمه قنسطنطين مونوماخوس و«شيدوا كنيسة القيامة المجيدة التي لا تزال حتى اليوم في القدس، وكان ذلك سنة ١٠٤٨ من ميلاد المسيح. أعني قبل تحرير المدينة بواحد وخمسين عامًا. وبعد هدم الكنيسة بسبع وثلاثين سنة»[2].

(١٨) القيصر كارل الأول (١٢٥ – ١٩٩هـ / ٧٤٢ – ٨١٤م) Kaiser Karl أو كارل الكبير Karl der Grosse

وهو عند العرب شارلمان، ملك الفرنجة حفيد شارل مارتل، تلقى من البابا في روما لقب بطريق الرومان. غزا إسبانيا ٧٧٨م، وهزمه العرب في سرجوسه. وحارب السكسون الوثنيين، ونشر سيادته كاملة على سكسونيا مقترفًا مذابح كبيرة، ونقل آلاف من السكسون إلى مملكة الفرنجة وجعلهم يعتنقون المسيحية. واستنجد به البابا ليو الثالث عام ٧٧٩م بسبب تهديد الرومان بخلعه فأسرع إلى مساعدته، فتوّجه البابا في عام ٨٠٠م امبراطورًا. شَجّعَ التجارة الخارجية، وأقام علاقات ودية مع هارون الرشيد.

---

(1) New World Encyclopedia: Al – Hakim bi – Amr Allah.

(٢) وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ١، ص٧٣، ٧٤.

(١٩) أبو المظفر الأبيوردي (ت ٥٠٧هـ/ ١١١٣م).

هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردي، ولد بأبيورد فنسب إليها.

وقد حرصتُ على ترجمة الأبيات التي ذكرتها المستشرقة د. زيجريد هونكه بكتابها لأنها تكاد تكون تلخيصًا لقصيدة الأبيوردي، ولكن أنقلُ القصيدة كاملة بهذا التعليق كما وجدتها بكتاب الكامل لابن الأثير[١]:

مَزَجْنَا دِمـاءً بالـدُّمُوعِ السّواجِم ... فلم يَبْقَ منا عُرضةٌ للمَرَاجِم

وشرُّ سلاحِ المرءِ دمعٌ يُفيضُهُ ... إذا الحربُ شُبّت نارُها بالصَّوارمِ

فإيهًا، بني الإسلام إنَّ وراءكم ... وقائعَ يُلحِقن الذُّرى بالمَنَاسِمِ

أتَهْويمةٌ في ظِلِّ أمْنٍ وغبطةٍ ... وعيشٍ كَنُوّارِ الخَميلةِ ناعمِ

وكيفَ تنامُ العَينُ ملءَ جُفونها ... على هفَواتٍ أيقظتْ كلَّ نائمِ

وإخوانُكم بالشام يُضحي مَقيلُهم ... ظهورَ المَذاكي أو بُطونَ القَشاعمِ

تَسُومُهُمُ الرُّومُ الهوانَ وأنتُمُ ... تَجُرُّونَ ذَيلَ الخَفْض فعلَ المُسالمِ

وكَمَ من دماءٍ قد أُبيحَت ومن دُمًى ... تَوارَى حياءً حُسْنُها بالمَعاصِمِ

بحيثُ السيوفُ البيضُ مُحْمَرَّةُ الظُّبي ... وسُمْرُ العَوالي دامياتُ اللّهاذِمِ

وبينَ اختلاسِ الطَّعْنِ والضَّربِ وقفةٌ ... تَظَلُّ لها الوِلْدانُ شيبَ القَوادِمِ

وتلكَ حروبٌ مَن يَغِبْ عن غمارِها ... ليسلَم يَقرَعْ بَعدَها سنَّ نادِمِ

سَلَلْنَ بأيدي المُشركينَ قَواضبًا ... ستُغْمَدُ منهم في الطُّلى والجَماجمِ

يَكادُ لَهُنَّ المُستَجِنُّ بطيبةٍ ... يُنادي بأعلَى الصَّوتِ يا آلَ هاشِمِ

---

(١) جـ١٠ ص ٢٨٤ دار صياد، بيروت. ووردت ترجمة للأبيوردي بوفيات الأعيان جـ٤ ص٧١.

أَرَى أُمَّتِـي لا يَـشْرَعُونَ إلى العِـدَى رمـاحهم والـدِّينُ واهـي الـدَّعائمِ

ويَجْتَنِبُـونَ النـارَ خَوفًـا مـن الـرَّدَى ولا يَحْـسَبُون العـارَ ضَربـةَ لازِمِ

أَترضى صَـناديدُ الأعاريـب بـالأذَى ويُغْـضِي عـلى ذُلٍّ كُـماةُ الأعـاجمِ

فَليـتهُمُ إذ لم يَـذُودوا حَمِيَّـةً عـن الـدِّين ضـنّوا غـيرةً بالَمحـارمِ

وإن زهدوا في الأجر إذا حَمس الوَغى فهَـلاَّ أتَـوْه رَغبـةً في الغَنـائمِ

لَئن أذعنَتْ تلـك الخَياشيمُ للبُرَى فـلا عَطَـسُوا إلاّ بأجْـدعَ راغِـمِ

دَعَوْنـاكُمُ والحـربُ ترنُـو مُلِحَّـةً إلينـا بألْحـاظ النّـسورِ القَـشَاعِمِ

تُراقـبُ فينـا غَـارةً عَربيّـةً تُطِيلُ علَيها الـرُّومُ عَـضَّ الأبـاهمِ

فـإنْ أنـتُم لم تَغْـضَبُوا بعـدَ هـذِهِ رمَيْنَـا إلى أعـدائِنا بـالجَرائمِ

(٢٠) فريدريش الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠) Friedrich II (von Hohen staufen)

حفيد فريدريش باربراوسا، وابن الإمبراطور هنري السادس. قلده البابا إنوسنت الثالث Innozenz III حكم صقلية ١١٩٧، وتوَّجه ملكًا على آخن ١٢١٢، وإمبراطورًا في روما ١٢٢٠.

قاد الحملة الصليبية الثالثة ١٢٢٨ - ١٢٢٩، وكانت حملة سلمية؛ إذ تنازل الملك الكامل سلميًا عن بيت المقدس والناصرة وبيت لحم للمسيحيين، وتُوّج فريدريش الثاني ملكًا في القدس. ولم يعترف البابا جريجور التاسع بالمعاهدة التي عقدها فريدريش الثاني مع الملك الكامل. ووقعت اشتباكات بين الإمبراطور والبابا لهذا السبب، وتحولت في عام ١٢٣٩ إلى صراع اشتد في زمن البابا إنوسنت الرابع، الذي أعلن خلع فريدريش وحرمه ١٢٤٥. وتوفي فريدريش الثاني بينما كانت الحرب تتحول في صالحه.

الفصل الثاني

١- روح الفروسية عند الألمان والعرب[(١)]

خزي للتعصب المسيحي

توجد بعض الحالات الاستثنائية خلال قرون التناحر والحروب في الشرق والغرب بين المسيحية والإسلام. فثمة رعايا شعبين مختلفين يدينون بدينين مختلفين، إلا أنهم لم يتلاقيا لقاء الأعداء. فقد تعالت أصوات فردية من الألمان[(*)] صَعُبَ عليها أن تنصاع إلى الحماس الذي أججه الباباوات ودعواتهم للحروب الصليبية، وعارضت توجيهات مبعوثي البابا ودعواتهم للمشاركة فيها، وتمسكوا بأن هذه الحروب لم تكن حروبًا دينية، وإنما كانت -على الأرجح- تحقيقًا لرغبات سياسية عليا للإمبراطورية، دُعي إليها بزعم أنها تحقق سياسة كَنَسية، وفقًا للعلاقات التي لا تخلو من تطاحن العاهل مع المبعوث البابوي.

اقتصرت الحروب الصليبية في البداية على القادمين من غرب أوربا وجنوبها. إلا أن الباباوات استغلوا هذه الحروب سلاحًا لإضعاف القيصر، وتقويض الإمبراطورية، بالحد من سلطة الملكية التي نشأت بالمملكة الجرمانية[(**)] وما اكتسبته من حق القداسة، واستخدموا الضرائب المحصلة للحروب الصليبية في كفاحهم ضد الملوك من سلالة شتاوفن Staufen[(٢)]. وكانت

(*) Hunke, Kamele auf dem Kaisermantel, Kap, Zurückhaltung der Deutschen vom Kreuzzugsfieber, S.51ff.

(**) Hunke, Das Reich und das Werdende Europa, 1965, «Heiligkeitsanspruch» S. 23 ff.

العظات في الصلوات من فوق المنابر الكنسية تدعو إلى شن حرب مقدسة ضد الإمبراطورية الألمانية. وعندما أصر القياصرة على خوض الحروب الصليبية، كانوا يهدفون إلى انتزاع السلاح السياسي المسنون الذي يرفعه البابا في وجههم، وأن ينقلوه إلى أيدهم.

وظل قياصرة ثلاثة (من أسرة شتاوفن) في مأمن من التعصب العقائدي الذي استمر طوال ثلاثة أجيال، فكانوا على علاقات ودية مع القيادات الإسلامية.

ولكن ما السر في بخل التاريخ بأنباء هؤلاء العواهل العظام - باستثناء ما كتب عن فريدريش الثاني(٣)- وعن علاقاتهم غير المألوفة؟ ومن الذي يعرف علاقات جده الملك فريدريش الأول(٤) الرائعة بالسلطان صلاح الدين(٥) المعروف عند الغربيين باسم«Saladin»؟ فقد حدث بينهما إبان حمى الحروب الصليبية علاقات سلمية، وأحاديث سياسية كان لها تطورات غير متوقعة؛ إذ وردت رسالة سلطانية من القاهرة عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٣م إلى مدينة أخن Aachen يطلب فيها صلاح الدين يد ابنة القيصر الألماني لابنه. وكان من الممكن أن يتوج هذا الابن ملكًا على المسيحيين. أيُّ طلب هذا! وأيُّ تصور لدعم الروابط بين الشرق والغرب!

تمهل القيصر في الرد. واحتفظ بالوفد العربي مدة نصف عام ضيوفًا بالبلاط الإمبراطوري، وسمح للوفد بالتجول في مدن كثيرة بالإمبراطورية.

وفى السنة التالية أرسل القيصر مبعوثه المسئول عن شئون الأديرة بالكنائس بوركارت فون شتراسبورج Burchard von Strassburg بخطاب شكر

يتسم بالدبلوماسية إلى القاهرة مع هدية، تلطفًا في الاعتذار عن عدم قبول الطلب.

ولم يتسبب هذا الرفض في أي خسارة للعلاقات الودية بين أعظم سيدين في العالمين(الشرق والغرب).

وعلى الرغم من أن الخبر المنذر بهزيمة الفرنجة عام ٥٧٤هـ / ١١٧٨م في موقعة مرتفعات الجولان كان له أسوأ الأثر عند الأوربيين،إذ إنها كانت خسارة للحروب الصليبية، لأن صلاح الدين استعاد بيت المقدس(٦)، فانتشر الخوف والفزع بين المسيحيين، فإن الصورة كانت أكثر تأثيرًا فى النفس من الكلمات، فقد نفخ دعاة الحروب الصليبية فيما تبقي من جذوة الانتقام مستعينين ببعض المناظر الحربية التي يحملها الكهنة الذين يرتدون الجوالات المصنوعة من الشعر، ويطلقون الصيحات التي تعبر عن آلامهم في الشوارع، منادين بالويل والثبور، ويعرضون صورة فارس همجي المظهر يطأ فرسه بسنابكه قبر المسيح، ويبول عليه، وصورة شخص آخر يصفع المسيح حتى يدمي وجهه. ومنها يستشف الرائي أنها صورة محمد الذي يضرب المسيح فيدمي وجهه ويقتله(*).

وعندما تحقق معرفة ما حدث فعلاً كان التأثر أشد عمقًا، فقد انطفأت جذوة فقاقيع الانتقام المتوهجة التي ساعدت على وجود نعرة الاستشهاد لدى الكهنة والرهبان.

وقد مثل مبعوثو البابا ثلاث مرات أمام القيصر، وكذلك أمام مجلس

(*) Boha ad-Din, zit. Nach Hanns Wollschläger, Die bewaffeneten Wallfahrten Jerusalem, 1973, S. 98.

البلاط بشتراسبورج Strassburg، وحاولوا معه بكل الطرق تارة بطلاقة اللسان وتارة بالصوت الجهوري، ليقنعوه بالمشاركة في الحرب،ولكن دون جدوى. ولم يستعد القيصر للحرب إلا بعد عام (أي سنة ٥٨٤هـ) بعد أن اتخذ القرار بنفسه، ودون الخضوع لمحاولات التأثير فيه، بل كان قراره بخوض الحرب قرارًا شخصيًا.

أرسل القيصر في ٢٦ من مايو ١١٨٨م (أي سنة ٥٨٤هـ) مبعوثه كونت هاينريش فون ديتز Graf Heinrich von Dietz بمكتوب إلى السلطان صلاح الدين معربًا فيه عن شكره لاستقباله الرسائل التي أرسلها إليه، وعبّر له في هذه الرسالة عن أسفه لأنه سوف يضطر إلى محاربته، إذا ما رفض صلاح الدين التنازل عن بيت المقدس، وإطلاق سراح أسرى الحرب من الفرنجة.

وأرسل القيصر إلى صلاح الدين مطالبًا - في فروسية - بالنزال والمبارزة في الأول من شهر نوفمبر ١١٨٩ (٥٨٥هـ) في سهل بشمال مصر، حتى يتجنب الجيشان النزال حقنًا للدماء. وقد بادر صلاح الدين بالرد، وكتب له مخاطبًا إياه بقوله: «الصديق الحق الكبير المعظم فريدريش المبجل، ملك ألمانيا» وعرض عليه إطلاق سراح كل الأسرى الفرنجة، وأن يسمح للمسيحيين بإقامة القداس، في كنيسة القيامة Grabes-Kirche كل وقت، وأن يسمح لكل الحجاج بزيارة القبر المقدس، بشرط أن يرد الفرنجة إليه كل القلاع التي يحتلونها، إلا أن ذلك لم يكن - بطبيعة الحال - في استطاعة فريدريش الأول.

ولم يصل إلينا شيء عن القرار الذي اتخذه الملك الذي بلغ التسعين من عمره وأصيب بالسكتة القلبية أثناء وصول حملته إلى طرسوس(٧) Zoan، إذ عَنّ

له الاستحمام في نهر السالف عند مروره بجنوب الأناضول، لشدة حرارة شهر يونيو على الشرق. وكانت مياه نهر السالف شديدة البرودة إلى درجة التجمد لنزولها من جبل الأناضول، فأصيب بأزمة قلبية تسببت في وفاته.

وبذلك حال الموت دون نزال الصديقين المتناحرين اللذين يترأسان القوتين العظميين حتى الموت.

وبعد سنوات سبع من هذا التاريخ واصل ابنه القيصر هاينريش السادس[٨] .Heinrich VI عقد أواصر الصداقة مع المسلمين - متبعًا سياسة أبيه - بحملته السلمية دون إراقة الدماء.

وبعدها حقق الملك فريدريش الثاني .Friedrich II - حفيد فريدريش الأول (ابن هاينريش السادس)- في حملته الصليبية أضعاف ما كان يعرضه صلاح الدين من قبل دون استخدام أي سلاح حربي، ودون إراقة دماء. وذلك بعد أن كفلت المعاهدة التي عقدها مع السلطان الكامل[٩] ابن أخي صلاح الدين المساواة التامة بين المسلمين وغير المسلمين، والاحترام المتبادل والحرية التامة لليهود والنصارى والمسلمين في إقامة شعائرهم الدينية في جميع أرجاء الأرض المقدسة وقتما شاءوا. وبهذا انتهى الأمر نهاية سعيدة. وبذلك طلب من هيرمان فون سالتزا[١٠] Hermann von Salza أن يعلن لجنوده «أنه لم يتمكن أي عاهل أو أي قوة في العالم- منذ زمن طويل- أن يصل إلى مثل هذا الاتفاق عن طريق جحافل الجيوش بالحرب، أو بأي وسيلة أخرى». ولكن مثل هذا النجاح لم يلق قبولاً لدى البابا[١١] لأنه لم يحقق الهدف المنشود الذي يسعى إليه قداسة البابا الذي اجتهد بكل قواه ووسائله في حشد الجموع البشرية الهائلة

لتحقيق أهداف أقل منها، ولكنه عجز عن ذلك، وتسبب في خسارة الكثير من الناس باسم الرب «لتحرير القبر المقدس». وبذلك أصبح البابا في موقف صعب، فأشعل نارًا حارقة، وصب لعناته ومقته على القيصر المنتصر، وأنزل به لعنة الطرد من رحمة الكنيسة، وصرح بموته بما نسبه له. وبعث جنوده لمهاجمة مملكته بصقلية، وإجبار أهلها على خلع القيصر فريدريش الثاني، والتحلل من يمين الولاء التي كانوا أقسموا بها على بيعته وطاعته. وفضلاً عن ذلك أرسل في الخفاء إلى عدوه اللدود «سلطان الكفار» محرضًا إياه على عدم تنفيذ اتفاقه (معاهدته) مع فريدريش برفع يده عن القبر المقدس، وإمعانًا في الإذلال دعا إلى عقد اجتماع قمة لفرسان المعبد (الكهنة الرسوليين)، وأعد معهم خطة لاغتيال القيصر عندما يتوجه إلى نهر الأردن كي يتعمد في مياهه، ولكن السلطان المسلم نفسه (أي الملك الكامل) هو الذي أنقذ حياة قيصر مملكة بيت المقدس، ونجاه من القتل؛ إذ إنه استنكر هذه الخيانة الوضيعة، وأرسل له خطاب الخيانة الممهور بخاتم رئيس فرسان المعبد البابوي.

وقبل رحيل فريدريش الثاني عن الشرق صبت الكنيسة غضبها عليه، وعلى عقد الاتفاق والتآخي بإعلان عقوبة الكنيسة البابوية على بيت المقدس؛ إذ أمر البابا بأن تمتنع أجراس الكنيسة عن الدق طوال مدة بقاء فريدريش بالكنيسة، وأوعز إلى رهبان الكنيسة بقذف القيصر وجيشه بالمقاليع محملة بالروث عند رحيلهم.

ويشهد على عمق صلة القيصر بأصدقائه العرب خطاب التوديع الذي أرسله بعد رحيله بحرًا إلى الأمير فخر الدين[١٢]، الذي كان قد أقام ضيفًا عليه

في بلاطه بصقلية موفدًا من السلطان (الملك الكامل)، وشاركه الخيمة عندما كان في يافا أثناء رئاسته للجماعة التي فاوضته عند عقد الاتفاقية بين العاهلين (وهى اتفاقية السلام).

ولم يكن تدبيج هذه الرسالة باللغة العربية «صدفة»؛ إذ إن فريدريش الثاني تعلم اللغة العربية في صغره في موطنه صقلية حيث عاش بعض العرب هناك، إلى جانب تعلمه اللغة اللاتينية. ومن ثم كان هذا الخطاب الذي وجهه إلى أصدقائه العرب شديد التأثير، فهو وثيقة شخصية للغاية دوَّنها القيصر بعد فراقه، وتؤكد صلته الإنسانية بالعرب، وهو الذي عرف عنه التحفظ الشديد في معاملاته، وتعبر الرسالة عن اعترافه الصريح بالاتفاقية وبعمق هذه العلاقة. وجاء بها:

«بسم الرب المحب الكريم (الله)

قرت قلوبنا على الرغم من رحيلنا

وخفق بعيدًا عن أجسادنا جوهرُها وطبيعتها

وقدمت لكم الصداقة والالتزام بها

ثم عادت إلينا واستقرت عندنا

ونحن لا نريد أن نذكر شيئًا مما نعانيه من الجوى، أو الكآبة المقيتة التي تملكتنا أو الشوق إلى ما نفتقده من الصحبة والمجالسة «لفخر»، أطال الله عمره. ومعذرة فقد تركنا لأنفسنا العنان ولم نتمالك ففاضت، وعبرت عن مكنونها. وليس هذا بغريب على من يرى نفسه وحيدًا في هذه الدنيا، يشعر بالهمِّ الذي لحقه بالفراق بعد الغبطة بالسعي إلى السلام، واليأس من تحقيق حماسة حديثنا وبلوغ المرام».

ثم يخاطب القيصر صديقه خطاب الند للند تاركًا صيغة الجمع التقليدية التي يخاطب بها الملوك. ويكشف عنه كل ما يحجب بنفسه عن الصديق فيقول: عند الفراق كنت أشعر، لو أن أحدًا خيَّرني بين فراقك أو الموت، لأجبته ضارعًا: لبيك، ليتك تجود عليّ بهذه المكرمة(*).

وهذا موقف ينظر فيه الخصم إلى الخصم نظرة موضوعية غير عدوانية وخالية من مشاعر الكراهية، وإنما باعتباره إنسانًا، ويقدره إذا كان يستحق ذلك. هذه ميزة رفيعة للمحاربين الجرمان القدماء drengskapr-Ethik ولقد ترسخت تلك الميزة، وفرضت نفسها باعتبارها صورة قديمة من صور الفروسية بخاصة في ألمانيا(**). وليس في التاريخ وحده نجد مثل هذه الشهادات القيمة عن التعامل مع الخصم، بل إننا ما زلنا حتى الآن نرى هذا التقويم الموضوعي والاحترام المتبادل، فضلاً عن التعامل مع الخصم معاملة شريفة تتيح للصداقة أن تنمو بين الخصمين.

وقد أشاد بذلك فولفرام فون إشينباخ Wolfram von Eschenbach وهو في الأرض المقدسة وسط الأهوال أثناء الحروب الصليبية البغيضة، يتعرف على الفروسية الفريدة، وبخاصة فروسية العدو العربي(***) أمام الموت المحدق به، التي تبين القدرة على التسامح والتخلي عن المنازلة: ففي مبارزة بارسيفال(١٣) Parzival مع أخيه العربي غير الشقيق فايريفيز(****) Feirefiz، رمى هذا الشقيق

(*) Sigrid Hunke, Allahs Sonne, S. 265.

(**) Sigrid Hunke, Das Reich und das werdende Europe, eine europäische Ethik, 1965, S. 84 ff.

(***) Ebd. S. 113 ff, Hunke, Kamele auf dem Kaisermantel, S. 91ff.

(****) لعل الاسم العربي هو «فيروز». المترجم.

سيفه عندما كسر سيف بارسيفال، فأصبح يقف أمامه مجردًا من السلاح. ونجد في سلوك فيلهلم Willehalm السلوك السوي لقائد الجيش الصليبي تجاه الجيش العربي وأمرائه (قواده)..وعندما كان الفارس الصليبي واقعًا تحت ثورة الباباوات، ويسبح في موجة الكراهية الدينية المتجددة ضد المسلمين الكفار، فيتغنى الفارس فولفرام فون إشينباخ في مرثية القائد «فيلهلم» أغنية مضمار السباق للعربي الكريم المحتد الذي دعا الله أن ينصره:(ساعده بإذن الله على أن يحقق النصر)

أنت يا أيها البطل القوي، ويا أيها الشاب الرائع

إذا لم يقدر لي أن أخدم إلا براعة رجولتك

وكيانك الودود البسيط

وحضورك وسمعتك الرائعة التي اشتهرت بها

فإني هالك.

ماذا إذا اختطفني منك الموت؟

أهكذا لن أستطيع أن أقوم بواجبي نحوك؟

ولا أن تأخذ مني المناولة

إذا لم أقم بخدمتك أو لم أستطع أن أؤدي واجباتي نحوك؟

أنت من انتزع لي هذه الأرض

أنت أبقيت على حياتي كما أبقيت على حياة زوجتي الجميلة.

ولولا بسالتك المصطفاة لفقدت أبي المسن

ولولاك أيضًا لفقدت إخوتي وعشيرتي

كنتَ دفة مركبي، وشراعي الحق

أنتَ يا من أرسيتَ أبناء هاينريش آمنين على أرض الدولة الرومانية.

ولا يمكن أن ينافس أحد - بين الناس في عصرنا- شهرتك.

وقد عصى الفارس الألماني فولفرام Wolfram تعاليم الكنيسة علنًا، تلك التي حرَّمت حق الحياة، وجعلت حق الحياة والموت معلقًا بالتعميد:

«أليس جرمًا أن يُضربَ عنقُ من لم يتم تعميدُه مثل البهائم؟

أتحدثُ هنا عن إثمٍ أكبر، لأن الجميع من خلق الرب

وكذا كل الناطقين باللغات الاثنتين والسبعين التي خلقها الرب»(*).

وقد شهد على ذلك محارب ألماني رجع من الحروب الصليبية إلى نهر الرين، هفت نفسه للتعبير، فعبر عن شكره وتأثره بإرسال خطاب إلى السلطان الكامل في مصر، بعد سفك الدماء المروع- الذي قام به الصليبيون بناء على أوامر مبعوثي البابوية- لكافة سكان دمياط عندما استولوا على القلعة الواقعة في دلتا النيل، تأثر هذا الرجل- وهو عالم الفلسفة اللاهوتية الألماني أوليفيروس Oliverus من مدينة كولونيا- باكتشافه الذي ملك عليه نفسه من فروسية الملك الكامل، على الرغم من كل بشاعة لقيها من جانب المسيحيين من حوادث مفجعة(**)، وكتب عام١٢٢١(٦١٨هـ) إلى الملك الكامل المعروف بصداقته للقيصر فريدريش الثاني، ممتنًا له عدم اقتصاصه من الصليبيين جزاء تنكيلهم

(*) Kamele auf dem Kaisermantel, S. 66.
(**) Ebd, S. 63 f.

بالمصريين في دمياط - «العين بالعين والسن بالسن» - وإنما كان يرسل إلى الجيش المسيحي - الذي كان يعانى من جوع شديد طوال أربعة أيام - ثلاثين ألف رغيف يوميًا، فضلاً عن المؤن الغذائية، كتب:

«منذ قديم الزمن لم يسمع أحد بمثل هذه المعاملة الطيبة التي يعامل بها عدو لدود أسراه، وشاء الله أن يوقعنا بين يديك محاصرين، ولم نعرفك طاغية جبارًا، بل وجدناك أبًا يغمرنا بإحسانه، ومنقذًا لنا من كل الأخطار.

من الذي يمكنه أن يرتاب في أن مثل هذا اللطف والود والرحمة من الرب؟ من يصدق أن هؤلاء الرجال الذين عذبنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وأخواتهم عذابًا مهولاً وقتَلناهم، هم أنفسهم الذين أنقذونا من الموت جوعًا، وأطعمونا طعامهم، وعاملونا بكل إحسان عندما كنا تحت رحمتهم لا حول لنا ولا سلطان»؟

وكان هذا ناقوسًا يدق، فأدى إلى تحريك ناقوس آخر.

ولم يكن هذا التصرف العربي الذي يدلل على السمو الإنساني والمروءة المتناهية حادثة فردية؛ إذ إن الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد نفسه الذي تمتع في الغرب بتنشئة الملوك الشرفاء كما تمتع بالتبجيل والتوقير في الغرب اشتهر في الأراضي المقدسة بكذبه المخزي، ولطخ سمعته في كل مناسبة بطريقة مخزية. فعندما وقع ثلاثة آلاف أسير عربي في قبضته، أمَّنهم على حياتهم، ولكنه فاجأهم حين انتابته نوبة ضجر وأمر بقتلهم جميعًا، ومن ثَمّ قلده القائد الفرنسي، وقتل أسراه، وبهذه الفعلة الشنعاء خسر سمعته، وضيع ثمرة انتصاره، فأصبحت بؤسًا، وباء بالخزي والهوان.

وقد أخجل السلطان صلاح الدين قادة الجيوش المسيحيين وأخزاهم، عندما لم يقلدهم في الحنث بالقسم، أو في وحشيتهم التي لا حدود لها، فلم يقتل الأسرى المسيحيين الذين وقعوا في أسره ردًا على خيانتهم وغدرهم وفظاعتهم. وبمثل هذه الفروسية عامل السكان المسيحيين عندما استرد بيت المقدس الذي كان الفرسان المسيحيون قد انتزعوه من قبل، وأعملوا في المسلمين فيه التقتيل بفظاعة ووحشية؛ إذ إنه عامل سكانه المسيحيين بكل لطف إنساني ومروءة.

لم تعرف الفروسية المسيحية التزامات خلقية تجاه المسلمين، على الرغم من أن المسلمين كانوا يحافظون على التزاماتهم. فلم تحافظ هذه الفروسية المسيحية على الحقوق المشروعة للذين يخالفونهم في الدين، حتى لو ظنوا أنهم كفار، مثلما كانوا يطالبونهم - باعتبارهم مسيحيين- بحب الآخرين، ووجوب الالتزام بالكلمة التي تخرج من أفواههم.

وفي سنة ١٢٠٤ (٦٠١ هـ) سفك فرسان الحملة الصليبية دماء إخوانهم في العقيدة المسيحية ببيزنطة، ورثاهم نكيتاس أكوميناتوس Niketas Akominatos بقوله: «إن المسلمين أنفسهم رحماء ذوو شفقة، إذا ما قورنوا بهؤلاء القوم الذين يحملون صليب المسيح على أكتافهم».

فثمة خلاف جازم بين مفهوم كل من المسلمين والمسيحيين عند تعاملهم مع أصحاب الملل الأخرى.

٢- مفاهيم مختلفة
في المسيحية والإسلام

تستشهد المسيحية بالعهد القديم (التوراة) لبيان البشارة وإعلان مولد المسيح، وتستشهد بالعهد الجديد (الإنجيل) للإعلان عن الملكوت الرباني، وبتفسير بولس[١٤] Paulus وتبشيره بالخلاص بموت المسيح عيسى.

أما الإسلام فيرفع - خلافًا لذلك - شعارًا بأن الإسلام دين الفطرة وأنه «الدين الموجود منذ بدء الخليقة»[*] وأنه في كل العصور وحيٌ خالص من الرب بعث به رسله ليبشروا به كافة شعوب الأرض.

«الرب» هو «الله» في اللغة العربية، عبده الناس قبل بعثة محمد ﷺ بقرون طويلة. وهو ليس اسم علم مثل «يهوه» فالله هو الرب. ولذلك جاء في سورة آل عمران (٣: ٨٤): ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.

وآخر الأنبياء وخاتمهم هو محمد.

والذين لم يؤمنوا «بالإله الواحد» هم الذين أشركوا وعبدوا آلهة عديدة وهم الكفار، أما اليهود والمسيحيون الذين بعث الله فيهم رسله برسالات سماوية فهم غير هؤلاء؛ إذ إنهم أهل الكتاب ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ سورة البقرة (٢: ٦٢)،

(*) Gustav Mensching, Zum Phänomen des Absoluheitsanspruches im Christentum und im Islam, in: Der Orient in der Forschung, Festschrift für O. Spies, hg. v. W. Hoenerbach, 1967, S. 449.

ولهم أن يمارسوا طقوس دينهم في بيوت عبادتهم، ويقيموا شعائرهم. نعم فمحمد نفسه ضمن لهم ذلك صراحة، فهو يعلن في حديثه «من آذى ذِمِّيًّا فأنا خصمُه، ومن كنتُ خصمَه خاصمتُه يوم القيامة»(١٥).

٣- صورة الإنسان المسلم

آثم؟ عبد الرب؟ متعصب؟ مجاهد؟

إن الغرب لا يعرف الكثير عن الجماعات الدينية التي أتت بعد المسيحية، ونتبين هذا بوضوح عند الوقوف عند تصورهم للإنسان المسلم. فالإسلام عندهم يعني الامتثال لأمر الله والاستسلام لمشيئته. وهذا يدل على «الإيمان بالقدر» وأن الإنسان «عبد الله» وهو وريث خطيئة آدم. والذين ترد هذه الكلمات على ألسنتهم يؤيدون المصطلحات التي تدور في الفكر الأوربى عند تصور الإسلام.

ولكن يجب أن يستبعد هذا الفكر هذه المصطلحات السهلة الاستخدام، والتصورات الوهمية التي تنشأ عنها؛ إذ إن الإسلام لا يعترف بما يسمى «الخطيئة الموروثة» أو «الخطيئة الأولى»، فلا خطيئة للإنسان الأول، ولا جريرة لكائن كان على الفطرة، فالخطيئة تقتضى الندم، ويمحوها عفو الغفور الرحيم. نعم يغفر الله لآدم أيضًا. ووفقًا لما جاء بالكتاب المقدس، فإن كل مصيبة في العالم ترجع إلى مُنْشئها، ولا يمكن أن يصدر العفو عند التوبة من أي إنسان سوى من المسيح المخلّص. فالله يعفو عن الناس جميعًا بمن فيهم آدم، لأن آدم ندم على فعلته: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: سورة البقرة (٢:٣٧).

وورد بالقرآن الكريم أيضًا أن الله نفخ في الإنسان من روحه: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ سورة السجدة (٣٢ : ٩).

ومن ثَمّ يحمل الإنسان عنصرًا إلهيًا. فالمسلم مرتبط بأن الإله واحد وليس بينه وبين الإنسان واسطة، فهو إذًا عبد للإله يحمل عنصرًا منه، ولذلك فهو خليفة الله في الأرض(*). وقد كانت هذه العبودية معترفًا بها في المشرق العربي قبل الإسلام، ولا تمتُّ بصلة للرق الذي عُرف في الصين أو لدى الرومان، حيث كان الرق استعبادًا، واستغلالاً ظالمًا.

فأي زيف وأي أحكام مُسبقة ظالمة تشوه وجهة نظر الإسلام في نزق طائش، ولا تزال حتى اليوم تتناوله بالتجريح بسوء قصد عدائي، يدلل على جهل تام بالإسلام، وليس أدل على ذلك من عبارة الفيلسوف الألماني الكبير لايبنتز(١٦٤٦-١٧١٦) Leibniz حين يزعم أن المقدور بالجبر(أي القدر الرواقي) «fatum stoicum» الذي يتيح للإنسان أن يُرجع البصر فيما يصيبه من قضاء، إنما يسبغ عليه السكينة، وهذا ما يصوره القدر المسيحي «fatum christianum» الذي ينبغي أن يذعن له النصراني متقبلاً له، صابرًا عليه، راضيًا أن الرب الرحيم مصرف الأمور، أما القدر المحمدي (الإسلامي) «mahumetanische fatum» فهو خانع متشائم، لا يتيح للإنسان فرصة واحدة لتجنب الأخطار التي تهدده أبدًا، فعليه أن يرتضي ما يُصيبه دون أي مقاومة.

وهذا زيف واضح وافتئات على الحق، بل هو على أعلى مستوى من خلط الأبيض والأسود مثلما كان الحال في العصور الوسطى السالفة.

(*) Abdol Jawad Falaturi, Gott und Mensch aus islamischer Sicht, in: Islam und Christentum, Köln 1983, S. 57 ff.

وربما يقترب هذا الزعم- الذي ما زال البعض يلح على نشره- بأن تقدير المسلم يتعارض مع روح القرآن وأحاديث الرسول كلية، التي تطالب المرء - على الضد من ذلك - أن يختار بإرادة حرة، وفقًا لإحساسه بالمسئولية بين إمكانات مختلفة تحت تأثير ميول متعارضة، أن يختار بين قيم موجبة، وقيم سالبة، أن يتبع دواعٍ وأهدافًا أنانية أو يسلم نفسه للإرادة الإلهية، ولكن لا يسلم تسليمًا أعمى لمصير محتوم دون أن يحرك ساكنًا.

ويقتضي هذا الاختيار الحر مسئولية واعية عند المسلم وأن يتمكن هو نفسه من تغيير اختياره، إذ جاء بسورة الشمس (٩١: ٩، ١٠) ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾.

فاستقلالية الإنسان تتضح في اختياره الحر، وفى مسئوليته وحده. ويعبر عن ذلك بفاعلية مستقلة، فيما يفسر الأستاذ عبد الجواد فلاتوري Falaturi(*) الباحث الإسلامي العظيم: «إن الإنسان حين ينظر فيما يأتيه من عند الله، وما يتسبب هو نفسه في إحداثه، إنما يتعدى بهذا حدود إنسانيته ويتداخل حتى إلى النطاق الإلهي»؛ إذ جاء بالقرآن الكريم ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾. سورة الرعد (١٣: ١١).

وهذا يعني أن الإنسان المؤمن لا يخضع لأي تعسف يمارس ضده؛ إذ إنه هو نفسه صاحب الإنجاز والتقدير لما يرزقه به الله، فالإنسان إذًا مسئول في كل حال عن قدره.

(*) A. Falaturi, Der Islam im Dialog, Köln 1979, S. 10 f.

وتتصف الصورة الإسلامية للإنسان بصفة أخرى رائعة يعرف بها المسلم ويعرفها عنه الغرب وإن كانت تُحَمَّل بدلالة متعصبة ضيقة الأفق، وهى«الجهاد». فالجهاد لا يعنى مطلقًا الحرب المقدسة «وإنما يعنى كل اجتهاد، كل مسعى، كل تقوية للإسلام في أنفسنا، ومن أجلنا ومن أجل العالم». «يعنى الجهاد كذلك المحاربة اليومية ضد القوى المعارضة في أنفسنا وفى عالمنا، وهى المصادر التي يستمد المسلم منها القوة التي تؤهله للقيام بمسئولياته، ولكي يسلم نفسه للقدرة الإلهية. فالجهاد هو الحركة الدائمة للمجتمع الإسلامي، والصراع ضد القوى التي تريد تعطيل ما شرعه الإسلام من نظام إسلامي في المجتمع الإسلامي»(*).

(*) Ahmed Schmiede, Dschihad-nur «heiliger Krieg?» in: Al-Islam 5/75.

٤- انتشار الإسلام
هل كان بالنار والسيف؟

الحقيقة أن العكس هو الصحيح؛ إذ إن التسامح العربي هو السبب الرئيس لانتشار الإسلام على الرغم من المزاعم المتشددة ضده. ولم يكن رجال الدين المسيحي وحدهم هم الذين لم يقتنعوا بذلك، فما زال مسيحيو الغرب بعد مرور اثنى عشر قرنًا ميلاديًا متمسكين بهذه المزاعم حتى اليوم، ومتمسكين بالحكايات المختلقة التي كانت الجدات ترويها وبهذه الخرافات، وما زال ثمة من يعبر عن ذلك بالكلمة في الصحف والكتب، وبالرأي المعلن وبأجهزة الدعاية الحديثة. يزعمون أن الجيوش العربية -بعد موت محمد ﷺ - نشرت الإسلام بالنار والسيف من نهر الهند إلى المحيط الأطلنطي. وقد أصبحت هذه المقولة في كل هذه المجالات وعلى جميع المستويات عبارة مكررة على الرغم من أنها تخالف الحقيقة التاريخية، وتخالف الواقع، فـ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾.

وقد ورد هذا الأمر بالقرآن الكريم بسورة البقرة في الآية السادسة والخمسين بعد المائتين، لقد كان هدف فتوحات الجيوش العربية هو بسط السيادة الإلهية في الأرض، وليس نشر العقيدة الإسلامية، فالعكس صحيح؛ إذ ظل المسيحي على دينه، واليهودي على دينه، كما كان قبل فتح هذه البلاد، ولم يمنعهم أحد أن يقيموا شعائر دينهم، ولم يضار قساوستهم أو كهنتهم، أو كنائسهم ومعابدهم، ولم يتعرض أحد لعباداتهم.

وقد قيل إن الفاتحين الحكام الجدد جعلوا احتفاظ الشعوب الخاضعة لهم

بدينهم أمرًا صعبًا لأنهم فرضوا الجزية عليهم، وكانوا يسقطونها عن الذين يعتنقون الإسلام.

والحق أن معتنقي الديانات الأخرى- مثل المسيحية واليهودية والصابئة- هم الذين دخلوا الإسلام تأثرًا بحضارة الفاتحين، ولافتتانهم بذلك أطلقوا على أنفسهم أيضًا أسماء عربية، ولبسوا الملابس العربية، وقلدوا العرب في تقاليدهم. بل تعلموا العربية، واتبعوا مراسيم العرب في الزواج، والنطق بالشهادتين. ولم يجذبهم إلى العرب كرمهم وتسامحهم فحسب، بل جذبهم أيضًا أسلوب معيشتهم، والتمدين العربي، ولا سيما الظرف والكرم والمروءة وجمال الطبع. وكان لهذا كله قوة جذب لا تقاوم.

لقد شهد الآباء المسيحيون بالأندلس حانقين المد الروحي العربي الذي نعم به رعاياهم المسيحيون طواعية، وقد تحسر عليه ألفارو Alvaro أسقف قرطبة بكلمات مؤثرة، إذ قال:

«قرأ كثير من إخواني في العقيدة أشعار العرب وقصصهم، ودرسوا كتب علماء الدين والفلسفة المسلمين، ليس لمعارضتها وإنما ليتعلموا منها كيف يكون التعبير باللغة العربية بأسلوب صحيح رشيق. واليوم أين نجد واحدًا من غير رجال الدين يقرأ شرحًا أو تفسيرًا للكتب الدينية باللغة اللاتينية؟ من منهم يدرس الأناجيل، وكتب الأنبياء، أو كتب الرسل؟

آهٍ: إن كل المسيحيين الشباب الذين يلفتون إليهم الأنظار ببراعتهم لا يعرفون إلا اللغة العربية والأدب العربي. ويدرسون الكتب العربية بحماس، ويبذلون أموالاً وفيرة في اقتناء مكتبات كبيرة لهذه الكتب ويذيعون في كل مكان

بصوت عالٍ أن الأدب العربي جدير بالاهتمام والتقدير. ولو حدثهم أحد عن الكتب المسيحية محاولاً إقناعهم بالاحتجاج بها، فإنهم يجيبونه باستخفاف بأن هذه الكتب لا تستحق تقديرهم.

يا للمصيبة؟! نسي المسيحيون حتى لغتهم، فلا يوجد واحد فى الألف يستطيع أن يكتب رسالة باللغة اللاتينية السليمة، بينما يوجد عدد كبير منهم يحسن التعبير باللغة العربية، ويمكن أن ينظم الشعر باللغة العربية، بل إن منهم من فاق العرب أنفسهم فى نظم الشعر»(*).

لقد كان سحر أسلوب الحياة العربية هو الذى اجتذب الفرسان الصليبيين بعد زمن قصير من وجودهم بالمشرق. ويشهد بذلك الفارس الفرنسي فولشر فون شارترز Fulcher von Chartres «إننا نحن الذين حضرنا إلى المشرق غربيين، صرنا هنا شرقيين». وراح يعبر فى زهو عن إحساسه، وكان قد وقع أسيرًا للسحر الغريب لذلك العالم العجيب، ويتساءل ما الذى يضطرهم إلى العودة إلى الغرب الكئيب بعد «أن أنعم الإله علينا بالوجود بالشرق بدلاً من الغرب»(**).

(*) Zit. n. S. Hunke, Allahs Sonne, a. a. O. S. 143.
(**) S. Hunke, Kamele, S. 99/100.

٥- إسلام
منافس للكنيسة

ما أشد وطأة الحال التي تسبب فيها التنافس الكنسي! الدليل على خطورة الوضع وعلى قدر المنافسة التي تتعرض لها الكنيسة أنها أرادت أن تتفهم التحمس للعرب Araber-Fans وأن تقنع المتحمسين لهم بأن النصرانية ما زالت موجودة، فعهدت إلى يوحنا الإشبيلى Erzbischof Johannes von Sevilla رئيس الأساقفة بمدينة إشبيلية (سيفيلا) بترجمة الإنجيل إلى لغة القرآن التي أحبوها ويفضلونها على اللغة اللاتينية التي نسوها. لم تكن صدفة أن تضطر الكنيسة إلى التقرير بأن دعواها بأنها تنفرد بالحق المطلق فى الهداية ومنح الخلاص أصبحت مهددة، وأنها لا تجد فى الإسلام مجرد عدو فقط، وإنما تجد فيه منافسًا قويًا وخطيرًا يهرع إليه أبناؤها المؤمنون به طواعية.

فهم لا يستطيعون أن يقاوموه بجيوش قوية مدججة بالسلاح فحسب، وإنما الأهم من ذلك أنهم لم يستطيعوا مقاومته بالسلاح النفسي الديني الذى يصطفيه الرب للفرسان الصليبيين لمحاربة المجرمين وأتباع الشياطين، الذين يعدونهم أعداء الرب «والذين يرغبون فى انتزاع العقيدة المقدسة منا» (كما يقولون).

ومن ثم سرعان ما انتشر الشعر الذى يحاكى الشعر العربي الموزون المقفى. ولم تختص بهذا مواعظ الكنيسة الكاثوليكية فحسب، بل حاكاه أيضًا - ودون وعي- الشعراء الدينيون إبان الحروب الصليبية، إذ حاكوا القافية العربية فى

دعايتهم التي تُنَفِّر من العدو. وكان الهدف من ذلك إظهار ثنائيتين: من جانب التسلح المعنوي للمسيحيين الذين تحتفل بهم أبطالاً أجلاء ينبغي أن يكافأوا بالهبات السماوية، ومن جانب آخر النيل من المسلمين الذين يستحقون أن يقتلوا أو أن تطأ الأقدام أشلاءهم، بعد أن يخروا غارقين فى دمائهم.

وتنضح قصائد شعراء البلاط العظام فى دير ريجنزبورج Kloster Regensburg بالكراهية المقيتة، وكذلك قصائد شاعر الكنيسة كونراد[١٦] Konrad فى قصيدته نشيد رولاند Rolandslied (حوالي عام ١١٣٠م) التى يصف فيها المسلمين بأنهم شعب لا يرتوي تعطشه لسفك الدماء وأنهم «شعب ملعون» وأنهم «كلاب وخنازير فجرة، عبدة أصنام لا حول لها ولا قوة، لا يستحقون إلا القتل وطرح جيفهم فى الخلاء». وأنهم «إلى جهنم ينقلبون». ويطفح «نشيد رولاند» - الذي كتبه الشاعر القسيس - بالكراهية والبغضاء موجهًا خطابه إلى خصمه المسلم:

«إن مخمت Machmet - وهذا تحريف مشوه لاسم النبي محمد عمدًا واستخفافًا، كما ورد فى الكتابات التي تصوره صنمًا ذهبيًا - قد أرسلني إليك لأضرب عنقك، وألقى بجثتك للطير، وأضع رأسك على سن رمحي. وإذا امتنع أحد عن التعميد فإن القيصر يأمر بشنقه أو إحراقه؛ إذ إنهم دون تفرقة أتباع الشيطان، وأنهم جميعًا هالكون خسروا كل شيء حل عليهم غضب الرب فبطش بهم جسدًا وروحًا وكتب عليهم البقاء فى جهنم آبدين»[*].

وقد كان دخول شعوب الأقطار- التي فتحها المسلمون- فى الإسلام

(*) Siegfried Stein, Die Ungläubigen in der mittelalterlichen Literatur, Diss. 1993,

طواعيةً أفواجًا بالنسبة للكنيسة أمرًا غريبًا ومقلقًا للغاية؛ إذ لم يكن ذلك نتيجة توبة أو استماع إلى إرساليات تبشيرية، أو إكراه فى الدين، بل كانت السماحة العربية، والروحانية، وأسلوب الحياة العربية، وصفات العرب الأخاذة هي ما دفع مسيحيي إسبانيا إلى اعتناق الإسلام، وليس كما يزعم البعض بأنهم أرغموا على الإسلام خشية السيف أو الحرق بالنار.

نعم ثمة تغير حدث عندما فقدت جحافل الشعوب التركية المتدفقة من شرق آسيا والمغول والإمبراطورية العثمانية شعورها بما يتميز به الإسلام من سماحة، فاجتاحت بعض البلاد الأوربية وتوغلت فيها.

والحق أن عصر التسامح انتهى بطبيعة الحال من إسبانيا، بعد أن طرد العرب نهائيًا عام ١٤٩٢ بما فى ذلك غرناطة الجوهرة العربية، وقصر الحمراء بها، وبذلك تم الانتصار على العرب. وكان انتصار المسيحيين يعنى طرد اليهود والمسلمين معًا، أو إجبارهم على الدخول فى المسيحية (التعميد المسيحي)، وتوظيف مفتشين يتتبعون أصحاب الديانات الأخرى، وإعلان نشاط محاكم التفتيش التي تعقبت كل من لم يتخذ الكاثوليكية دينًا، وإقامة الحفلات الرسمية ليشهد الناس طقوس حرق من يعتنق سرًا دينًا غير المسيحية (أي اليهود والمسلمين) وبهذا دالت الحضارة المثمرة الثرية التي عرفتها القارة الأوربية فى العصور الوسطى، وغرقت أوربا فى بحرٍ من الرعب، وغمرتها موجة التعصب الديني.

وقد وقعت هذه الأغنية التي أرسلها شاعر مجهول يائس وقانط يدعو إخوانه من سكان شمال أفريقيا، ويستصرخهم مستنجدًا بهم، ولكن الأغنية

وقعت فى أيدي أصحاب الشأن، الإسبان المسيحيين آنذاك:

«من الأندلس ذائعة الصيت أريد أن أعلن[17]

كيف أذلها أعداء العقيدة

شعب الخطايا

ونحن نقف مثل الحِملان يطوقنا الطغاة

ونتمنى الموت لأنفسنا

ما أشد ما نتحمله من أضرار

إنهم يجبرون شعبنا على اعتناق ملتهم

ويريدون أن نركع لأوثانهم، ونصلي لها

نحيا فى شدة دائما، وفى خوف ورعب

يدعوننا بنواقيسهم لعبادة صورهم البغيضة.

وأصبح من يسبِّح لله فى لغته، - يا للهول - لا يمكن إنقاذه منهم

فهو مفقود

ومن يبعد عنهم ألف ميل يمكنهم الوصول إليه

ثم يُحشر فى السجن المعتم، ويتمدد مرعوبًا على أرضه

ويسمع ليل نهار من يصيح به لكي يبث الرعب في نفسه

«عد إلى رشدك»

ويتفكر المسكين ويطيع ما أمر به

ويدوي الصوت فى أذنه، فتنهمر الدموع من عينيه

لم يبق له إلا الصبر سلوانًا حين تحيط به الظلمة

وتطويه أيام طويلة مرعوبًا فى مسغبة عطشًا وجوعًا

فى هوة عميقة مخيفة أمام ناظريه

في بحر بلا شاطئ، بحر يستحيل على أحد عبوره

فيقاد الواحد إلى غرفة التعذيب، حيث يكبل

وتدق عظامه وتسحق

ثم يحتشد كل مسيحي دنيء في ميدان عام

حيث أقيمت المشانق على أعمدة خشبية،

مشانق(مقصلة) منظرها يثير الرعب في النفوس

ويقف الجميع في يوم كيوم الحشر

فمن لم يحكم عليه بالموت يظل واقفًا في زي التكفير الأصفر

ويكون مصيره العار والشنار

أما الباقون فيقادون مع الأصنام البشعة

إلى الحطمة ويلقون في النار

آهٍ، آهٍ فالخطر يحدق بنا كدائرة من نار

فأعداؤنا لم يبخلوا علينا بأي لون من ألوان العذاب على الأرض»(*).

- تم تنفيذ آخر حكم إعدام عام ١٧٨١.
- لم تلغ محاكم التفتيش إلا فى عام ١٨٣٤(**).



(*) Zit. n. S.Hunke, Allahs Sonne, a. a. O., S. 346.

(**) هذا ما كتبته المؤلفة بعد ترجمتها لاستغاثة الشاعر العربي المجهول، وانهت به الفصل (المترجم).

تعليقات الفصل الثاني

١) تأتي السطور التالية في صورة دراسة كتبتُها تعليقًا على الفصل الثاني كاملاً:

مملكة بيت المقدس بين الفروسية العربية والغربية[١]

سقطت بيت المقدس أمام جيوش عمر بن الخطاب عام ١٥هـ / ٦٣٧م. وكانت شروط «عمر بن الخطاب رفيقة غير ثقيلة، فقد أعطاهم عمر الأمان لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم، كما منحهم الحرية الدينية على أن يعطوا الجزية للمسلمين، وعلى أن لا يسكن بيتَ المقدس أحدٌ من اليهود». ودخل عمر ساحة الهيكل المهجور فأزال الرَّدم بيده عن الصخرة المقدسة التي يَعُدُّها اليهود والنصارى والمسلمون جميعًا منتصف الأرض، وأمر ببناء المسجد هناك. وظلت في يد الحكام المسلمين حتى نهاية الحرب الصليبية الأولى. وكان الاتصال مستمرًا بين الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس، وبين المسيحيين في الغرب. ويرجع ذلك إلى تسامح الفاتحين المسلمين.

وفي عام ١٩٢هـ / ٨٠٧م صدّق هارون الرشيد على ما حدث من التنازل الرمزي عن المدينة وأقر أن يكون شارلمان حاميًا لبيت المقدس، ومالكًا لكنيسة القيامة. وقد شيد شارلمان بالمدينة المقدسة مستشفى ومكتبة. «فلما كانت السنة التالية (سنة ١٩٣هـ) صار في مقدوره (أي هارون الرشيد) أن يستقبل فيها سفراء شارلمان الذين جاءوا، في الظاهر، يطلبون آثار القديس سيبريون في حين أن هدفهُم الحقيقي، من غير شك، كان إنشاء علاقات دبلوماسية»[٢].

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٩٨.

(٢) السابق، ص١٨٨.

ولم يتمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيت المقدس إلا في عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م بعد حصار دام أكثر من أربعين يومًا. فأقاموا بها مملكة بيت المقدس التي استمرت إلى عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م وتولى حكمها عشرون حاكمًا، نُصِّب منهم سبعة عشر ملكًا متوجًا، وتولى الحكم اثنان هما: جودفرد بوايون أول من تولى حكمها عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م وأبى إلا أن يكون وصيًا على الدولة، ولم يبق في الحكم إلا عامًا واحدًا، وماري وهي ابنة كونراد وكانت تحت الوصاية في ٦٠٢ – ٦٠٧هـ/ ١٢٠٥ – ١٢١٠م.

وبذلك دامت مملكة بيت المقدس القديمة في أيدي الفرنجة سبعة وثمانين عامًا ٤٩٤ – ٥٨٣هـ/ ١١٠٠ – ١١٨٧م، إذ استردها منهم صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م أيام حكم بهاي لوزجنان ٥٨٢ – ٥٨٨هـ / ١١٨٦ – ١١٩٢م، ولم يبق منها في حكم الصليبيين إلا مدن ساحلية فقط أصبحت عكا قاعدة لها بالمسمى نفسه (مملكة بيت المقدس)، يتبعها موانى صور وحيفا وقيسارية وأرسوف ويافا، وعاشت إلى عام ٦٩١هـ/ ١٢٩١م.

ويهمنا في هذه الدراسة أن نقدم الحديث عن بعض المواقف التي تبين الفرق بين الفروسية العربية والفروسية الغربية.

إذ يذكر وليم الصوري المؤرخ المسيحي[١] «أن بيت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة حتى أصبح البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت الرعب والاشمئزاز».

كذلك يذكر مؤرخ صليبي حضر تلك الأحداث أنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة التي أحدثها الصليبيون فيه، لم يستطع أن يشق طريقه وسط

(١) في كتابه عن الحروب الصليبية الذي ترجمه حسن حبشي ص١٢٦ – ١٢٨.

أشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه، ولم يكن اليهود أحسن حالاً من المسلمين؛ إذ جمع الصليبيون اليهود في الكنيس وأحرقوه عليهم.

ويذكر إرنست باركر Ernest Barker[1]: «سقطت المدينة في ١٣ من شعبان سنة ٤٩٢ / ١٥ من يولية سنة ١٠٩٦، بعد حصار استمر ما يزيد على شهر، وأجرى الصليبيون مذبحة مريعة؛ إذ إن الدماء بلغت من شدة التدفق في الشوارع أن خاض الناس بخيولهم فيها، ولما أنزل الليل أستاره، أقبل الصليبيون آخر الأمر إلى كنيسة القيامة، وقد بكوا من شدة الفرح، وفي الكنيسة رفعوا أيديهم المخضبة بالدماء وصاروا يجهرون بصلاتهم».

ولم يترك الصليبيون مسلمًا واحدًا في الطرقات، والبيوت والمساجد إلا قتلوه، واستباحوا دمه دون التفرقة بين رجل وامرأة، وشيخ كبير أو طفل: بل إن البطريرك نفسه – فيما يذكر المؤرخ المسيحي ميشائيل السوري Michael de Syrer – كان يجري في الحواري، ويقتل كل من يلقاه من المسلمين، ولم يتوقف إلا عندما وصل إلى كنيسة القيامة وقبر المسيح، حيث غسل يديه وذراعيه من الدماء، وهو يردد كلمات المزمور ٥٨ / ١٠ – ١١[2].

أما المسلمون الذين بلغتهم أخبار هذه المذبحة التي تعرض لها إخوانهم ببيت المقدس – بعد أن سلموا المدينة وفقًا لتعهد الصليبيين بأن يحقنوا دماءهم،

---

(١) في كتابه عن الحروب الصليبية الذي ترجمه إلى العربية د. السيد الباز العريني، ص٤٢.

(٢) «يفرح الصِّدِّيق إذا رأى النقمة. يغسلُ خطواته بدم الشرير، ويقول الإنسان إن للصِّدِّيق ثمرًا، إنه يوجد إله قاضٍ في الأرض». ثم يقيم القداس ويقول إنه لم يقدم للرب – قبل ذلك – أي قربان يرضيه مثل هذا.

ويتركوهم يرحلون عن المدينة في أمان - فقد شرحت حالهم القصيدة التي قالها أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردي (ت ٥٠٧هـ/ ١١١٣م) وجاء فيها:

مزجنا دماءً بالدُّموع السّواجم ... ولم يبق منا عُرضةٌ للمَراجِم

وشَرُّ سلاحِ المرء دَمْعٌ يُفيضه ... إذا الحربُ شُبَّت نارُها بالصَّوارِم

أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... ويُغضي على ذُلٍّ كُماةُ الأعاجم

فإن أنتُم لم تغضَبُوا بعد هذِهِ ... رمينا إلى أعدائِنا بالجرائِم

وفي مقابل هذه المذبحة التي أراق فيها الصليبيون دماء المسلمين واليهود في بيت المقدس، بعد أن نقضوا عهدهم لهم وتعهدهم بالأمان والمحافظة على أنفسهم وأموالهم، نعرض مثالاً للفروسية العربية ممثلة في سلوك صلاح الدين الأيوبي عندما استرد بيت المقدس من الصليبيين في عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، فعلى الرغم من أنه أصر على تسليم المدينة دون قيد أو شرط وقال لرُسُل الصليبيين الذين خرجوا له من المدينة المُحَاصَرة: «لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله (أي أهل بيت المقدس) حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة (أي هجرية) من القتل والسبي، وأُجْزِي السيئة بمثلها» فإنه لم يلبث أن وعدهم بالمحافظة على أرواح الصليبيين والمدنيين بالمدينة جميعًا، وأن يسمح لهم بالخروج بعد دفع الفدية المتفق عليها، وأظهر تسامحًا تجاه فقراء الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية. وقد دُهِش المسلمون جميعًا، حينما رأوا هرقل بطريرك بيت المقدس يدفع لنفسه الدنانير العشرة، ويغادر المدينة حاملاً ما استطاع حمله من الذهب والفضة، ومن خلفه العربات تحمل نفائس الكنيسة دون أن يبالي بفقراء الصليبيين الذين لم يجدوا ثمن فدائهم. وكان أن أمر صلاح الدين بإطلاق سراح اليتامى والشيوخ والأرامل من الصليبيين دون

فداء، بل ومنحهم أيضًا مساعدات مالية من ماله الخاص.

ولم يطع صلاح الدين من نادى بهدم كنيسة القيامة، ومعاملة المسيحيين بمثل ما عاملوا به المسلمين عندما استولوا على بيت المقدس في عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م.

وأمر باحترام الأماكن المقدسة في بيت المقدس، والتزام روح التسامح تجاه المسيحيين، تيمنًا بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما فتح القدس، وأقرَّ من به على هذا المكان، ولم يأمر بهدم البنيان.

وقد شهد المؤرخون المسيحيون المعاصرون لهذه الواقعة وغير المعاصرين لها بكرم أخلاق صلاح الدين وسماحته، ومعاملته الطيبة الحميدة للنساء والأطفال والمحاربين الصليبيين، الذي جمعهم خارج المدينة تحت حراسة قوية وقسمهم إلى مجموعات ثلاث[1]:

---

(١) أولاً: الداوية هم فرسان المعبد Les Templiers، نشأت ونظم قانونها منذ استقرار الحملة الصليبية الأولى. وقد صدر قانون أنظمتها ومبادئها سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م زمن بلدوين الثاني. وقد أسس هذه الفرقة جماعة من الفرسان الصليبيين الفرنسيين الذين قدموا بيت المقدس في الحروب الصليبية الأولى، وأقاموا في عمارة تنسب إلى هيكل Temple سيدنا سليمان بن داود فنسبوا إليه.

ثانيًا: الاسبتارية Les Hospitaliers: يرجع تأسيسها إلى ما قبل الحرب الصليبية الأولى عندما طلب جماعة من تجار مدينة أمالفي الإيطالية من الخليفة المستنصر الفاطمي سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م أن يسمح لهم بإقامة دير وبيمارستان Hospital ببيت المقدس على أن يكون مأوى وملجأ للحجاج المسيحيين للإقامة والعلاج أثناء زيارتهم لبيت المقدس ثم صدر قانون جديد في تنظيمهم، وأصبح يطلق عليهم فرسان القديس يوحنا Saint Jean. وكانت لهم مشاركة قوية في محاربة المسلمين، والدفاع عن المصالح الصليبية.

الأولى بقيادة الداوية، والثانية بقيادة الاسبتارية، والثالثة بقيادة القائد باليان نفسه. ثم أرسلهم مخفورين خوفًا عليهم من أن يتعرضوا لاعتداءات الأعراب في الطريق إلى طرابلس التي كانت تحت حكم الصليبيين.

ونضيف إلى هذا موقفين للملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد، ولصلاح الدين أيضًا، فعندما استولى الصليبيون على عكا عام ٥٨٧هـ / ١١٩١م بعد أن حاصروها قرابة عامين أظهرت فيها حاميتها بسالة عظيمة بقيادة قراقوش الوزير الأيوبي، ثم استسلمت بعد أن اشترط عليهم الصليبيون إرجاع صليب الصَّلْبوت، وأن يسمحوا للحامية بالخروج مقابل مائتي ألف دينار، وتحرير ألفين وخمسمائة من أسرى الصليبيين. ووافق المسلمون على ذلك على الرغم من رفض صلاح الدين لهذه الشروط المتعنتة.

وعلى الرغم من قبولهم الشروط، فإن الصليبيين نقضوا عهدهم بمجرد دخولهم المدينة، فأسروا كل من فيها من المسلمين، ثم ساقهم ريتشارد في ٢٠ من أغسطس ١١٩١ / ٥٨٧هـ، وكانوا حوالي ثلاثة آلاف مسلم إلى تل العياضية حيث قتلهم صبرًا، وطعنًا وضربًا بالسيف، والمسلمون يشاهدونهم ولا يدرون ما يفعلون لبعدهم عنهم[(١)].

أما صلاح الدين وكان يحاصر الصليبيين وتحت يده من أسراهم ما يفوق عدد من قتلهم الصليبيون من المسلمين – فقد أبى أن يفعل بأسراه الصليبيين مثل

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين جـ٢ ص١٨٩، عماد الدين الفاتح: الفتح القسي ص٥٣، المقريزي: السلوك جـ١ ص١٠٥.

أرجو مراجعة ما جاء عن الملك ريتشارد قلب الأسد بملحق هذا الكتاب، ترجمةً عن مقدمة رواية (الطلسم) Talisman للروائي الإنجليزي والتر سكوت Walter Scott.

هذا، ولكنه أغلق باب المفاوضات مع ريتشارد حول أي موضوع يتعلق ببيت المقدس. وكان قد جمع الأسرى الصليبيين استعدادًا لاستبدال أسرى «عكا» بهم، فأمر بردهم فورًا مكبلين إلى دمشق وانصرف عن عكا، ومعه صليب الصلبوت الذي كان قد أحضره لإعطائه لريتشارد قلب الأسد، واستعد لقتاله.

وعندما كان المرض يشتد على ريتشارد كان يرسل إلى صلاح الدين يطلب منه الفاكهة والثلج فكان صلاح الدين يستحضرها خصيصًا له، ويرسلها إليه، حتى يشفى ريتشارد من مرضه. وسرعان ما وجد ريتشارد نفسه مضطرًا إلى العودة إلى بلاده، ولكنه لا يستطيع العودة قبل أن يصل مع صلاح الدين إلى حل، وتدهورت حالته الصحية، وخشي إن لم يعجل بالعودة إلى بلاده، أن يموت بالشام، ومن ثم عاد إلى التفاوض مع صلاح الدين، واضطر إلى التنازل عن شرط احتفاظ الصليبيين بعسقلان، فتم عقد صلح الرملة في سبتمبر سنة ١١٩٢م/ ٥٨٩هـ.

وينص العقد على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا. أما الأماكن المقدسة فقد اتفق أن تكون للمسيحيين حرية الحج إلى بيت المقدس دون مطالبتهم بأي ضريبة، وأن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

وأشاد ريتشارد بتسامح صلاح الدين وسعة صدره، وعبّر عن أمله في أن يحظى ببعض ذلك الكرم الذي اشتهر به صلاح الدين في معاملته للصليبيين وقال له: «إن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا أطلب منك كنيسة القيامة».

فوافق صلاح الدين، كما وافق على أن تكون البلاد الساحلية من صور إلى يافا

في حوزة الصليبيين بشرط أن تظل عسقلان وما وراءها خرابًا[1].

ومن هذا كله يمكن أن نتبين الاختلاف بين الفروسية العربية والفروسية الغربية.

٢) أسرة شتاوفن (Die Hohenstaufen Familie)

أسرة ملوك شفابن Schwaben وهي مقاطعة بافارية في جنوب ألمانيا. أسسها جدهم فريدريش فون بيرن Friedrich von Büren الذي خلف حماه الملك هينريش الرابع Heinrich IV على الملك، ومن سلالته:

١- الملك كونراد الثالث Konrad III (١٠٩٣ - ١١٥٢).

٢- فريدريش بارباروسا Friedrich Barbarossa (١١٢٢ - ١١٩٠).

٣- هينريش السادس Heinrich VI (١١٦٥ - ١١٩٧).

٤- فيليب فون شفابن Philip v. Schwaben (١١٧٨ - ١٢٠٨).

٥- فريدريش الثاني Friedrich II (von Hohenstaufen) (١١٩٤ - ١٢٥٠).

٦- كونراد الرابع Konrad IV (١٢٢٨ - ١٢٥٤).

وقد امتدت سيطرتهم وشمل حكمهم - طوال هذه السلالة - الكثير من البلدان الأوربية وتميز عصرهم بالنشاط السياسي والثقافي. وجاءت آخرهم كونرادين (١٢٥٢ - ١٢٦٨) Konradin ابنة الملك كونراد الرابع ودوقة شفابن التي شنقت في نابولي سنة ١٢٦٨.

---

(١) وكان ريتشارد يشير إلى أن هوبرت أسقف ساليزبري طلب من صلاح الدين تعيين اثنين من رجال الدين الكاثوليكي في كل من كنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم وكنيسة الناصرة، وذلك إلى جانب رجال الكنيسة الأرثوذكسية والسريان اليعاقبة، فوافق صلاح الدين على طلبه.

٣) فريدريش الثاني (٥٩١–٦٤٨ / ١١٩٤ – ١٢٥٠م) Friedrich II

حفيد فريدريش الأول (بارباروسا)، وابن الإمبراطور هنري السادس. قلده البابا إنوسنت الثالث حكم صقلية ٥٩٤هـ / ١١٩٧م وساعد على انتخابه ملكًا بدلاً من أتو الرابع ٦٠٩هـ / ١٢١٢، فتوج على آخن، وتوج إمبراطورًا في روما ٦١٧هـ / ١٢٢٠م. قاد الحملة الصليبية السادسة سنة (٦٢٦ - ٦٢٧هـ / ١٢٢٨ - ١٢٢٩م)، وكانت حملة سلمية تنازل فيها الملك الكامل عن بيت المقدس والناصرة وبيت لحم للمسيحيين، وتوج ملكًا على القدس. ولكن البابا جريجور التاسع أعلن بطلان معاهدة فريدريش الثاني مع الملك الكامل. واشتبك مع فريدريش في صراعات، ثم أعلن البابا خلع فريدريش وحرمه ١٢٤٥م.

٤) فريدريش الأول (١١٢٢ - ١١٩٠) Friedrich II

بارباروسا (ومعنى بارباروسا ذو اللحية الحمراء) من أسرة هوهن شتاوفن. خلف عمه كونراد الثالث ملكًا على ألمانيا (١١٥٢)، ونشر السلام في ألمانيا بإعلانه سلمًا عامًا بها سنة ١١٥٢. حارب البابوية، وانتصر عليها في البداية، ولكن البابا ألكسندر حرمه، وهُزم في لجنانو Legnano ١١٧٦. اشترك فريدريش سنة ١١٩١ في الحرب الصليبية الثالثة. وغرق في نهر السالف بآسيا الصغرى.

٥) صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢–٥٨٩هـ / ١١٣٧–١١٩٣م):

مؤسس الأسرة الأيوبية بمصر، والخصم الأكبر للصليبيين. رافق عمه أسد الدين شيركوه في حملات أرسلها نور الدين إلى مصر (٥٦١، ٥٦٤هـ / ١١٦٤، ١١٦٨م)، وأصبح شيركوه وزيرًا بمصر، ثم خلفه صلاح الدين ٥٦٥هـ / ١١٦٩م. أنهى حكم الفاطميين بمصر واستقل بها بعد موت نور الدين، ونصب

نفسه سلطانًا على مصر، وأسس الدولة الأيوبية ٥٦٧هـ/ ١١٧١م. حارب الصليبيين في الشام، واستولى على دمشق والموصل وحلب سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م في حربه ضد الحشاشين، وهزم الصليبيين في حطين ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م وفتح بيت المقدس. وواجه ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا في الحرب الصليبية الثالثة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، وكانت الحرب بينهما سجالاً دون أن يظفر الصليبيون باسترجاع بيت المقدس، وانتهى القتال بين الفريقين بصلح الرملة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م.

٦) بيت المقدس:

تقع المدينة وسط فلسطين، فوق تل صخري على ارتفاع ٧٦٢مترًا، وهي المدينة المقدسة عند اليهود والمسيحيين والمسلمين. بها المسجد الأقصى، الحرم المقدس للمسلمين، وقبة الصخرة، وبها كنيسة القبر المقدس التي تقوم على جبل الجلثجة، وهو ما يعتقد المسيحيون أن المسيح صلب عليه، فيما يعتقد اليهود أن جانبًا من أحد جدران المسجد الأقصى بُنِي بأحجار أخذت من هيكل سليمان. وهو الجدار المعروف عندهم بحائط المبكى (حائط البراق).

٧) طرسوس:

ميناء على البحر المتوسط، استولى عليه الصليبيون ٤٩٣، ٤٩٧هـ/ ١٠٩٩، ١١٠٣م، وشيد به كاتدرائية كبيرة على الطراز القوطي. فتحه السلطان قلاوون سنة ١٢٩١. وبالمدينة حصن ذو سور مزدوج وأبراج وخندق.

٨) هاينريش السادس (١١٢٩ – ١١٩٧) Heinrich VI

لقب بالأسد، حكم بافاريا (١١٥٦ – ١١٩٧). بعد وفاة والده فريدريش الأول بسنوات سبع عقد أواصر الصداقة مع المسلمين، وقاد حملة سلمية دون إراقة الدماء. كان أكبر وأعظم رجال السياسة في زمنه، وكان يعتبر في نواح

عديدة أعظم إمبراطور منذ شاولمان. في عام ١١٩٥ سعى أملريك شقيق جاي لوزنجان وخليفته على الحكم في قبرص للحصول على تاج بيت المقدس، وبذل له الولاء، كذلك أعلن أملريك الأول ولاءه وتبعيته له وتلقى منه اللقب الملكي.

وفي العام نفسه (١١٩٥) اتخذ هنري السادس الصليب، وأعلن اشتراكه في الحروب الصليبية. وكان الهدف من حملته مهاجمة الكسيوس الثالث الذي اغتصب منه الحكم، غير أنه في وسط هذه التجهيزات مات هنري في صقلية في خريف ١١٩٧.

(رجعت في هذه المادة إلى كتاب الحروب الصليبية لإرنست باركر، ترجمة د. السيد الباز العريني، ص ١٢٠ – ١٧١).

٩) الملك الكامل:

ناصر الدين (٥٧٦ – ٦٣٦هـ / ١١٨٠ – ١٢٣٨م) هو ابن الملك العادل الأيوبي، نصبه أبوه نائبًا عنه وأقطعه الشرقية، وأسكنه قلعة الجبل. ثم استقل بعد موت أبيه بحكم مصر ٦١٥/١٢١٨. في عهده حاصر الصليبيون دمياط ٦١٦/ ١٢١٩ واستولوا عليها، ووطدوا مركزهم بها، منتظرين قدوم فريدريش الثاني. ولكن هرمان فون سالتزا حضر بدلاً منه باعتباره مقدم الرهبان اليتوتون، ودوق بافاريا.. وأمر الكاردينال بيلاجيوس بميرة الجيش الصليبي إلى القاهرة، وعسكر بحصن شيده الكامل سنة ١٢١٩ ومكانه الآن مدينة المنصورة. ولم يقبل عرض الملك الكامل بالتنازل عن معظم مملكة بيت المقدس وتسليم الصليب المقدس (صليب الصلبوت)، الذي استولى عليه صلاح الدين سنة ١١٨٧م، وإعادة جميع الأسرى الصليبيين، فاضطر المصريون إلى حشد جيوشهم وتقدمهم بعض الفرق، فجرت مطاردة

الصليبيين إلى دمياط. واضطر بيلاجيوس ٦١٨هـ / ١٢٢١م إلى عقد معاهدة مع الملك الكامل، وبمقتضاها انسحب الصليبيون، بعد أن تسلموا الصليب المقدس مقابل إعادة دمياط إلى الملك الكامل.

وعند حضور الملك فريدريش الثاني قائدًا للحملة الصليبية السادسة، استخدم مواهبه الدبلوماسية بدلاً من القتال، وعقدت معاهدة بينه وبين الملك الكامل عام ١٢٢٩ ومنحه الكامل مدينة الناصرة وبيت لحم وبيت المقدس، بالإضافة إلى المدن الساحلية التي كانت في حوزة الصليبيين، وطريقًا يصل بين بيت المقدس وميناء عكا.

وقد وسع الملك الكامل ملكه، فاستولى على حران، والرها، والرقا، وآمد وغيرها. توفي بدمشق ودفن بقلعتها.

١٠) هيرمان فون سالتزا Hermann von Salza (ت ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م).

كان صديقًا ومستشارًا للملك فريدريش الثاني، وأسس لوائح الولايات البروسية، وكان مقدم الرهبان اليتوتون، ودوق بافاريا.

١١) البابا جريجور التاسع (٦٢٥ – ٦٣٩هـ/ ١٢٢٧ – ١٢٤١م) Gregor IX

غريم الملك فريدريش الثاني، أصدر ضده، في صورة غضب، قرار الحرمان، معتقدًا أنه يعمد إلى الكذب، ولن يقوم بحملة صليبية، وأنه يدعي المرض حتى لا يقوم بها. ولكن بعد أن توج فريدريش الثاني نفسه ملكًا على بيت المقدس، وفقًا للمعاهدة التي عقدها مع الملك الكامل، وغادر الشام إلى إيطاليا قهر جيوش البابوية، واستطاع أن يحصل من البابا جريجور التاسع في أغسطس سنة ٦٢٧هـ ، ١٢٢٩، على الإبراء والتحلل. وفي عام ٦٣٧هـ / ١٢٣٩ قطع البابا جريجور التاسع الملك فريدريش الثاني من الكنيسة مرة أخرى، ونشب بينهما نزاع (بين البابوية والإمبراطورية) واستمر النزاع حتى

فقد فريدريش البقية الباقية من «سلطته، وإن كان أتباعه قد استطاعوا الاحتفاظ بمدينة صور حتى سنة ١٢٤٣.

١٢) الأمير فخر الدين قرا أرسلان الأرتقى

كان الوسيط في المباحثات بين الملك الكامل وفريدريش الثاني. وعندما كان لويس التاسع يقود الحملة الصليبية على مصر، استطاع الاستيلاء على دمياط، وتقدم الصليبيون في زحفهم إلى مخاضة سلمون وأخذوا يعبرون بحر أشموم، أسرع الأمير فخر الدين بجمع رجاله لمواجهة الصليبيين، ولكنه وقع في كمين نصبه له الداودية وقتل على الأثر (ابن واصل: مفرج الكروب، د. سعيد عاشور جـ٢، ص٨٤٥).

١٣) بارسيفال Parzival

فارس أسطوري رائع يظهر في أسطورة الملك أرتوس Artus وأصل قصته أنه سعى في رحلته إلى الحصول على الكأس المقدسة التي شرب منها المسيح لآخر مرة، والتي يقال إن بعض الحواريين جمع فيها قطرات من دمه بعد أن صلب. ألف عنه فولفرام فون إشينباخ Wolfram von Eschenbach (٥٦٦ – ٦١٧ / ١١٧٠ – ١٢٢٠) ملحمة من أروع ملاحم القرون الوسطى باسم «الفارس بين الإله والعالم» وفيها ذِكر للشخصية التاريخية فيلهلم Der Ritter zwischen Gott und Welt وكتب ريتشارد فاجنر Richard Wagner لهذه الملحمة دراما موسيقية باسم برسيفال Parzival.

١٤) القديس بولس Paulus

رسول الأمم، ولد في طرسوس بآسيا الصغرى لأسرة يهودية متعصبة. واسمه شاؤول، وهو روماني الجنسية درس في القدس، ونشأ نشأة يهودية متحمسًا لأبيه ووطنه، وكان يضطهد المسيحيين الأوائل. كلفه رئيس الكنيس بالذهاب

إلى دمشق لمقاومة المسيحية (سنة ٣٥ ميلادية) ولكنه فجأة اعتنق المسيحية في دمشق ونزل عند المسيحيين، وسلك مسلكهم.

وتسمى باسم بولس، وأصبح من أنشط المبشرين بالمسيحية في القرون الأولى وطاف ورفاقه بالشرق الأوسط العام اليوناني واعظًا ومؤسسًا للكنائس.

ثار ضده اليهود، فقبض عليه في أورشليم (سنة ٥٧) وسجن لمدة سنتين ثم أرسل إلى روما حيث سجن سنتين أيضًا ثم حوكم وظهرت براءته من تهمة تحريض الشعب فأطلق سراحه، وعاد للتبشير في جزيرة أقريطش. وأخيرًا قبض عليه وسيق إلى روما، وحكم عليه بالإعدام، وصلب وقطع رأسه بالسيف[١].

كان لبولس تأثير قوي في وضع أسس الديانة المسيحية على الصعيدين الروحي والإداري. كتب أربع عشرة رسالة تشكل أربعة عشر سِفرًا من كتاب العهد الجديد. وهي موجهة إلى أهل رومية وكورنثوس وغلاطية وأفسس وكولوسى وسالونيكي وغيرها[٢].

١٥) حديث حسن، نقلاً عن السيوطي في: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الكتب العلمية- بيروت، ط ١٩٩٠م.

١٦) كونراد Pfaffen Konrad

رجل دين في مدينة ريجنزبورج بالقرن الثاني عشر، يقال إنه ترجم حوالي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م أغنية رولاند Rolandslied إلى اللغة الألمانية الخاصة بالعصور الوسطى Mittelhochdeutsch.

---

(١) ويرجع إلى رسائله بالعهد الجديد.

(٢) انظر أيضًا أعمال الرسل ٩: ١ -١٩، ٢٢: ٣ -٢١، ٢٦: ٩ - ٢٣.

١٧) رثاء الأندلس:

لم أجد هذه الرسالة باللغة العربية، ولكنني وجدت إشارة إليها أيضًا عند الأستاذ دكتور الطاهر مكي في كتابه «الفن العربي في إسبانيا وصقلية»[(١)].

يقول: «وهذه القصيدة تهدف إلى استمالة المسلمين في شمال إفريقية، ومثلها الرسالة التي تطلب المساعدة مباشرة، واكتشفها جواسيس الحكومة الإسبانية مع شخص يدعى ابن داود، عندما أراد أن يعبر إلى الشاطئ الآخر من البحر الأبيض المتوسط، والموقف اليائس ....».

وينقل سيادته عن خوان باليرا: «يشير مرمول إلى أن لونسودل كاستي ترجم هذه الأبيات، ورسالة معها، ويفهم منها أن ما قيل عن ثورة الموريسكيين، وكان على المورسكي ابن داود أن يحمل الرسالة والشعر إلى بلاد البربر، ويطلب المساعدة من المسلمين فيها. ولكنه اعتقل في أدره، ووجدوا هذه الأوراق معه، وقد أرسل المركيز مونديجو هذه الأوراق وترجمة لها إلى الملك».

وننقل منها: «وما أكثر الأشخاص الذين يتعرضون للمضايقة من الكافرين، أيدعوننا بالنواقيس لنعبد الصور والتماثيل، ويأمروننا بأن نطيع شريعتهم المثيرة لنا، وأن نذهب إلى الكنيسة حيث يجتمعون، ويقف أحد الوعاظ، ويتحدث عن الخمر ولحم الخنزير في صوت كنباح الكلب، ويقيمون القداس وهم يشربون النبيذ، وتستمع إليه يقول في تواضع: هذه هي الشريعة الصالحة، وستعرف فيما بعد أن رئيس الكنيسة وأعظمهم تقديسًا لا يعرف الحلال من الحرام».

---

(١) الذي ترجمه عن كتاب فون شاك: A. Fr.v. Schack, Poesisie und Kunst der Arab in Spanien und Sicilien الطبعة الثانية ١٩٨٥، صفحة ١٣٦ «الشعر والفن عند العرب بإسبانيا وصقلية».

«لقد نقضوا الشريعة بلا سبب، ويعبدون التماثيل وهم جالسون ويصومون شهرًا ونصف وصومهم كصوم البقر، فهم يأكلون في منتصف النهار، ولنتحدث إلى قسيس «الاعتراف»، وبعد ذلك إلى قسيس «القربان»، وبهذا تتم شريعة الكافرين. ومن الضروري أن نقوم بهذا لأنه يوجد بينهم قضاة قساة يأخذون مزارع المسلمين، ويجزونهم كما يجز القصاص القطيع، وآخرون بينهم يفحصون ويتمنعون ويستبعدون كل القوانين. وما أكثر الذين يأخذون الأمر على عاتقهم، ويعملون بما يحمله لهم الجواسيس... وليس بوسع المرء منا أن يشكر الله بلغته دون أن يفلت منهم، وسوف يكون مآله الضياع أو عندما تتاح لهم الفرصة سوف يرسلون الدليل وراءه، وسوف يجده ويعتقله حتى لو كان على ألف فرسخ. ويلقون به في السجن الكبير ويعذبونه ليلاً ونهارًا قائلين له: تذكر! ويبقى المسكين مفكرًا، والدموع تملأ عينيه، ومن قيد إلى قيد يقول له: تذكر! وليس له من قوت إلا الصبر، ولا يستطيع أمهر سباح أن يخرج منها سالمًا، لأنه في بحر لا ساحل له.

ومن هنا يحملونه إلى غرفة التعذيب، ويقيدونه ليعذبوه، ويظلون يعذبونه حتى يفتتوا عظامه، وبعد هذا يعدون حفلة موسيقية في ميدان الحطابين Hatabin ثم يقيمون منصة تشبه القضاء، ومن سيطلق سراحه يلبسونه رداء أصفر، أما الآخرون فيحملونهم إلى النار مع تماثيل وصور مرعبة. ولقد أدخل علينا هذا العدو الغم بأساليب مريعة، وأحاط بنا كالنار من كل جوانبنا، و نحن نعاني من القهر والظلم على نحو لا يطاق ولا يحتمل».

الفصل الثالث

١- شارل مارتل[١] منقذ الغرب؟!

في عام ٧٣٢م (١١٤هـ) اندفع العرب بقيادة عبد الرحمن قادمين من إسبانيا عبر جبال البرانس إلى أكويتانين Aquitanien[٢] وهزموا إيدو Eudo (دوق أكويتانين) وخربوا الأراضي الإفرنجية وأتوا على كل أخضر ويابس بالنار والسيف، حتى وصلوا إلى ضواحي تور Tours[٣]. وكان المهم آنذاك معرفة لمن تكون السيطرة على أوربا، هل تكون للمنشأة المسيحية الجرمانية وتمدنها أم للإسلام، للصليب أم للهلال. كانت المصيبة طامة وكان العناء شديدًا، وجحافل العرب تعصى على العد.

ثم التقى الجمعان بين تور وبواتييه Poitiers، ودامت المعركة يومًا كاملاً. ولكن شارل سحقهم- كأنه مطرقة- بحشد من جيوشه من النمساويين الأشداء المدربين تدريبًا عاليًا، وانضم إليهم جنود من تورنجن Thüringen، وألمان، وبافاريون، وكذلك لومبارديون، وواجه بهم المعتدين المسلمين، فتوقف زحفهم بما أبداه شارل وجنوده الفرنجة من بسالة، وانكسروا أمام هذا الحصن المنيع. وسقط عبد الرحمن [الغافقي] صريعًا وحوله - فيما قيل - ثلاثمائة وخمسة وسبعون ألف عربي، وفرّ الآخرون. وبهذا نجت أوربا، وتوج شارل بطلاً مسيحيًا للمسيحيين[*].

هكذا كان التقرير المتداول عن أحداث القرن الثامن منذ أكثر من ألف عام،

(*) Ludwig Stacke, Deutsche Geschichte, 1880, I 149.

وقد استعاده الناس الآن بمناسبة مرور ألف ومائتي عام على هذه الخرافة المهابة عن المعركة المصيرية التي أنقذت أوربا من العرب. هؤلاء العرب الذين فُرض عليهم، بل تم إلزامهم بالقيام بواجب مقدس بنشر تعاليم النبي حتى لو كان ذلك بالسيف، كما جاء في صحيفة ألمانية يومية يوم ١٦ من أكتوبر سنة ١٩٨٢ إحياءً لذكرى هذه المعركة، التي كتبت عنها:

«العبارات الملتهبة التي تطلقها جميع المساجد بإسبانيا عن ضرورة محاربة أعداء الله» بأمر من عبد الرحمن عامل الخليفة، «وتنفيذًا لخطتهِ الحربية الجبارة، فلم يكن يهدف إلى الاستيلاء على بلاد الغال (فرنسا) ويتوغل في أوربا فحسب، وإنما أراد أيضًا أن يواصل الزحف بجيوشه شرقًا حتى يصل إلى أطراف خلافته في آسيا». فيا لهذا من تأريخ خيالي.

ويتبين ذلك في الكتب المدرسية؛ إذ ورد بأحدها «لقد حمى قارتنا بأكملها من خطر الوقوع تحت سيطرة جيش غريب من أصل سامي». ويتجاسر هذا الكتاب المدرسي أن يشغل مخيلة صغار التلاميذ بتصوير مجسد لهذا الخطر المزعوم الذي كان على وشك العصف بأوربا بجحافل من المحاربين الهمج مدججين بالسيوف، سود البشرة، يطأون بسنابك خيلهم كل كائن يعترض طريقهم(*).

وقد تشابهت كتابات رهبان العصور الوسطى الذين تصدوا لكتابة تاريخ هذه الحقبة وكانوا يريدون تمجيد المسيحية بقتل أعداد فلكية من الأعداء. اشترك الرهبان مع المؤرخين في نشر ما كان هؤلاء العرب يفعلونه من سرقة كنوز

(*) Volkwerdung der Deutschen, Geschichtsbuch für höhere Schulen, Klasse 2, Teubner Leipzig, S.111 ff.

الكنيسة في تور أو مجرد التخريب أو إعطاء الأحداث أبعادًا توحي بأن ثمة «هانيبال» جديد يسعى لارتكاب مذبحة كاناي Cannae[٤] جديدة تفنى بها الحضارة المسيحية، أو مثل قبائل الهون Hunnen التي غزا فيها أتيلا Attila ملك الهون[٥] أوربا بهدف القضاء على الحضارة المسيحية، وحتى يعتنقوا دين محمد.

ولكن ما صلة هذا بالحقيقة التاريخية؟

بعد عبور طارق بن زياد[٦] القائد البربري مضيق جبل طارق الذي حمل اسمه وقعت موقعة وادي بكة (وهى تسمية عربية نسبة إلى بلدة صغيرة بهذا الاسم، ويطلق عليها خطأ اسم أكزيروس دي لا فرونتيرا Xeres de la Frontera) زالت مملكة القوط الغربية[٧] التي وصلت إلى أقصى درجات ضعفها وخضعت إسبانيا للإسلام. وسرعان ما دبت الغيرة بين الفاتحين البربر والجيوش العربية والقبائل؛ إذ كانوا يصفونهم بأنهم مهملون، وارتد زعيمهم موناسّا Munassa عن الإسلام، وفرّ إلى الشمال ملتحقًا بالدوق إيدو Herzog Eudo von Aquitanien وتزوج ابنته. أما الوالي عبد الرحمن بن عبد الله [الغافقي] الذي عينه الخليفة الأموي[٨] بدمشق بدلاً منه، فقد تعقب موناسّا الخائن عبر جبال البرانس وتغلب عليه وقتله، وهزم الدوق إيدو في موقعة بين جارونا Garonne، ودوردوجني Dordogne[٩]، وتعقبه في طريقه إلى بواتييه[١٠] Poitiers. وعندما تعدّى بواتييه، ووصل إلى نيري Niré خرج عليه يوم ١١ من أكتوبر سنة ٧٣٢م/ ١١٤هـ شارل مارتل والدوق إيدو الذي اتحد مع حلفائه من الأسر المالكة الحاكمة من الفرنكن، والتقى بعناصر من الجيش النمساوي. وسقط

عبدالرحمن قتيلاً، وانسحب حملة أقواسه،ونباله من ساحة المعركة ليلاً. ولا يعني هذا أن المسلمين (Sarazenen) اختفوا من جنوب فرنسا على الإطلاق كما تشاع خرافة إبادتهم، فقد استقروا أكثر من عشرين عامًا بعد ذلك في منطقة بروفانس جنوب فرنسا Provence، وفى نربون[١١] Narbonne، وكركسون Carcassonne، ونيمس Nimes، وقد حاربهم شارل مارتل بعد ذلك ثلاث مرات، كانت الحرب بينهم سجالاً، ولم يتمكن خلفاؤه من التغلب على العرب، وغزوا المدن التي أحكموا تحصينها ولم يتمكنوا من ردهم إلى ما وراء جبال البرانس إلا بعد معارك دامت أكثر من مائة عام. ولم يهتم شارل مارتل نفسه، وكذلك مؤرخو عصره بالحديث عن معاركه ضد العرب مثل الاهتمام بالحديث عن إخضاع أهل الفريزن Friesen وسكسونيا Sachsen، والألمان Alemannen.

وعندما أراد القيصر لودفيج الصالح[١٢] Kaiser Ludwig تخليد أعمال أجداده، أمر بتصوير إخضاع جده الأكبر للفريزيين على جدران قصر إنجلهايم Ingelheim، ومن ثم أطلق عليه اللقب المشرف «المطرقة» باعتباره أعظم عمل قام به.

ولكن عندما أطلقت على شارل مارتل ألقاب مثل «بطل المسيحية»، «ومنقذ الغرب» احتفالاً به، كما أطلق عليه من دعايات الحروب الصليبية فيما بعد تمجيدًا لبطولته، فإنهم بذلك أهملوا أعماله بالنسبة للشئون الدينية وصلته بالعقيدة. وقد أثير قبل ذلك نقد لاذع ضده لأن الكنيسة لم تر في الذي انتصر في موقعة بواتييه Poitiers (أي شارل مارتل) راعيًا للكنيسة وحاميًا لها، بل حكمت عليه بأنه لص كنائس؛ لأنه نهب الكنائس والأديرة والأراضي وكنوز الكنيسة، كي يموّن جيوشه الجديدة ويسلحها، ومنح قواده الإقطاعيات، ومن

ثم أهملت قبره، وتركته خاليًا متفحمًا، مستنزلة عليه اللعنات، داعية عليه بأن تسوقه الزبانية إلى جهنم.

وفضلاً عن ذلك لم يُعرف آنذاك ما يسمى الآن «بالغرب المسيحي». ولعل هذا تقرر في عام ٧٣٢م - وليس قبله - حيث شاع الخيار بين المسيحية والإسلام؟ وتردد السؤال حول ما إذا كانت السيادة في غرب أوربا أصبحت لمذهب ديني مرتبط بروما أو بمذهب لا يرتبط بها؟ ولم يتم البت في هذا الأمر في عام ٧٣٢م. وتُرك معلقًا.

وقد أرسل البابا جريجور الثالث Gregor III[١٣] - وكان سوريًا- مبعوثه بونيفاتيوس Bonifatius (الأنجلوساكسونى) إلى الفرنجة القاطنين بالضفة اليمنى من نهر الراين، وإلى هسن Hessen، وتورنجن Thüringen لتصل شكواه المرة من كل مكان إلى روما عن «القلوب المتحجرة التي لا تعرف الرحمة، وما زالت حبيسة تهيم في غياهب الغابات الألمانية المظلمة في ضلالة الكفر الذي يغويهم به الشيطان حتى الموت، ويأبون الامتثال للكاثوليكية والخضوع لرب غريب عنهم»[*].

ولا يمكن التكهن بها إذا كانت النتيجة ستصبح أحسن حالاً أم أسوأ حالاً إذا تغير مجرى الأحداث في أوربا، هل كانت ستسعد أم ستشقى؟ ولكن التاريخ لا يعرف «إذا، ولكن»، وإنما يعرف الحقائق فحسب، وإن كان المؤرخون لا يزالون حتى الآن[**] يرددون هذا التساؤل ويطرحون إجابات متميزة تعبر

(*) Sigrid Hunke, Vom Untergang des Abendlandes zum Aufgang Europas, Horizonte 1989, S. 73.
(**) Rolf Palm, Die Sarazenen 1978, S. 260 ff.

عن وجهة نظر المسيحية الغربية في كل كلمة يدعونها ويجزمون بأنها الحقيقة، ولكن بلا دليل. ومن ثم يجب أن يعيدوا التأمل والنظر في مزاعمهم. ولا يخلو أي كتاب تاريخي من تقرير أهمية هذه المعركة وأن يعدها «موقعة حاسمة أنقذت المسيحية، والحضارة المسيحية وعقيدتها»(*). وهذا كله لم يكن له وجود آنذاك، على حين لم تخلُ عصور التبشير بالمسيحية وبعدها أيضًا من العنف المخيف، إلا أن الزعم بأن هذه المعركة صانت المسيحية من إبادة الإسلام، وصانت أوربا من صبغها بالصبغة الشرقية السامية، وحفظت الحضارة الأوربية من الاندثار والفناء، غير صحيح.

ولم يُعْنَ أحد - فضلاً عن ذلك- بالتفكير في العواقب الحتمية للإرغام الجماعي على التعميد وذبح الآلاف الذين يرفضون ذلك(**). ولم يهتم أحد أيضًا بالتعدي الوحشي على حقوق الإنسان بالاغتصاب الجسدي والنفسي لمحو ديانات السكان الأصليين من رؤوسهم، وزرع ديانة غريبة عنهم بدلاً منها(***). ومَن مِن هؤلاء المؤرخين تبين أن رسالة روما التي كان المبعوث البابوي بونيفاتيوس Bonifatius يبشر بها، هي التحول من الصبغة الشرقية إلى الثنائية الغربية، إنما هي محاولة لتحويل صورة الإنسان إلى الصورة الساميَّة الآثمة، وجعله يعتقد بأنه ضعيف وفى حاجة إلى من يخلصه ويذكره بطبيعته الخاطئة؟

(*) Eine entschiedene Ausnahme bildet Ernst Samhaber, Weltgeschichtliche Zusammenhänge, 1976, S. 133, der die angebliche, Rettung des Abendlandes, in Zweifel setzt.

(**) Sigrid Hunke, Vom Untergang des Abendlandes zum Aufgang Europas, a. a. O., III Kap. Zerstörung der Identität, S. 73 -105.

(***) Sigrid Hunke, 11 Kap. Ursprung und Wesen europäischer Identität, Die Lebensmitte, S.57. ff.

مَن مِن هؤلاء المؤرخين الذين احتفلوا بالنصر المسيحي «وانتصار القيم المسيحية والكرامة الإنسانية» في الصراع المزعوم بين عالمين (العالم الإسلامي والعالم المسيحي الغربي) يعرف كم من الدموع التي سكبتها النساء الذليلات يومًا - بسبب اعتبارهن باعثات للخطيئة وأمهات المعصية- لأنهن أجبرن بعنف على الخضوع لسيادة الرجل(*)، وكم دمعة ذرفتها طوال خمسة عشر قرنًا كن فيها هدفًا لصفعات الرجل؟ وكم من النساء أحرقن في كومة من الخشب لاتهامهن بأنهن ساحرات؟

بل وكم عدد المؤمنين والمؤمنات الذين درسوا الدين بإرادتهم الحرة وتيقنوا من إيمانهم(**)، فطردوا، وعذبوا، أو قتلوا؟ وكم باحث وعالم(***) اعترضوا على ما ورد بالإنجيل فقتلوا؟ وكم عدد الذين ذبحوا وسفكت دماؤهم في الحروب الدينية لاعتناقهم أديانًا مخالفة؟ وكم يساوى الحقد الذي يجعل المسيحيين يعتقدون أن الأخذ بالثأر لصلب عيسى عليه السلام يحضهم على اضطهاد اليهود؟(****).

وليس شك في أن تاريخ الغرب نفسه يحمل البراهين المضادة الدامغة التي تدل على بطلان ما ألصقه المؤرخون بالإسلام زورًا وبهتانًا من أنه يهدد الإنسانية والحضارة. وثمة مثال فريد معاصر لهذه الأحداث يمكن أن يذكر في هذا

(*) Sigrid Hunke, Am Anfang waren Mann und Frau 1953 / 1987, S. 133 – 227.

(**) Hunke, Europas andere Religion, 1969.

(***) Sigrid Hunke, Glauben und Wissen – Die Einheit europäischer Religion und Naturwissenschaft, 1979, S. 17 ff.

(****) يقدم مارتن لوثر أقوى مثال على ذلك.

العصر، وهو ما يمكن أن يكون الوجه المشرق لهذه العملة المظلمة التي يتحدثون عنها، وهو الحقبة غير القصيرة التي امتدت على مدى قرون سبعة أو ثمانية بإسبانيا عندما كانت تنعم بحكم العرب.

٢- البرهان المضاد..

إسبانيا العربية

تعد إسبانيا مثالاً للسماحة الدينية أيام كانت تحت الحكم العربي، فلم يتم استئصالها أو استبعادها طوال ما يقترب من ثمانية قرون. على حين أن أوربا المسيحية الكاثوليكية «باعتبار الكاثوليكية الدين الوحيد المخلّص» على الجانب المقابل من جبال البرانس، قضت قضاءً تامًا على كل دين آخر يتجاسر على الظهور إلى جانب المذهب الكاثوليكي، واتبعت سياسة التفرقة الصارمة في معاملة غير المسيحيين. ويبين هذا المثال (الأندلسي) أيضًا أن اليهودية نعمت أيام الحكم العربي، لأنهم ذميون من أهل الكتاب، في حين تعرض المسلمون للطرد من إسبانيا عندما استردها المسيحيون بعد ذلك، وتعرضوا أيضًا لأقسى أنواع الاضطهاد. وكذلك تعرض اليهود آنذاك لاضطهاد المسيحيين، لأنهم حَمَّلوهم وزر موت المسيح. واضطهدهم المسيحيون منذ أيام الحروب الصليبية، عكس ما كانت أحوالهم أيام الحكم الإسلامي الذي تمتعوا في ظله لأول مرة - منذ تشريدهم - بالحرية والاستقلال، حتى طردوا وشتتوا بعد عودة إسبانيا إلى المسيحية.

ويبين مثال إسبانيا أيضًا أنها كانت فقيرة خربة ومستعبدة قبل الحكم العربي، ثم كُتب لها الازدهار بعد مائتي سنة فقط من الحكم العربي، فقد ارتفع مستوى الشعب بالعناية بتربية جميع طبقاته، كما حظيت بمستوى ثقافي وعلمي وارتقت فيها جميع الفنون. بعد أن كانت في قمة البلدان الأوربية التي تعاني

التخلف نتيجة معاداة الكنيسة للفكر، فأبقت العالم المسيحي عقيمًا. واستمرت الأندلس طوال قرون خمسة (تالية للقرنين سالفي الذكر) رائدة في شتى المجالات بلا منازع، حتى قوض هذا كله عندما أصبحت إسبانيا مسيحية.

ويدين ازدهار الثقافة في إسبانيا العربية للسماحة العربية الفائقة التي عمت القارة، وعلى الضد من هذا كان اضطهاد إيزيدور Isidor[١٤] لليهود والمارقين إبان عصر القوط الغربيين، فقد تعاون كل المفكرين معًا في تناسق مثمر دون أدنى تفرقة بينهم أو تصنيف لهم. كانوا يعملون جميعًا عربًا وقوطًا، ومصريين، وبربر، وسوريين، وفرس، وأيبيريين (في شبه الجزيرة الأيبيرية). وكان معظمهم مسلمين، وإن وجد بينهم، وبلا قيود، مسيحيون ويهود أيضًا.

كانت هذه هي السماحة الدينية الإسلامية التي كان المسلمون يعبرون عنها عن طيب خاطر، فيتقبلون وجود المسيحية دون أي مطالب. وكان لذلك صدى غريب عند بعض المسيحيين، ففتنتهم وجعلتهم يأتون بأفعال تصل إلى التعصب للاستشهاد.

ونجد مثالاً آخر في كاتب مسيحي شاب كان يعمل في بلاط الخليفة بقرطبة، فقرر أن يلتحق بأحد الأديرة ويطلب إجراء حديث مع قاضي قضاة المملكة باعتباره راهبًا يزعم رغبته في اعتناق الإسلام، فلما أذن له، بادر الراهب الشاب بالنيل من الإسلام، ووصف نبيه بأنه مخادع غشاش خبيث. وعبثًا حاول القاضي السمح أن يصرف الشاب المتعصب عن شتائمه، وأن ينقذه من عقوبة القتل بزعم أنه مصاب بلوثة، ولم يكن الشاب المسيحي يتصور مطلقًا أن ثمة قاضيًا مسلمًا يسعى لإنقاذ من لا يدين بغير دينه.

وعلى أثر ذلك دعا الخليفة الحكيم إلى عقد مؤتمر كنسي يجمع الأساقفة ليقرر أمامهم أن مثل هذه الدعوة الاستفزازية المتعمدة للاستشهاد – التي أصبحت فجأة بدعة آنذاك- تعد مجرد حمية وتعصب لا تستحق العقاب(*).

تعتبر الحضارة والثقافة العربية التي ازدهرت في أوربا(**) ظاهرة مذهلة، فهي ليست إلا امتدادًا لبقايا قديمة لحضارات غابرة أو تقليدًا مهذبًا لحضارة رشيقة لها أهميتها الخاصة. والحضارة الحالية ليست تقليدًا كان موجودًا كما حدث في بلدان الحضارات الشرقية القديمة؛ إذ إن التربة التي نبتت بها فجأة أغصان الحضارة وبراعمها أيام العرب، أصبحت عقيمة لم تجد من يرعاها بعد زوال المملكة العربية على مدى التاريخ حتى الآن؛ إذ لم تتعهدها أية قوى حضارية تستحق الذكر.

أبدع العرب هذه الروعة الحضارية الفريدة من العدم. فمن فراديس (جنات) معمارية، إلى مغنين وشعراء وعلماء، وخدود نسائية تعد فراديس نسج الغرب عنها أغرب صور مبتدعة، وكأنها صور شيطانية غير إنسانية، تفتقد أي معرفة أو أدنى تخيل عن العرب، بعد أن كانت الطاقة الفكرية العربية الخلاقة التي احتشدت لها أجناس مختلفة الأصول ومن مختلف العصور، طاقة تتجسد في إيقاع رائع وتكوين معماري خلاق في المسجد الكبير بقرطبة.

وثمة مثال آخر يمكن أن يدلل على حسن معاملة المسلمين لرعاياهم من غير المسلمين، فحين يقال إن في هذا المكان كانت تقف كنيسة، فالحقيقة أن

(*) Titus Burckhardt, Die maurische Kultur in Spanien, 1970, S.29.
(**) Sigrid Hunke, Allahs Sonne über dem Abendland, a. a. O., VII.Kap. «Andalusische Arabesken» S. 275 – 346.

الخليفة كان يحرص على أن يدفع للجالية المسيحية ثمنًا مجزيًا عوضًا عن كنيسة قديمة، بدلاً من أن تصفى ممتلكاتهم، وحتى يتمكن المسيحيون من بناء كنائس جديدة بدلاً منها. وعندما أراد الخليفة بناء مسجد مكانها أمر بهدم المبنى القديم لتستخدم أحجاره الضخمة وعمدانه الأثرية من الطراز الفارسي والعربي ، مستعينًا بالأساليب العربية في بناء المسجد، وفقًا للطراز المعماري العربي. وبعد زمن ليس بالقصير أقيمت غابة من الأعمدة مختلفة الأنواع، وتحمل أقواسًا مستديرة (القباب المستديرة) يعلق فوقها ما يشبه حدوة الحصان (الهلال) مع تناغم متناسق ودقيق في البناء بالحجارة الحمراء والبيضاء في فضاء غير محدود. واستخدم الأرابيسك الرائع في صناعة المحاريب.

وعلى الرغم من اختلاف المصادر التي جلبت منها عناصر البناء، جاء المبنى متجانسًا، وليس كالثوب المليء بالرقع كما قد يتصور المرء، بل أكثر من ذلك فإننا عندما نقارن أوزان القصيدة الشعرية واستخدامها للقافية يتضح أن طراز المسجد كان يحاكي القصيدة العربية، ويدل على ذلك أيضًا أن الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية لم تستطع التخلص من الطراز العربي.

وبالنسبة لقطاع المعمار المزدهر في المدن: قرطبة، وطليطلة، وغرناطة، وإشبيلية، فإنه من إبداع الطاقة الخلاقة لهذا الشعب العربي فوق كل الأراضي الأندلسية بطريقة هندسية بديعة.

ولم ينحصر نشاط العرب في العناية بالحقول التي لم تعرف العناية الكاملة قبلهم، بل امتد نشاطهم إلى التربة القاحلة الجدباء، والهضاب الصخرية الواقعة بوسط وشمال شبه جزيرة أيبيريا حيث استطاعوا استصلاحها بفضل خبرتهم

طوال مئات السنين في حفر الآبار لري الجزء الشرقي من وسط الألب Norias باستخدام النواعير الضخمة، وإقامة السدود العملاقة، والرش بالتنقيط، والقنوات، فاخضرت السهول، وامتلأت الحدائق بأثمار العديد من الفواكه بوفرة غزيرة، وحولها حقول القمح التي تحصد ثلاث مرات أو أربعة كل عام.

جاء العرب بخبراتهم المشرقية في تربية الحيوانات مثل الخيل المدربة، والبغال والبقر، وكانوا أول من أجرى عمليات التلقيح الصناعي على الحيوانات.

اكتشفوا مناجم لم يقترب منها أحد منذ آلاف السنين، واستخرجوا الحديد والنحاس والقصدير، والزئبق، مستخدمين طرقهم التجارية القديمة إلى الشرق الأقصى عبر بغداد أو الإسكندرية إلى الهند والصين، واستخدمت الطرق في نقل البضائع النفيسة، والمواد الخام، ومرور الإرساليات، ونقل الأخبار، التي كان يقوم بنقلها وكلاء الأمير المثقف الحكم الأندلسي الذي بحث في كل المملكة عن المؤلفين المشهورين في كل المراكز العلمية المهمة، وكان يشترى مخطوطاتهم الجديدة، وغالبًا قبل أن تكتمل، لينسخها النساخ المجيدون. وقد امتلأت بها رفوف المساجد والمدراس والمكتبات العامة التي تربو على العشرين مكتبة، وكذلك صناديق باعة الكتب بسوق الوراقين.

أما في شمال جبال البرانس فقد كانت الكتب في وقت ما تربط في الأديرة بالسلاسل لندرتها، بينما كان رجال الدين آنذاك يعتبرون «طلب العلم والمعرفة بعد نزول الإنجيل كفر بالله» مثلما زعم ترتوليان[١٥] Tertullian، و أوغسطين Augustinus اللذان لعنا «مرض حب الاستطلاع» باعتباره «من أخطر

صور الضلال (الغواية)»،ويستحق المرء من أجله المطاردة والتعذيب.

كانت سمعة المدراس العليا بإسبانيا العربية (المورية) maurischen Spanien في البيئات المتعطشة للعلم التي افتتحها العرب، تجذب أفضل الباحثين والعلماء من كل فروع العلم، فتجمعوا في رحاب الجامعات الأندلسية المشهورة، التي خرجت من عباءتها بعد ذلك دراسات مترجمة إلى اللغة اللاتينية، ومنها ما أنجزته مدرسة طليطلة للترجمة[١٦] التي طبقت شهرتها آفاق العالم، فعرّفت بأعظم الدراسات مختلفة التخصصات لعلماء عظام على مستوى عالمي في مختلف الميادين العلمية[١٧] مثل: أبو القاسم، وابن زهر، وابن رشد، وابن الطفيل، وأبو مروان، وابن الخطيب والبِطروجى وابن البيطار، وابن فرناس، وابن خلدون، وعلى الرجال، وجابر بن الأفلح، وغيرهم من الأعلام الذين أثروا الغرب الفقير، وزودوه بنفحة قوية، وأمدوه بطاقة فوارة[*].

كذلك كان المغنون الأندلسيون الذين جذبتهم شهرة الأندلس الفائقة من كل البلدان العربية، فتجمعوا في بلاط الخليفة في قرطبة، ومنهم زرياب الموسيقي المطرب الذي كان الكوكب الساطع في الحياة الاجتماعية والتربية الفنية الموسيقية في بلاط الدولة، وشاع ما يتغنى به في البلاد كلها.

ففي الأندلس بُعثت كل فنون الغناء العربية التي عرفت في المشرق، سواء في مكة، أو في دمشق، أو في البصرة، أو في بغداد. وبعثت معها المواهب العالية في فنون الشعر، وازدهرت في الأندلس مرة أخرى، بعد أن كادت تنقرض لاكتساح المغول الذين طردت أصوات هجماتهم الرتيبة سحر نغمات التقاسيم السورية،

(*) Sigrid Hunke, Glauben und Wissen, a. a.O., S. 105- 277.

فانبثقت بالأندلس ينابيع الألحان والنغمات المصطبغة بالطابع الأندلسي في اتحاد مع الشعر المقفى ذي الطابع الخاص، وفى اتساق فاتن بفيض غامر، فبدت وكأنها الوسيلة الطبيعية للتعبير عند الأندلسيين، وتجلى طربهم في الاختيار الأنيق للألفاظ، والإيقاع المعبر، والقافية الموفقة. وكان هذا كله يملك عليهم مشاعرهم علوًا وانخفاضًا، ويمتعهم في مسامراتهم.

٣- الفنون العربية الأندلسية تعبر الحدود

كان شعر النسيب والغزل من أعظم الفنون التي ازدهرت في ميدان الثقافة العربية. وشعر ذلك الفن هو الذي كان له مكانة عالية في حياة القبائل العربية قديمًا، وما زالت له المكانة نفسها عند الطوارق[١٨] حتى اليوم. وهو الفن الذي حظي بمنزلة رفيعة في بلاط الأمراء ببغداد، على أن أوج ازدهاره كان بالأندلس. ويختص فن شعر النسيب والغزل أساسًا بوصف العلاقة بين الرجل والمرأة. وسوف نعود إلى مناقشة هذه العلاقة في الفصل القادم عند الحديث عن المرأة العربية.

وقد نظم الأمير الحكم الأول الأندلسي الذي بلغت به سَورة الميل إلى ظبيات حريمه، كمن أذله الحب هذه السطور:

استعبدتني أنا الحاكم الذي تخضع قراراته للحب

مثل أسير مقيد بالسلاسل

إذ فرطُ الهوى جعله عبدًا،

ولو أنه ملك جبار

... ...

وأَحَبُّ إليه أن يلصق خده ذليلاً بالأرض

من أن يفترش سريرًا من حرير

وليس أذل من سلوك الرجل الحر،

إذا أصبح عبدًا لمحبوبة(*)

وقد حدث فيما بعد ما كان يبدو بعيد الاحتمال، كما لو كان الغرب قد هب في صمت من سباته العميق الذي دام قرونًا طويلة؛ إذ بدأ يظهر في إقليم بروڤانس Provence شعر الغزل العربي الذي نما في الريف الفرنسي منبعثًا من الأسرى العرب، وسرعان ما غزا بسحره شمال إمبراطورية الفرنجة Nordfrankreich، واقتحم بعد ذلك جنوب ألمانيا والنمسا في طريقه.

وكان في هذا أخذ بالثأر للأندلس بعد موقعة تور- بواتييه. وبعد مضي ٣٣٣ عامًا على هذه الموقعة التي هَزَم فيها شارل مارتل الجيش العربي وقائده عبدالرحمن الغافقى، غزا الغرب هذا الكائن الساحر، ألا وهو شعر الغزل.

وقام بهذا الغزو جيش من المغنيات السبايا العربيات، ومن الراقصات اللاتي أحضرهن دوق أكويتانين Herzog von Aquitanien، وكونت بواتييه Graf von Poitiers عام ١٠٦٥م من الحملة الصليبية البابوية التي انتصرت على حصن بارباسترو Barbastro العربي الحصين.

وليس غريبًا أن يغرم ابنه الشاب الدوق فيلهلم التاسع(١٩) Herzog Wilhelm IX. دوق بواتييه منذ صباه بالتقاسيم الموسيقية على العود وبأغاني الغزل التي تأسر سمعه. وقد صاهر العديد من الأمراء العرب، واعتبروه من أعظم رجال البلاط، وأكبر غاوٍ للنساء.

كان فارسًا شجاعًا في الحروب ؛ بارعًا في أمور الحب.

(*) Sigrid Hunke, Allahs Sonne, a. a. O. S. 326 f. – Dies., Am Anfang waren Mann und Frau, a. a. O., S. 30.

سقط فيلهلِم التاسع أسير غزو الروح العربية، وكان أول شعراء التروبادور[٢٠] (شعر الغزل) جمع حوله باقة كبيرة من الشعراء والمغنين الذين شُغلوا بالغزل باعتباره فنًا اجتماعيًا لمسامرة بلاط الملوك.

وقد أصبح ما كان العرب يعدونه موضوعًا له معانيه الجادة تقليعة جديدة (موضة Mode)[*] للعبة متظرفة، وتؤكد الأبيات التالية قواعد هذه اللعبة:

«مِلكُكِ أنا يا سيدتي

مستعدٌ دائما لخدمتك

وأَحِنٌ دائمًا

لأكون بجوارك، عبدًا ذليلاً

أركع أمامك ملتمسًا رحمتك»

أحدثت الريح التي هبت من فرنسا إلى ألمانيا انقلابًا -كان زوبعة تنتزع أصول كل ما كان موجودًا لتقلبه رأسًا على عقب- كان تأثيره مختلفًا وغريبًا؛ إذ لم تكن الكلمات موجهة لأي فتاة شابة، وإنما لسيدة متزوجة؛ وليست الزوجة الحقيقية، ولكنها زوجة رجل آخر. حدث كل هذا بعد أن كانت الكنيسة والمجتمع الكنسي يفرضان على المرأة - باعتبارها بنت حواء المذنبة — أن تكون الخادمة المطيعة لزوجها وسيدها، عليها أن تطيع أمره وتخضع لإرادته ذليلة.

ولكنها بدت وفقًا للصورة المثالية بحاشية الملوك أمام عاشقها الفارس الذي يركع أمامها ذليلاً يضع نفسه في خدمتها، ويخضع مطيعًا لها، في حين تقف

(*) Ebd. S. 164 ff, 333f.

أمامه السيدة المثالية التي تضن عليه بفضلها:

«طردتني أنثى من رحمتها

تلك التي داومتُ على خدمتها» (MF 206,103)

هذه هي شكوى هارتمان فون أوى[٢١] Hartmann von Aue حينما نصحه هاينريش فون مورنجن Heinrich von Morungen بالآتي:

«حكيمٌ من يقدمُ خدمته

لمن يحسنُ تقديرَها

ومن يتجهُ آمنًا

إلى حيث من يرحمه (MF 134,14)

على حين يؤكد راينمر فون هاجيناو Reinmar von Hagenau

«مثلما أصبحت خاضعًا لها

أخشى أن أفقد عطفَها

سعيدٌ أنا بأن أكون خادمًا لها

حتى إذا كانت شحيحةً في مكافأتي

لعلها تصدِّقني عندما أشكو لها ما أعاني

وما أتحمله في صدري من ذنبها» (MF 159, 28)

والحق أن هذا النمط المحتذي للغزل العربي لم يظهر في ثوبه الأصلي، بل ظهر عندنا في ثوب البروفنس الفرنسي في صورة متغيرة خداعة، وبنمط مقيت

مثير لكثير من النقد والرفض إذ إن هذا تحديد للغزل وقصر له على زوجة رجل آخر، في حين تمارس الزوجة الفاضلة الولهانة خضوعها جاريةً ذليلة لزوجها، وفارسها المدلل في قلعته الخاصة.

سقطت ألمانيا في حيرة شديدة، وشكت النساء من أنهن لم يستطعن أن يأمنَّ كلام الفارس المعسول، وأنهن وقعن في شراك أكاذيبه. أما الرجال الذين أخطأوا فَهُم خدم النساء سواء أكان هذا في البداية، أو أنهم أول الأمر لم يكونوا جادين في سلوكهم، أو أنهم أزعجوهن بخضوعهم أو بغرورهم المبالغ فيه.

ولما كانت مجرد المخاطبة غير مسموح بها فقد حرض شعراء الميني زانج الألمان ضد محاكاة الشعر الغربي للشعر العربي وازدادوا حنقًا عليها، ومن ثم جاءت شكوى فالتر فون دير فوجل فايدى[٢١] Walther von der Vogelweide

«الغزل لا ينفرد به واحد

ينبغي أن يكون مشتركًا

مشتركًا بحيث يكون

في قلبين اثنين

ولكن ليس أكثر من قلبين».

وعندما تعلم الألمان أن التغزل يمكن أن يكفل كتمان الشعور الداخلي نفسه، ويمكّن من التحكم في المشاعر الشخصية، اتضحت هذه المعرفة لديهم، وأثرت فيهم الصورة المثالية العربية تأثيرًا عميقًا. ومن ثم بدأ الحديث والتعبير عما يعلمون وما كانوا يحتفظون به لأنفسهم، وكيف أن الإنسان يرى ويتعرف

مفاهيم مغايرة جديدة عن علاقة الرجل بالمرأة، وأن كلاً منهما يفنى في الآخر ويسعى إلى أن يشعر شعوره أو يرفض ذلك. إن كل شيء آخر يستدعي أوتار عود جديدة (عربية) مجهولة إلى غرب ألمانيا، ومن ثم كان لها منزلة رفيعة عند الناس، وبهذا عُرف النموذج العربي للعطاء والتفاني في المستوى الأعلى والتطلع إلى قوة متنامية، والتحبب إليها، فهي نوع جديد من المسكوكات الخاصة والعميقة عن المثالية الأخلاقية الألمانية.

وكان في ذلك إنقاذ للنساء من كل كراهية ضدهم كانت أليمة في وطأتها، حملها التراث التوراتي وعند الرهبان للقيمة الشخصية للمرأة الجرمانية، فأصبحت تتمتع بتقدير من نوع جديد.

وبدأ البحث عن الوعي الذاتي الذي لم يكن قد لفظ أنفاسه تمامًا تحت وطأة وسائل الإرغام الكنسية، ففطنت المرأة بفضل جذوره العميقة المتغلغلة في أصول الوجود أو كما قال تاخيتوس Tacitus[٢٢]:

تهرب

تتلمس الحب السامي الروحاني

تفنى في المحبوب الذي يُكن لها الوفاء

ويتوفر على خدمتها في إخلاص

كما عبر عن ذلك الشاعر جوته Goethe[٢٣] في نهاية مسرحية فاوست Faust بقوله: «خلود الأنثى هو الذي يشدنا إليها»[*].

(*) Sigrid Hunke, Kamele auf dem Kaisermantel, S. 145.

ومن هنا يتضح أن مجرد المحاكاة البحتة لأنماط ذات نوعية مغايرة ينشأ عنها مشاكل إنسانية متعددة؛ إذ إن ذلك لا يصبح ذا معنى إلا إذا كان متفقًا مع ما هو موجود فعلاً. ويمكن - من أمثلة كثيرة - تبين أن العلاقة بين الرجل والمرأة- كما اتضح مما سبق – يمكن أن تطبق أنماطها على أناس ذوي مشارب معينة، ولا يصح تطبيقها على أناس ليست لهم هذه المشارب، ولا يؤدى تطبيقها عليهم إلى نتائج صحيحة لأنه تزييف للأصل.

وستتبين في الفصول القادمة أن بعض المصطلحات التي تحمل دلالات معينة عند بعض الشعوب تصبح لها دلالات مغايرة عند شعوب أخرى تبعد بها عن مفاهيمها الأصلية. وهذا يؤدي إلى الوقوع في أخطاء فادحة تؤدي إلى سوء الفهم، وعدم صحة الأحكام التي تبنى على ذلك. ويضرب لذلك مثلٌ على مفهوم الطاعة (عند المسلمين).



تعليقات الفصل الثالث

١) الحرب بين العرب الإسبان والغربيين (إيدو، وشارل مارتل):

عبر طارق بن زياد سنة ٩٣هـ / ٧١١م وغنم العرب مُلْكَ القوط، وبحلول عام ٩٨هـ / ٧١٦م كان معظم شبه الجزيرة الإيبيرية تحت الحكم الإسلامي. وتم في ولاية عبدالعزيز بن موسى بن نصير إخضاع معظم البرتغال وقطالونيا للحكم الإسلامي.

وفي صيف سنة ١٠٣هـ / ٧٢١م لقى العرب بعد فورة الظفر التي اجتاحت جنوب فرنسا هزيمتهم الأولى في موقعة تولوته (تولوز) وقتل قائدهم وأميرهم السمح بن مالك الخولاني؛ إذ إن الدوق إيدو Eudo – Dolen دوق أقطانية كان مستعدًا لاستقبال جيش المسلمين وحصَّن نفسه جيدًا، بعد أن انضم إليه مونوس Munuza القائد البربري الذي كان من زعماء البربر الذين دخلوا الأندلس مع طارق بن زياد ثم هجر المعسكر الإسلامي، وحالف الدوق إيدو وتزوج ابنته، فعمل معه على إيذاء العرب، ومن ثم نهض لهما عبدالرحمن الغافقي وهو من التابعين الذين دخلوا الأندلس، وكان من زعماء اليمانية، ومن كبار الجند، وكان قد تولى قيادة الجيش وإمارة الأندلس باختيار الزعماء والقادة بعد موقعة تولوز وكان عبد الرحمن الغافقي هذا من أعظم ولاة الأندلس، وأقدرهم.

حارب عبد الرحمن الغافقي مونوس أو مونوزا وهزمه وقتله. وسار بجيش عظيم إلى الغال (فرنسا) عام ١١٤هـ / ٧٣٢م مخترقًا أراجون، ونافار. وزحف على مدينة آرله الواقعة على نهر الرُون، واستولى عليها بعد أن هزم قوات الدوق إيدو، ثم زحف غربًا، وعبر نهر الجارون وانقض بجيشه على

ولاية أكويتانين، وهزم إيدو، وسار إلى بوردو (بردال) واستولى عليها. ثم استولى على ليون وبيزانصون أيضًا، وواصل الزحف حتى وصل إلى مينانص على بعد مائة ميل فقط من باريس.

وفي هذه الأثناء كان شارل مارتل (٦٨٨ – ٧٤٤م) يجمع جيشه وكان الجيش من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة والعصابات المرتزقة ومعظمه من الجند غير النظاميين. وانضم إليه أيضًا الدوق إيدو بعد ضياع وتمزق قواته. وانهزم المسلمون وقتل قائدهم عبد الرحمن الغافقي سنة ١١٥هـ/ ٧٣٢م وذلك في موقعة البلاط.

وبالنسبة للمؤرخين العسكريين الغربيين كانت معركة بواتييه قد اكتسبت أهمية أكثر من ذلك، وقد كان هناك رأى يجادل بأن شارل مارتل كان ناجحًا للمرة الأولى لأنه استخدم المحاربين الراكبين ذوي التسليح الثقيل(١).

وقد توقف القتال عند هبوط الظلام أثناء المعركة. ولما نهض الأوروبيون من معسكرهم عند الفجر شاهدوا خيام العرب كلها مرتبة حسبوها مظلاتهم ولكنها كانت خاوية، واكتشفوا أن جميع قوات المسلمين قد رحلت في صمت تحت ستار الليل وعادوا إلى بلادهم. وتزعم الروايات المسيحية – ولا يوجد مرجع واحد يذكر هذا – أن المسلمين اندفعوا في تقهقرهم نحو الجنوب مسرعين، «واتجهت جموعهم نحو أربونة فمروا على مقربة من جيريه Guéret وغزوا في طريقهم بلدة ليموزين وخربوا كنيسة سولنياك Solignac وحينما أحسوا أن أحدًا من النصارى لا يتتبعهم تمهلوا في سيرهم ليستجمعوا

---

(١) الفتوح العربية الكبرى، تأليف هيو كينيدي، ترجمة قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، العدد ١٢٨٧ – ص٤٣٨.

صفوفهم من جديد»[1].

ولم تقدم الرواية الإسلامية عن هذه المعركة إلا إشارات موجزة يكاد يتفق عليها في اللفظ والمعنى جميع المؤرخين[2].

أما الرواية المسيحية فهي تفيض - بالعكس - في تفاصيل الموقعة، وتشيد بظفر النصرانية ونجاتها من الخطر الإسلامي، وترفع بطولة شارل مارتل إلى السَماكَين[3].

وينقل الأستاذ محمد عبد الله عنان بعض أقوال المؤرخين الأوربيين، منها: «قال إدوارد جيبون إن حوادث هذه الموقعة أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الغاليين (الفرنسيين) من نير القرآن المدني والديني، وحفظت جلال رومة».

أما أرنولد فيعتبر الموقعة «إحدى هاته المواقف الرهيبة لنجاة الإنسانية وضمان سعادتها مدى قرون». ويقول السير إدوارد كريزي «إن النصر العظيم الذي ناله شارل مارتل على العرب سنة ٧٣٢ وضع حدًا حاسمًا لفتوح العرب في غرب أوربا، وأنقذ النصرانية من الإسلام، وحفظ بقايا الحضارة القديمة، وبذور الحضارة الحديثة، وزاد التفوق القديم للأمم الهندية الأوربية على الأمم السامية».

وقدم عنان أقوالاً أخرى لفون شليجل، ورانكه، وزيلر وكلها تحمل المعنى نفسه. وعلى الرغم من ذلك، فثمة مؤرخون آخرون لا يوافقون على هذا الرأي؛ إذ إن المؤرخين سيموندى وميشيليه لا يعلقان كبير أهمية على ظفر

---

(١) دكتور حسين مؤنس: فجر الأندلس، دار الرشاد، ٢٠٠٥، ص٢٣٠.

(٢) مثل نفح الطيب، جـ١ ص١٠٩، جـ٢ ص٥٦.

(٣) محمد عبدالله عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام / لجنة التأليف ١٩٦٢، ص٦٩.

شارل مارتل. ويقول جورج فنلى «إن أثرة الكتاب الغاليين قد عظمت من شأن تغلب شارل مارتل على حملة ناهية من عرب إسبانيا، وصورته كانتصار باهر، ونسبت خلاص أوربا من نير العرب إلى شجاعة الفرنج».

ولكن صورة شارل مارتل عند الغاليين وعند الكنيسة سرعان ما تغيرت؛ إذ إنه لما قرر سلطانه في ولايتي بورجونيا وليون، أقام فيهما نفرًا من المخلصين له يسمون Laudes (أي الخلصاء)، وفرض طاعته على أشرافهما. ثم اشتغل بعد ذلك بأمر أهل فريزيا Frisii ومضى لإخضاعهم وأنفق في ذلك وقتًا ليس بالقصير.

وأحب أن يضمن ولاء جنده فأطلق أيديهم في ذخائر الكنائس وأملاكها، فأغضب بذلك القساوسة وعامة الناس. وكان جنده الفرنجة يعتبرون أنفسهم سادة البلاد المفتوحة، وكان قارله (أي شارل) يميز جنده على أهل غالة الأصليين، ويحرم عليهم الزواج منهم، ويلزمهم بالعيش بعيدًا عنهم، فأبغضه أهل جنوبي غالة (فرنسا)، وفتر حماسهم نحوه، وهكذا خسر ولاءهم، وأعان ذلك العرب على الثبات في هذه النواحي، بعد أن كان أمرهم قد تحرج وتواتر عليهم تواثب الناس، حتى غدوا كالمحصورين في أربونة وغيرها مما كان بيدهم من المعاقل[1].

ولما طلب شارل مارتل من أهل أربونة الغاليين إخراج المسلمين منها، «وقفوا منه موقف العدو، ولم يعينوه على ما طلب من إخراج المسلمين، مما يدلنا على أن ما تذكره الروايات النصرانية عن مساءاتهم في النواحي التي دخلوها إن هي إلا مبالغات قساوسة، ومزاعم رهبان نصارى، فأراد قارله (شارل)

(١) دكتور حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص٢٣١.

الانتقام من أهل غالة ليعزي نفسه عن فشله أمام حصون أربونة فعسفهم عسفًا شديدًا، وخرب حصون بيزييه وأجده ونيمة... وعاد إلى الشمال ومعه كثير من أسرى المسلمين وعدد من كبار الغاليين أخذهم معه كرهائن ليضمن بهم إرغام أهل نواحيهم على التخلي عن عون العرب. مما يدلنا على أن أهل غالة الجنوبية كانوا يفضلون المسلمين على الفرنجة، وذلك طبيعي، لأن الفرنجة كانوا إذ ذاك أجلافًا قساة بعيدين عن كل تمدن، لا مقارنة بينهم وبين المسلمين أصلاً في مسائل الحكم والتنظيم»[1]. وينقل دكتور حسين مؤنس عن المؤرخ رينو كذلك قوله: «ومن المؤكد أن سلطان قارله كان مبغضًا إلى أهل غالة الجنوبية، لأنهم كانوا يفخرون بأنهم احتفظوا بجزء من النظم الرومانية وحضارتها، فكانوا ينظرون إلى أهل الشمال نظرتهم إلى متبربرين همج لم تزايلهم طوابع الجلافة الرومانية. ولم يستطع رجال الدين على الخصوص أن يغفروا لقارله استبداده بممتلكات الكنائس».

٢) أكويتانين :Aquitanien ويقال لها «أقطانية» وهي دوقية وراء جبال البرانس كان دوقها إيدو Eudo. وأكويتانين هي تسمية تاريخية للمنطقة الجنوبية الغربية من فرنسا.

٣) تور ثانية مدائن الدوقية أقطانية/ أكويتانين على نهر اللوار، و فيها كنيسة سان مارتان وكان لها شهرة ذائعة.

٤) هانيبال (٢٤٧ -١٢٨ ق.م) وموقعة كاناي

قائد قرطاجني، حارب الرومان، وعبر جبال الألب وزحف إلى روما بعد استيلائه على وادي اليو، وانتصر في وقعة كاناي أو مذبحة كاناي ٢١٦ق.م

---

(١) السابق ص٢٣٦.

نصرًا باهرًا على الرومان وأبادهم، ولكن قرطاجنة لم تمده بمعونة كافية فلم يستطع مهاجمة روما. وعاد فزحف على روما سنة ٢٠٧ق.م. ولكنه اضطر للانسحاب لهزيمة أخيه هاردوبال عند نهر مفاورس. وفي سنة ٢٠٣ ق.م. استدعي للدفاع عن قرطاجنة ضد أسكيبيو الذي هزمه في موقعة زاما ٢٠٢ق.م. وعقد معه صلحًا وأصبح هانيبال بعد الصلح الحاكم الرئيس في قرطاجنة سنة ٢٠١ق. م. ولكن روما طالبت بتسليمه إليها، ففضل أن ينفي نفسه بدلاً من الأسر، ولما أحس بأن مضيفيه يخططون لتسليمه إلى الرومان، انتحر حتى لا يقع في قبضتهم.

٥) الهون Hunnen، وأتيلا Attila:

الهون شعب رحل Ostalat من شمال آسيا الوسطى. كان تنظيمهم عسكريًا، ظهروا لأول مرة في القرن الثالث قبل الميلاد عندما بُني سور الصين لحصرهم. احتلوا الصين من القرن الثالث إلى ٥٨١م. غزوا وادي الفولجا عام ٣٧٢، وتقدموا غربًا دافعين القوط الشرقيين والقوط الغربيين أمامهم، وبعدها بدأت موجات الهجرات التي حطمت الإمبراطورية الرومانية. أجبروا الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني على دفع الجزية سنة ٤٣٢. في عام ٤٥١ أغار أتيلا (ملك الهون ٤٣٢ – ٤٥٣) على بلاد الغال (فرنسا)، ثم جمع من مقره في المجر الجزية من معظم وسط أوربا وشرقها، ولكنه هزم في إيطاليا سنة ٤٥٣، وهزمه أكتيوس في إيطاليا. وانسحب أتيلا، وانتهت بعد موته إمبراطورية الهون.

٦) طارق بن زياد (ت ١٠٢ هـ/ ٧٢٠م):

قائد من البربر، كان مولى مغربيًا لموسى بن نصير والي الوليد بن عبد الملك بن مروان على إفريقية. وضعه موسى بن نصير على رأس حامية في إقليم طنجة،

ثم ندبه لفتح بلاد الأندلس، ووضع تحت إمرته جيشًا من البربر، وبينهم عدد من كبار جند العرب. عبر طارق بمساعدة يوليان حاكم سبتة. ونزل بالجبل المعروف باسمه ثم سار إلى نهر البربا (وقد أسماه العرب وادي بكة نسبة إلى بليدة صغيرة بهذا الاسم). وهزم جيش لذريق عام ٩٣هـ / ٧١١م واستولى على أسنجة وزحف إلى طليطلة عاصمة القوط، ودخلها. وزحف إليه موسى ابن نصير واستولى على شذونة ورعوارق وقرمونة وأشبيلية وماردة. وعاد موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى دمشق عام ٩٦هـ / ٧١٤م. وبهذا ثبت فتح العرب لإسبانيا، فحكموها حتى عام ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م.

٧) مملكة القوط الغربية:

استقل القوط الغربيون بإسبانيا، وأعلنوا أنفسهم ملوكًا غير تابعين لأحد عام (٤٦٧هـ / ١٠٧٤م) وكان زعيمهم يوريك Euric. الذي يعد مؤسس دولة القوط الغربيين في إسبانيا. وامتد سلطانه حتى بسطه على شبه جزيرة أيبريا كلها، وامتدت حدود مملكته إلى شمال إسبانيا وجنوب غالة (فرنسا) واستولى على آرل ومرسيليا، وأصبحت دولته تمتد من أقصى الهضبة الفرنسية الوسطى إلى طرف إسبانيا الجنوبي وولاية قرطاجنة الرومانية القديمة في الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة. وحكم شعبين كبيرين هما الغاليون الرومان Gallo – roman شمال البرانس والإسبان الرومان Hispano – roman جنوبها.

ثم حاربهم كلوفيس زعيم الفرنجة وانتصر عليهم في فوييه Vouillé شمالي بواتييه سنة ٥٠٧ واقتصر سلطان القوط الغربيين على إيبريا وعاصمتها طليطلة.

وكان آخر ملوك القوط الآريين ليوفيجيلد Liuvigild (٥٦٨ – ٥٨٦هـ / ١١٧٢ – ١١٩٠م) وهو آخر القوط المسيحيين الآريين الذين لا يعتقدون في

ألوهية المسيح. وخلفه ابنه ريكاردو Recaredo الذي اعتنق الكاثوليكية هو وأهل بيته وتبعه الأمراء وكبار أهل المملكة، فأصبحت الكاثوليكية الديانة الرسمية في إسبانيا منذ ذلك الحين، وأصبحت اللاتينية اللغة الرسمية في البلاد.

أما آخر الملوك القوطيين الكاثوليك فكان وامبا Wamba (٦٧٢ - ٦٨٠هـ/ ١٢٧٣ - ١٢٨١م) الذي ترك العرش آخر حكمه للطامعين فيه وترهب وقضى بقية حياته في الدير.

وكان آخر ملوكهم لذريق الذي هزمه القائد العربي طارق بن زياد عام ٩٢هـ/ ٧١١م بوادي الرباط.

٨) الخليفة الأموي المقصود هو هشام بن عبد الملك (٧١ - ١٢٥هـ / ٦٩٠ - ٧٤٣م)

وهو الخليفة الأموي العاشر، تولى سنة ١٠٥ هـ / ٧٢٤م. بلغت الدولة الإسلامية في عهده أقصى اتساعها. حارب البيزنطيين واستولت جيوشه على نربونة ٧٢٠م وبلغت أبواب بواتييه حيث وقعت معركة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢م.

٩) جارونا ودوردوجني

عندما توجه عبدالرحمن الغافقي بقواته نحو بوردور (بردال) خفق الدوق إيدو بقواته لكي يوقف تقدمه، ولقيه عند ضفاف دوردوجني Dordogne على مقربة من ملتقاه بالجارونا Garonne فانهزم الدوق هزيمة فقد فيها عددًا عظيمًا من فرسانه وفر هاربًا.

١٠) بواتييه

بلدة في جنوب فرنسا تذكر أكثر من مرة في التاريخ ففي شمال الغال هَزَم كلوفيس زعيم الفرنجة القوط في موربيه سنة ٥٠٧م وأجلاهم عن معظم ما

كان تحت سيطرتهم من أراضي الغال، فلم يبق لهم إلا إقليم سبتمانيه المتاخم لجبال البرانس من الشمال ويمتد حتى نهر الرون وعاصمته نربونة. وفي سنة ١١٥هـ / ٧٣٢م هزم شارل مارتل جيش عبد الرحمن الغافقي في موقعة البلاط على مقربة منها.

١١) نربون Narbonne

مدينة في جنوب فرنسا بالقرب من خليج الأسد، وهي عاصمة إقليم سبتمانيه المتاخم لجبال البرت من الشمال ويمتد حتى نهر الرون. وهي حد ما بين غاليوس (الغاليون) وبين الأندلس (إسبانيا) ويضيف إليها قسطنطين المؤرخ اليوناني سبع مدن مما حواليها وهي بَطِرس Batteris، وبيزيه، وطليوسه Tolosa، ومقلونة Maguelonne، ونوشيو Nemanuso وقرقشونه Carcassonn وجعلها جميعًا أوائل حدود الأندلس كما ورد لدى أبي عبيد البكري في صفة إفريقية[١].

١٢) القيصر لودفيج (١٦٢ – ٢٢٦هـ/ ٧٧٨ – ٨٤٠م) Kaiser Ludwig

شارك والده شارلمان (شارل الأكبر أو الأول) في الحكم سنة ١٩٩هـ / ٨١٤م، وعينه والده خليفة له، وتَوَّجه في آخن Aachen، وبهذا كان ثالث حكام الأسرة الكارولنجية التي أسسها في القرن السابع ببين Pippin الذي أعلن نفسه ملكًا عام ٧٥١م، وتوج ابنه شارلمان إمبراطورًا (٨٠٠م) وكان يقرب إليه الآباء الدينيين. ولكن تعطش ابنه إلى السلطة أدى إلى التمرد عليه (أي على أبيه) ٨٣٠، ٨٣٣ – ٨٣٤م وخلعه. وقسمت الإمبراطورية الكارولنجية بمعاهدة فردان ٨٤٣م بين أبنائه: فأعطيت لوثارنجيا للوثر

---

(١) فجر الأندلس، ص٤٢٥ – ٤٢٧.

الأول، وألمانيا للودفج الأول، وفرنسا لشارل الثاني. وفي ٨٧٠م قسمت لوثارنجيا بين لودفيج وشارل. ودام حكم الاسرة أكثر من مائة عام، وكان أرنولف آخر الأباطرة الكارولنجيين (ت ٨٩٩م).

١٣) جريجور الثالث Gregor III

رئيس الكنيسة الأرمنية، شارك في المجمع الكبير الذي عقد في بيت المقدس في عام ٥٣٥هـ / ١١٤٠م وكان المندوب البابوي قد حكم بعزل رادولف بطريرك أنطاكية، واتجه بعد ذلك إلى بيت المقدس حيث عقد مجمعًا كبيرًا حضره زعماء الكنيسة الكاثوليكية في مختلف الإمارات الصليبية. وترجع أهمية هذا المجمع إلى أن جريجور الثالث رئيس الكنيسة الأرمنية اشترك فيه، مما أكسب المجمع أهمية سياسية خاصة، فكما أن مملكة بيت المقدس عملت على جمع شمل القوى الصليبية في الشرق الأدنى تحت رايتها، فكذلك عملت الكنيسة الكاثوليكية في الشام على توحيد المسيحيين الشرقيين تحت زعامتها.

١٤) إيزيدور Isidor

قديس من تلاميذ القديس أوغسطين أسقف بونه، أخذ عنه العلم وتشبع بآرائه، وهو لهذا يكتب على غراره: يهاجم الوثنية ويدعو إلى الله، وقد حاول تقليد القديس أوغسطين في كتابه «مدينة الله» Civitate Dei. ويلاحظ التشابه بينهما في التاريخ العالمي الذي كتبه بعنوان Historiarum Libri vii contra paganos ويفسر فيه التاريخ تفسيرًا دينيًا مسيحيًا، ويصور أن العناية الإلهية توجه أعمال البشر، والرسل يقودون الناس إلى أحسن مصير.

١٥) ترتوليان Tertullian (Quintus Septimius Florens) حوالي (١٦٠ – بعد ٢٢٠م)

كاتب كنسي لاتيني. كان في كتاباته الأولى متحمسًا للغاية لبقاء التعاليم

الكنسية طاهرة نقية، ثم اتجه بعد ذلك إلى الكتابة ضد الوثنية واليهودية وكل تعاليم الديانات المضللة، وأخيرًا كتب ضد تكييف المسيحية بالدنيوية. ويعد ترتوليان أول من كتب عن المسيحية اللاتينية.

١٦) مدرسة طليطلة للترجمة (١١٣٠ - ١١٥٠)[1].

كانت إسبانيا ملتقى الثقافة اليهودية والعربية والمسيحية منذ القرن الثاني عشر ولمدة قرن ونصف، واشتهر بها مدرسة الترجمة الوحيدة التي كان رئيس الترجمة فيها الأرشيدياكون دومينيك الذي كان يقوم بتحقيق الألفاظ اليونانية المترجم بها، فنقل المسلمون واليهود والنصارى إلى اللاتينية أمهات كتب الرياضة والفلك والطب والكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعي وما وراء الطبيعة وعلم النفس والمنطق والسياسة. وترجم مطارنة الكنيسة «المجسطي» لبطليموس وأعمال موسى بن ميمون وابن رشد والقرآن الكريم إلى اللاتينية.

١٧) الفلاسفة والكتاب والمغنون المشهورون بالأندلس:

- أبو القاسم صاعد الأندلسي (٤٢٠ -٤٦٣هـ/ ١٠٢٩ - ١٠٧٠م)

ولد في المُرِّية، ودرس في قرطبة ثم في طليطلة. طاف البلاد الأندلسية في شبابه طلبًا للعلم، وتلمذ لكثير من العلماء. اتصل ببلاط المأمون يحيى بن ذي النون بطليطلة الذي استقضاه، فتولى القضاء في طليطلة، واشتغل بالتأليف، ولم يصل إلينا من مؤلفاته إلا أربعة كتب وأهمها كتاب «طبقات الأمم»، ونتبين منه أنه كان على معرفة واسعة بتاريخ الشعوب والديانات.

- ابن خلدون ((٧٣٢ -٨٠٨هـ/ ١٣٣١ - ١٤٠٥م)

أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون التونسي الحضرمي الإشبيلي المالكي

(١) عوني عبد الرءوف: تاريخ الترجمة العربية، ص١٦٣.

ولد بتونس ونشأ بها، وتلمذ لكثيرين من شيوخ عصره، ودخل في خدمة أمير تونس. استقر به الحال في تلمسان وأقام بها أربع سنين، وشرع بتأليف تاريخه وشرح البردة وألف في الحساب وفي أصول الفقه. ثم فارق تونس سنة ٧٨٤هـ / ١٣٩٤م وأقام بالقاهرة وعينه السلطان برقوق قاضي القضاة المالكية، وعزل عنها بسبب تعصب الأمراء ضده. وسافر إلى الشام مع السلطان فرج الملك الفاسي ووقع أسيرًا لتيمورلنك فصحبه إلى سمرقند. وبعد مدة استأذن تيمورلنك في العودة إلى مصر، فأذن له. ورجع إلى مصر، وكانت وفاته بالقاهرة فجأة.

فرغ ابن خلدون من تدوين تاريخه سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م

ومن كتبه: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. ويعرف بتاريخ ابن خلدون في ستة أجزاء.

مقدمة ابن خلدون: وهو الجزء الأول من كتاب العبر.

- ابن رشد (٥٢٠ – ٥٩٥هـ / ١١٢٦ – ١١٩٨م)

القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي المالكي، أوحد زمانه في علم الفقه والعلوم العقلية، مولده ونشأته بقرطبة. أخذ عن أشهر فلاسفة عصره. وكان متميزًا في علم الطب. كان مكينًا عند المنصور، وجيهًا في دولته، وامتحن بآخره فاعتقله السلطان يعقوب وأهانه، ثم أعاده إلى الكرامة، واستدعاه إلى مراكش، حيث توفي بها.

ومن كتبه: بداية المجتهد ونهاية المقتصد – تلخيص المقالة الأولى من كتاب الخطابة – تهافت الفلاسفة.

- ابن الطفيل القيسي (٤٩٥ - ٥٨١هـ/ ١١٠٠ - ١١٨٥م)

أبو بكر محمد بن عبدالملك بن الطفيل الأندلسي، الفيلسوف الطبيب. وهو من تلاميذ الفيلسوف ابن باجه. كان بينه وبين ابن رشد مباحث ومراجعات. وكان متمكنًا من الحكمة، حريصًا على الجمع بين الشريعة والفلسفة.

ورسالته حيّ بين يقظان، في أسرار الحكمة الشرقية من أشهر المؤلفات العربية التي ترجمت إلى العديد من اللغات الأوربية.

- لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦هـ/ ١٣١٣ - ١٣٧٤م)

الوزير لسان الدين محمد بن عبدالله بن سعيد القرطبي الأصل، ثم الطليطلي ثم الموشي ثم الغرناطي أصله من لوشة ثم رحل إلى غرناطة، واستُخدم أبوه لملوك بني الأحمر. ونشأ محمد بغرناطة، وقرأ وتأدب على شيوخها. وأخذ عنهم العلوم والفلسفة، وبرز في الطب، وشغل بالأدب فلمع في الشعر والترسل، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر، فرقاه السلطان إلى خدمته، وتوزر بعده لابنه.

كان يملي في وقت واحد على سبعة أنفس من إنشائه بأمور مختلفة لا يجف لواحد منهم قلم.

له من الكتب المطبوعة:

الإحاطة في أخبار غرناطة - الاختيار في ذكر المعاهد والديار - الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية.

- ابن زهر

اسم أسرة من العلماء، نشأت بالأندلس ونبغ بعض أفرادها في علوم الطب. رأسها محمد بن مروان ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م. ابنه مروان بن عبدالملك،

طبيب مشهور، مارس الطب بالقيروان، ثم بالقاهرة، ثم بالأندلس، وابنه أبو العلاء بن زهر (٥٢٥هـ / ١١٣٠م) اشتهر في تشخيص الأمراض، دخل في خدمة المعتمد بن عباد في إشبيلية. ابنه أبو مروان عبدالملك (ت ٥٥٧هـ / ١١٦١م). وهو أشهر أفراد الأسرة، سُمي عند الغربيين باسم أفنزور Avenzoar درس الطب على أبيه، ودخل في خدمة المرابطين، ثم الموحدين. صادق الفيلسوف ابن رشد. كتب «التيسير في المداواة والتدبير» وصف به بعض الأمراض وعوارضها وطريق علاجها. ومن فلسفته قوله: «التجربة خير مرشد». ابنه أبو بكر محمد (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) ويلقب بالحفيد، كتب رسالة عن طب العيون. أما ابنه أبو عبدالله محمد بن الحفيد (٦٠٣هـ / ١٢٠٦م) فقد عمل طبيبًا في بلاط الخليفتين الموحدين: المنصور والناصر.

- ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)

أبو محمد عبدالله بن أحمد المالقي، عالم نباتي، ولد بمالقة، وسافر إلى بلاد الإغريق، وبلاد الروم والمغرب. عاين منابت النبات وتحققها. دخل في خدمة الكامل ابن الملك العادل، وكان رئيس العشابين. من كتبه: الجابي في مفردات الأدوية والأغذية. توفي بدمشق.

- أبو مروان بن حيان (ت ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م)

كان أديبًا مؤرخًا. درس على والده خلف بن حسين القرطبي، وصاعد البغدادي، ويعقوب بن السكيت.

من كتبه: المقتبس من أنباء أهل الأندلس – المتين (الذي عرف بالتاريخ الكبير) أخبار الدولة العامرية – البطشة الكبرى (بطش المعتمد بن عباد بعبد الملك بن جهور).

بلغ من العمر اثنين وتسعين عامًا، وتوفي عام ٤٦٩ هـ[١].

- جابر بن الأفلح (ت نحو ١١٥٠م)

قيل هو أول من كشف الجبر، وأن كلمة «جبر» مأخوذة من اسمه «جابر». والحقيقة أنه لم يكن أول من ألفّ فيه، فقد سبقه إلى ذلك الخوارزمي وغيره. ولكن «جابر» كان من الذين نقلت مؤلفاتهم الرياضية إلى اللاتينية قبل غيرها. ولد «جابر» في أشبيلية في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد، وتوفى في قرطبة في منتصف القرن الثاني عشر، في العصر الذي بدأت فيه الدولة العباسية تنحل وتتفكك، بينما كانت العلوم في المغرب والأندلس تتقدم وتزدهر.

نقل جيرار أوف كريمونا مؤلفاته التسع في الفلك عن المثلثات الكروية إلى اللاتينية، وطبعت سنة ١٥٣٣ في نيرنبرج. تقول دائرة المعارف البريطانية إن لهذه الكتب مقامًا كبيرًا في تاريخ المثلثات وإن لجابر فيه (أي المثلثات) بحوثًا مبتكرة لم يسبق إليها.

وقد كان لهذه الكتب التسعة أثر كبير في المثلثات وتقدمها. فقد اخترع العرب حساب الأقواس التي تسهل قوانين التقويم، وتريح من استخراج الجذور المربعة، وقد انتقد جابر المجسطي في كتابه المعروف بكتاب «إصلاح المجسطي»[٢].

- البطروجي: (ت ١١٨٥م)

نور الدين أبو إسحاق البطروجي الإشبيلي، من علماء الأندلس. ألف في علم

(١) نقلاً عن دكتور مصطفى الشكعة: المغرب والأندلس آفاق إسلامية وحضارة إنسانية ومباحث أدبية، دار الكتب الإسلامية ١٩٨٧، ص ٣٤٩ – ٣٨٠.

(٢) نقلت المادة بتصرف عما جاء بكتاب تراث العرب العلمي لقدري طوقان/ دار الشروق.

الهيئة، وفي نظريته في حركات الكواكب ما يثبت أنه ضالع في العلوم الرياضية.

وقد ترجمها ميشيل (أو مشائيل) سكوت Mishael Scott إلى اللاتينية.

وقد تأثر البطروجي بآراء «ابن باجة» في الفلك حتى قاده ذلك إلى القول بالحركة اللولبية Spiral Matian.

- زرياب (ت حوالي ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م).

أبو الحسن علي بن نافع مولى المهدي. كان أسود اللون، لقب بزرياب لسواد لونه وفصاحة لسانه تشبيهًا له بالطائر المغرد. أخذ الغناء عن إبراهيم الموصلي، ثم عن ابنه إسحق، فأجاد الغناء حتى ظهر صيته، ورحل إلى القيروان بالمغرب والتحق بخدمة بني الأغلب وظل بالقيروان إلى أن غضب عليه زياد الله الأغلبي، فرحل إلى الأندلس، وخدم عند الأمير ابن الحكم.

كان زرياب ركنًا من أركان الغناء العربي بالأندلس، وأول من أدخل غناء المشارقة إلى الغرب والألحان المعروفة بالموشحات الأندلسية ترجع إلى عهده. كذلك اشتهر مذهبه في التعليم، إذ علّم تلاميذه الإيقاع لضبط حركات اللحن، ثم الغناء على الإيقاع دون ترسل، ثم الغناء بإيقاع وترجيع[(١)].

١٨) الطوارق

شعب مسلم من البربر يعرف باسم الملثمين، لأن الرجال يضعون على وجوههم لثامًا أسود أو أزرق طيلة الوقت بينما يذهب النساء بغير لثام أو حجاب.

وهم يسكنون غربي الصحراء الكبرى، ويشتغلون بتربية الإبل بخاصة، ويعتمدون في معاشهم على ألبان الماشية وعلى اللحم والحبوب التي يزرعها

---

(١) رجعت في ذلك إلى الموسوعة العربية الميسرة، دار القلم ومؤسسة فرانكلين، القاهرة ١٩٦٥.

العبيد. ويعيشون في قبائل، ولكل قبيلة شيخها، ولهم اتحاد يجمعهم، وإن لم تكن له سلطة حقيقية؛ إذ إن التنظيم القبلي عندهم يعكس بعض ملامح النظام الأموي، فمركز الرجل تحدده طبقة الأم. وابن الأَمة يعتبر عبدًا ولو كان أبوه نبيلاً. والرياسة عندهم ليست وراثية؛ إذ إنها تنتقل عادة من الشيخ إلى ابن أخته. وتتمتع المرأة عندهم بمركز ممتاز في مجتمعهم، وتشارك أحيانًا في مجالس القبيلة، كما أن لها حق اختيار الزوج.

١٩) فيلهلم التاسع Herzog Wilhelm IX

خلف فيلهلم التاسع أباه عام ١٠٨٦م في حكم مقاطعة بواتييه. ولم يكن تجاوز الخامسة عشرة من عمره. وقد تردد على إسبانيا كثيرًا لزيارة أختيه اللتين تزوجتا من الأميرين بدرو الأرجوانين، وألفونسو السادس أمير قتشالة، فأتيحت له الفرصة لتعرف الحياة الاجتماعية الإسبانية، وبهرت مباهج الحياة الأندلسية الفتى المتوقد الحس والمشاعر وسحرته فنونها العربية.

وجاء بكتاب شمس الله تسطع على الغرب للمؤلفة وترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ص٥٢٣، ٥٢٤:

«ولم يكن الغرب يعرف مثل تلك النعمة في الحبّ، ولم يكن أحد من شعراء الغرب ليعبر عن حبه في ذلك الأسلوب، ولم يكن أحد منهم ليقذف بنفسه تحت أقدام محبوبته يتلمس رضاها ولم يعرف Anakrean، ولا Theokrit، ولا Sappho، ولا Platon ذلك النوع من الحب، ولا ذلك الأسلوب في الغزل، ولم يعرف الجرمان الذين جعلوا المرأة في مكانة مساوية للرجل، وقدروا شخصيتها أيضًا، هذا الأسلوب العربي في الحب والغزل.

ويتساءل الكثيرون كيف بدأ الدوق فيلهلم التاسع في جنوبي فرنسا وغيره من الشعراء والمغنين في نعت أنفسهم بالخدم والعبيد أمام محبوباتهم وفي أشعارهم

وأغانيهم. وكيف رفعوا المرأة إلى تلك المكانة العالية وركعوا أمامها ساجدين؟ وكيف أصبحت المرأة التي كانت أقل شأنًا من الرجل في ظل تعاليم الكنيسة، لأول مرة كائنًا مقدسًا يتوسل إليها الرجل كما يتوسل إلى الله؟ حتى الأشعار الدينية التي كانت قبل ذلك تصف مريم أم المسيح بخادمة الرب، وبالفتاة الذليلة قد جعلت منها الآن السيدة الكريمة والحبيبة العزيزة. ومنذ أن تعرف مورداخ على مصدر شعر الغزل الأوربي، فالكثيرون يحاولون جاهدين إرجاع مصدره لغير العرب، برغم أن كل الدلائل تشير بوضوح إلى قدومه من الأندلس عابرًا نفس الطرق التي عبرتها مختلف الثقافات الغربية، والتي كانت الأندلس بموقعها السياسي والجغرافي أكبر مورد لها».

٢٠) شعراء التروبادور Troubadours

جماعة من شعراء العصور الوسطى في جنوب فرنسا، كانوا ينشدون الشعر في لغة الأوك في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وكان أغلب الشعراء من طبقة الأشراف ينظمون في مختلف فنون الشعر، ولكن الموضوع الذي استهواهم هو «الحب» الذي تغنوا به في أكثر قصائدهم. وكان يرافقهم في أسفارهم جماعة من الناس عرفوا بالمهرجين، وكانوا يمثلون أشعار سادتهم في البلاط الذي ينزلون به، وكان أشعر هؤلاء الشعراء فيلهلم فون بواتواى Wilhelm von Poitoü، وبرنارد دي فينتادرم Bernard de Ventadorm وبرنارد دي بورن Bernard de Born، وأرناوت دانيل Arnaut Daniel وكان مقابلهم في شمال فرنسا جماعة التروفير Trouvèrs.

٢١) شعراء القرون الوسطى (القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر)

ذكرت صاحبة الكتاب منهم:

- هارتمان فون أوي Hartmann von Aue وله ملاحم كثيرة تتميز بقصص الفروسية.
- هاينزيش فون مورنجن Heinrich von Morungen
- راينمر فون هاجيناو Reinmer von Hagenau
- فالتر فون دير فوجَل فايدي Walther von der Vogelweide وهو شاعر نمساوي

٢٢) تاخيتوس Tacitus, Cornellus (حوالي ٥٥ – حوالي ١٢٠م)

مؤرخ روماني. وأهم كتبه حوار الخطباء Annalen، وأخلاق الجرمان Historien واهتم بالكتابة عن الأحداث التاريخية بعد موت القديس أوغسطين عام ١٤م إلى نهاية دوميتيانز (ت ٩٦) Domitians.

٢٣) جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) Goethe, Johann Wolfgang von

كاتب ومسرحي وروائي ألماني. كتب في ميادين شتى في الأدب والعلم، وهو من أفضل من كتب أدبًا وشعرًا في عصره، ويُعد أمير الكتاب آنذاك. ومن مؤلفاته رواية آلام فرتر (١٧٧٤) Die Leiden des Jungen Werters ، وفاوست Faust (١٨٠٨)، وفيلهلم مايسترز Wilhelm Meisters (١٧٨٧)، وإيجمونت Egmont (١٧٨٨) والديوان الشرقي للشاعر الغربي – Der west östlicher Divan (١٧٧٩)، وفي هذا الديوان تتضح معرفته بالشعر العربي، وبالشعر الفارسي وبخاصة شعر حافظ الشيرازي.

كان يجيد الرسم ويهوى الموسيقى، ويعرف من اللغات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية واللاتينية، تقع مؤلفاته في أربعة عشر مجلدًا.

الفصل الرابع

١- هل يضطهد الإسلام المرأة؟[(١)]

اعتاد الإنسان الأوربي أن يتخيل النساء فى العالم الإسلامي يعشن خلف أسوار الحريم – حتى لا تقع عليهن أنظار الرجال – فى جو حار خانق شديد الرطوبة، فى حياة عشق متحررة من كل قيد ولاهية، لا يصنعن شيئًا، إنما يمضين حياتهن فى الثرثرة والقيام بأفعال تصدر عن الغيرة من ضراتهن الثلاث الأخريات، ولا يسمح لهن بالخروج من الحريم إلا إذا كن منقبات، وأن النساء لم يخلقن إلا لإرضاء وإشباع شهوات الرجال. فهن مخلوقات بلا روح لا حقوق لهن، ومضطهدات كأنهن بضاعة ابتاعها الرجال من ذويهن.

نعم كانت آلاف النساء من أتباع الخوميني يرفلن فى الشادور (الحجاب) Schador وكُنَّ فى هذا الزي يشبهن الطيور السوداء، ولا يشبهن الآدميين. يعبرن طرقات طهران في ثيابهن الكئيبة، ويؤكدن أن كل تصور عن شدة اضطهاد الإسلام للمرأة صحيح، ومن ثم يعد الإسلام دينًا للرجال فقط.

والحق أن النقاب والحريم لا يوجد لهما علاقة بالشريعة الإسلامية، ولا صلة للإسلام باضطهاد الرجل للمرأة، أو بأن المرأة كائن بلا روح، فلم يأت بالقرآن أو بالأحاديث النبوية أمر بذلك.

إذًا ما الصحيح فى هذه الدعوة، وما هو غير الصحيح؟

ورد بالقرآن الكريم كل النصوص المتعلقة بالدين، والأحوال الشخصية

والمجتمعية والدولية، ويسن لكل هذا قوانين إلهية لا تتعارض مع سواسية الخلق، و ينص على كرامة الرجل والمرأة عند الله في كافة العبادات، وفي الأمور الإنسانية، والأمور الأخلاقية، وكذلك في الأمور الاجتماعية والاقتصادية، وتتساوى المرأة مع الرجل في الأجر؛ إذ ورد بسورة البقرة (٢: ٢٢٨) (بشأن معاملة الرجل للمرأة) ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ.....﴾.

على أن بقية الآية تبدو لنا وكأنها تنقض كل ما جاء عن المساواة بين الذكر والأنثى؛ إذ جاء بها:

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾

ولهذا فطاعتهن للرجال واجبة... ولا يجد العربي أي تناقض في ذلك، لأن هذا لا صلة له بالمكانة أو الدرجة الأخلاقية، فالأمر مخالف لما ورد عن «يهوه» Jahwe (*) ولدى بولس Paulus(**) - والقديس توماس(٢) Hl.Thomas(***)، ومارتن لوثر(٣) Martin Luther(****).

لأن طاعة المرأة لا تعني العقاب الإلهي لشهوانية حواء. فالمرأة فى القرآن ليست صاحبة الخطيئة الأولى، وليست من أغرى آدم؛ إذ إن الحية هي التي أغوتهما معًا(٤) (أي آدم و حواء)، ولم تَعُد المرأة فى الإسلام وارثة الخطيئة أو الإثم، فالجنسان متساويان، وكلاهما رُزِق الروح التي لا تموت، ولكن على الرغم من كونهما من نفس واحدة، وبالقيمة نفسها، فإن ثمة تجاذبًا وتشوقًا بين

(*) Sigrid Hunke, Am Anfang waren Mann u. Frau, S. 40 – 71.
(**) Ebd. S. 69 f, 173.
(***) Ebd. S. 70, 193.
(****) Ebd. S. 201 ff.

الرجل والمرأة، مثل التجاذب بين الله والإنسان.

وتتوفر هذه العلاقة عند كل إنسان، وفي الأديان كلها، فالعلاقة بين الجنسين لها أساس ميتافيزيقي كامن فى كينونة الإنسان(*)، لا ينفصل عن علاقته بالعالم وبالقدر وبالله. ولهذا تتطابق- في كل المجالات- بنية العلاقة الأزلية بين الرجل و المرأة مع الغرس الإلهي فيهما.

الإسلام(٥) يعنى الامتثال لإرادة الله والخضوع والطاعة له، والإسلام يتضمن الثقة والأمان والتحرر من التهديد. فالإسلام يصف أيضًا كيف تكون العلاقة بين الجنسين. وتعاملهما فيما بينهما- رجلاً وامرأة(٦) - يكون انقيادًا مبنيًا على الثقة المتبادلة بينهما، وخضوعًا وتفانيًا. فهذه «الطاعة» ليست معاناة أحدهما من الآخر، وليست استمتاع شريك بما يحطّ من شأن شريكه، ولكن لإعلاء قدره أمام الله، وفي حبه لمحبوبه.

هذه نعمة يَمُنُّ الله بها على من يتلقاها ويتفانى فيها (كما تقول إحدى الأغنيات) «فخر وملكوت ثان»، ويتبادل كلاهما هذا الدور، أي الدور الذي يؤديه المطيع المتفاني، فالرجل هو الذي يسعى إلى الحبيب، ويعلمه فنون الحب مطيعًا، يركع أمام معشوقته عبدًا ذليلاً. وفي الحياة الزوجية التي يهتم بها القرآن تنظر المرأة إلى الرجل مقرّة بقوامته، لأن كبرياءها يحتم عليها ألا تمتثل وتطيع إلا من تتطلع إليه إعجابًا وتقديرًا.

ويختلف هذا عما ذكر بالعهد القديم عن المشكلة القديمة بين آدم وحواء(٧)، والتي تحَوّلت بعد ذلك إلى الكراهية للمرأة فى الكتابات الكنسية، مثل ما كتبه

(*) Sigrid Hunke, Allahs Sonne., S. 329.

بولس، وترتوليان Tertullian وكريزوستوموس[٨] Chrysostomus، وأيضًا فى النهاية بتروس داميانى[٩] Petrus Damiani[*] وهى الكراهية التي أصبحت متنامية إلى أن فاقت في قسوتها ما يمكن أن تؤديه مطارق الساحرات[١٠].

أما الإسلام فلا يعرف أي خطيئة للمرأة أو أي صراع بين الجنسين لا في الزواج ولا في الحياة العامة، بل اختلافًا بينهما لذلك نقرأ فى سورة الروم (٣٠: ٢١) حثًا على التراحم والمودة بين الأزواج:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾.

وأوصى النبي قبل وفاته الرجال بالنساء خيرًا[١١]، حاثًا إياهم على أن يشعروا بمسئوليتهم عن النساء فى قلوبهم. وذلك فى أكثر من حديث منها:

«واستوصوا بالنساء خيرًا... وإن لنسائكم عليكم حقًا، وأحسنوا معاملتهن. لقد أخذتموهن وديعة من الله».

وقد أوصى بالأمهات أكثر من وصيته بالآباء «الجنة تحت أقدام الأمهات»[١٢] ويتكرر تأكيد القرآن على المسئولية الخاصة برعاية البنات الصغيرات، ومعاملتهن بالحنان، وهن اللاتى كن يتعرضن غالبًا للوأد[١٣] كي يتجنب البدو زيادة أعداد النساء فى حياتهم البدوية. وأصبحن فى الإسلام يعاملن معاملة البنين[١٤]، ويحصلن على الحقوق نفسها فى التربية والتعليم. ووصى الجنسين كليهما رجالاً ونساء بالسعي في طلب العلم.

(*) Sigrid Hunke, Am Anfang waren Mann u. Frau, S. 185 f.

وثمة تصور خاطئ شغل ذهن الأوربيين بدرجة كبيرة، وساقهم إلى توجيه انتقاد أخلاقي للمسلمين، وهو إباحة الإسلام لتعدد الزوجات(١٥).

لقد وجد النبي، بعد أن مُني المسلمون بالهزيمة فى موقعة أحد، باستشهاد الكثيرين من المحاربين، أن الزواج هو الحلّ الوحيد لرعاية الأرامل واليتامى، فأباحه قاصرًا إياه على زوجات أربع، ورأى فى ذلك حلاً اجتماعيًا ضروريًا. ولكن هذه الإباحة كانت مشروطة بطبيعة الحال بشروط خاصة، فالزوج ملزم حينئذ بمسئولية العدل بين الزوجات الأربع، وأن يكون لكل منهن مسكنها الخاص، والنفقة اللائقة بها.

وتحذر سورة النساء (٤ : ٣) من انتفاء العدل بين الزوجات:

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾.

وفى سورة النساء أيضًا (٤: ١٢٩) ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡ﴾.

وفى هذا دليل على أن العلاقة المثلى تتحقق بالاقتصار على زوجة واحدة لتحقيق ما شرع فرضًا من حسن معاملة الزوجة، وإعطائها حقوقها بمودة. وبهذا نتبين أن تعدد الزوجات ليس قاعدة، وإنما هو الاستثناء، عدا ما عرف عن تعدد زوجات الخلفاء والأمراء.

وإذا كان للرجل وحده حق التطليق(١٦) (أي تطليق النساء) فإن المرأة تمتلك حقًا بإمكانيتين شرعيتين؛ إذ إنه عند عقد الزواج يمكنها أن تؤمِّن نفسها بأن

تشترط عليه ما تتطلبه منه من واجبات نحوها، وأن يؤدي لها صداقًا تأمينًا لمستقبلها.

ونتيجة لقلة المعرفة يعشش فى الوكر السابق نفسه زعم باطل آخر، وإن كان يبين كيف أن الصورة التي تتخيلها المخيلة الغربية كثيرًا ما تختلف عن البواعث الاجتماعية فى القرن السابع الميلادي؛ إذ قيل إن المرأة كانت آنذاك سلعة يجب أن يدفع الرجل ثمنًا لها[١٧]. وهذا غير صحيح، فالرجل كان يعطي عروسه صداقًا، تأخذ نصفه قبل العرس، ولها الحق المطلق فى التصرف فيه. أما النصف الآخر وهو مؤخر الصداق فهو لها أيضًا إذا ما طُلقت حتى تكون مؤمنة ماديًا. ويقودنا هذا إلى الحديث عن جوهر العلاقة بين الزوج والزوجة.

فالرجل قوّام على المرأة عند زواجهما، وهو مسئول عنها وملزم بأن يحفظ لها مستواها الاجتماعي الذى كانت عليه قبل زواجها ووفقًا لصداقها، وليس مستواه هو، وأن يوفر لها نفقتها وكسوتها. وليس هناك شك فى أن المصطلحات الأوربية- وفقًا للتصور الأوربي- عن المجتمع الأبوي وعن المساواة بين الرجل والمرأة لا يمكن تطبيقها هنا تمامًا، وإنما يجب القول بأن الرجل والمرأة يتمتع كل منهما بالحقوق نفسها، متساوية من ناحية النوعية، ولكنها ليست متطابقة فى جميع المجالات.

وقد كان لزوجات النبي أيضًا مكانة مرموقة، كما أدّين دورًا مستقلاً فى الحياة. ونخص بالذكر زوجته خديجة[١٨] التي أمضى معها أربعة وعشرين عامًا. وكانت قبل الزواج به أرملة ثرية تدير تجارتها بنفسها، وتسيّر قوافلها التجارية محملة من وإلى عواصم تجارية بعيدة. وكانت أول من آمن برسالته، وتبعته،

وكانت تشد أزره وتثبته إذا ما ساوره الشك.

ولا تختلف صورة النساء فى العصور الإسلامية الأولى فى أي شيء عن صورة المرأة المثالية فى العصور السابقة عليها؛ إذ إنهن كن ينعمن بالحرية والاستقلالية، وكن يؤدين أدوارًا قيادية فى المعارك الحربية، كما كانت لهن هذه الأدوار القيادية فى الحياة الاجتماعية أيضًا. وقد تبوأت زوجة النبي عائشة[١٩] منزلة رفيعة بين من جمعوا أحاديث الرسول ورووها.

وقد كان سرور الرجل عظيمًا عندما كان يستمع – فى البلاط الأموي- إلى القصص الذى تحكيه النساء الرائعات العظيمات اللاتي كن يأسرن قلوب الرجال، ويُضرِمن فى صدورهم نار الحماسة بحديثهن عن مآثر الأبطال. وقد كان أسمى ما يطمح إليه أحدهم تقدير المرأة لبطولته.

كن يتعلمن بالمساجد، ويُعَلِّمن الناس بها. وقد حث بعض علماء الفقه المشهورين النساء لتولي مناصب القضاء، فشهدت مجالس القضاء[٢٠] بالمساجد قاضياتٍ ونساءً يلقين محاضرات عامة، ويقدمن الفتاوى. وكان منهن من تولت منصب قاضي القضاة وحظيت بلقب «فقيهة الفقيهات». وكان منهن قاضيات معترف بصحة قضائهن، وفقيهات وشاعرات. ولم يستنكر أحد ذلك، ولكن سرعان ما تغير الحال.

٢ - التغريب باستخدام الحجاب والتسري بالحريم

مُنِي المجتمع الإسلامي بمؤثرين أجنبيين غريبين عنه، تسربا من بلاد فارس وبيزنطة، وبدا تأثيرهما واضحًا فى بلاط هارون الرشيد ببغداد. فبينما كانت الخيزران وزبيدة تتفاخران بأنهما من أمهات الخلفاء وزوجات الخلفاء، ويجرى فى عروقهما الدم العربي الخالص؛ تحولت الغلبة تدريجيًا للمحظيات الفارسيات والقيان، وتسلط نفوذهن على حياة اللهو التي غزت المجتمع، وإذا بالجواري الروميات والفارسيات تصبحن محظيات وأمهات خلفاء. وصحبهن فى غزوهن للمجتمع هذا الحجاب الذي كُن يرتدينه، وظهر تصنيف للنساء بالحرملك مرتبط بنظام الخصيان المعروف فى بيزنطة المسيحية، والحياة الاجتماعية بالبلاط ورواسب إذلال المرأة المتأصل فى نظام الثنائية الفارسية. وأصبحن رمزًا اجتماعيًا للأرستقراطية بالبلاط تقلده المرأة الحضرية، خلافًا للحرائر البدويات، والفلاحات الكادحات.

وفى عام ألف ميلادية بلغ الأمر بالخليفة الضعيف القادر بالله[٢١] – لشدة افتتانه بالتزمت الفارسي – أن ألزم كل النساء دون اعتبار لمكانتهن الاجتماعية بارتداء الحجاب، وأمر بأن يبقين بالحرملك. وبعد فترة قصيرة من الزمن منع الخليفة الحاكم بأمر الله الثاني[٢٢] النساء بمصر من مغادرة الحرملك أو المنزل، إلا إذا كن متنقبات، وفى صحبة رجل.

وبهذا تأصلت هذه العادة غير العربية والفارسية المنشأ[٢٣] التي تتعامل مع المرأة بعداوة، وانقسم المجتمع إلى عالم الرجال الخالص وعالم النساء، فى ثنائية تفصل بينهما فصلاً عنيفًا. وبسبب هذا تراجعت الأصالة العربية الخالصة نتيجة

لتأثير العناصر الأجنبية الغريبة بمذهبها المتزمت الذى يدعي التدين. ونشأ عن ذلك تغلغل روح زاهدة لا تربطها بالروح العربية الأصيلة أية صلة، مثل تلك التي سرت قبل ذلك بألف عام بعد الأسر البابلي، منبعثة من شمال شرقي المناطق الجبلية فى موجات كريهة عالميًا، بعيدة عن أي احترام عبر آسيا الصغرى(*). وتحت تأثير هذا النفوذ قدم علماء الدين المسلمين تفسيرًا للآيتين (٣٠، ٣١) من سورة النور: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ .... ﴾.

ومن ثم قرروا ألا يبدو من الوجه إلا العينان. وهذا تفسير خاطئ، ومثله مثل الوصية ببقاء المرأة بالمنزل، وألا يراها إلا أعضاء الأسرة، وألا تكلم الأغراب إلا من وراء حجاب.

وقد اشتد هذا التضييق على حرية المرأة أثناء سيطرة المغول منذ القرن الثالث عشر الميلادي، وامتد فى فترة سيادة الأتراك العثمانيين من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر، حيث قُيدت حرية المرأة تمامًا لسوء فهم الروح العربية والشريعة الإسلامية السمحاء، التي يساء فهمها حتى الآن.

(*) Sigrid Hunke, Am Anfang waren Mann u. Frau, S. 52 ff.

٣ - «الإسلام»

فى الغزل العفيف

لم يتأثر الأندلس بتلك الروح التي انتشرت فى الشرق، وبقى ينعم بالنسيم العربي القديم؛ إذ أصبح آخر واحة عربية تحترم المرأة(*)، فقد أدهشت نساؤه المجتمعات عند مشاركتهن فى الحياة العامة، وليس فقط سيدات المجتمع، بل الفتيات البسيطات والجواري اللاتي كن يشاركن فى الحياة الفكرية والعلوم. وكانت منهن شاعرات مشهورات نظمن شعر الغزل أيضًا مثل الرجال. وتألق بعضهن مثل ولادة(٢٤) (بنت الخليفة المستكفي) التي كان منزلها ملتقى لكبار الشعراء بل وصغارهم أيضًا، وأصبح ساحة للنزال الشعرى يتبارون فى إرضاء النساء، طمعًا فى ثنائهن. وقد ازدهر فن الغزل العربي المتميز فى هالة النور التي وفرها العديد من الكواكب الكبيرة والصغيرة.

والحق أن هذا الغزل الأندلسي كان ذا طبيعة خاصة، طبيعة تمتد إلى جذور عربية راسخة، حتى إن محاكاة هذا الغزل عند الأمم غير العربية بعده لم تكن إلا نماذج زائفة، وبقى الغزل العربي نسيج وحده؛ إذ إن وضع المرء بالنسبة للإله تطابق علاقة المحبين وسلوكهم نحو بعضهم، أي علاقة الرجل بالمرأة. وعلاقة الإسلام(**)، أي الخضوع والانقياد الذليل لإرادة الله، تماثل أيضًا موقف المحب من محبوبته فى امتثاله لها وخضوعه الذليل طمعًا فى رضائها. فالشعور المتغلغل فى الأعماق الذى يزرعه إله الحب إيروس(٢٥) Eros يماثل فى قوته ما يشعر به فى

(*) Sigrid Hunke, Allahs Sonne, S. 302 ff.
(**) Ebd. S. 276.

حبه للإله، ولذلك لا يمكن التفرقة بين الشعر الصوفي وشعر الغزل(*).

وقد ازدهر شعر الغزل العفيف فى الصحراء العربية قبل الإسلام، وكان قريبًا جدًا من الغزل العذري كما عرف فيما بعد عند بني عذرة، وفى غزليات شاعر الصحراء جميل(**) فى محبوبته(٢٦) بثينة «التي علقها عرضًا والتقت روحاهما قبل أن يولدا». ولكنهما لم يستطيعا التغلب على العداوة بين عشيرتيهما. وعلى الرغم من أن حبه كان قويًا جدًا، وكان قانعًا به ذليلاً فى تعبده لمحبوبته عسيرة المنال، فإنه كان مقتنعًا بأنه لن يلتقي بها فى الحياة الدنيا، ولكن حبه أقوى من الفراق، وأقوى من الموت ذاته.

وقدم الفيلسوف الأندلسي علي بن حزم(٢٧) -وهو صاحب نظرية حول فن الغزل- فى كتابه «طوق الحمامة» وصفًا للحب نظريًا وعمليًا:

«ومن عجيب ما يقع فى الحب طاعة المحب لمحبوبه».

«هذا مكان تتقاصر دونه الصفات وتتلكن بتحدده الألسنة. ولقد وطئتُ بساط الخلفاء، وشاهدتُ محاضر الملوك، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء وانبساط مديرى الدول، فما رأيت تبجحًا، ولا أعظم سرورًا بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده، ووثق بميله إليه ومودته له.

وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي

(*) Ebd. S. 329
(**) Ebd. S. 276.

محبوب غضبان قد غمره السخط، وغلب عليه الجفاء»[٢٨].

يريد المحب من محبوبته أن تكون متكبرة، ومتقلبة المزاج، أن تكون قاسية للغاية كي يدلل لها على خضوعه لتنتشله من أعماق الهاوية التي أرداه فيها عشقها الإلهي لترفعه برحمتها إلى جوارها.

عذبيني، اظلميني، تجنبيني

جميلةٌ أنتِ في كلِّ حين

اصنعي ما شئتِ

وما يحلو لك فعله دائمًا

فكلٌّ مقبولٌ منكِ

أتحملُهُ وأطيقُهُ

وكل ما تشائين وما لا تشائين

أصبرُ عليكِ وعلى صدِّك وتمنعك

تكبري، سأتحملك

ترفعي، سأطيقُك

تعاظمي، سأرتضيك

أعرضي، سأُقبل عليك

تكلمي سأنصت إليك

وإن أمرت سأطيعك[٢٩].

هذه كلمات أعظم شاعر غنائي بالأندلس وهو ابن زيدون(٣٠) يوجهها إلى سيدة قلبه (مالكة قلبه) ولادة بنت المستكفي التي سعى طوال حياته للفوز بها:

«منذ أن أصبحتُ عبدًا لك فى الحب أسيرًا». كما يقول:

لم أكن أدري، إذ أَمَّرتُكِ على فؤادي

أنني أحفر بيدي قبري

انظري إليَّ بلطفك

انعمي عليّ بنظرك

لتُحييني بإنعامك

وكأنك يومًا لم تقتليني(٢٩)

نشأ فن الغزل عند العرب، لكن الغرب يأبى إلا أن يعارض ذلك بكل وسيلة(٣١) ولم تَكُف مزاعم المستشرقين الألمان ودعاواهم عن أصوله الغريبة إلا فى العشرينيات من القرن العشرين، ثم عندما تقدمت المؤلفة برسالتها للحصول على درجة الدكتوراه عام ١٩٣٩ إلى جامعة همبولت ببرلين – Humboldt Universität وهذا ما نظل نسمعه حتى الآن (أي أن هذا الأصل الغريب هو الأصل العربي).

٤ - تحرر المرأة من التأثير الأجنبي

انتهت السيادة العربية على الأندلس عام ١٤٩٢م، وبقيت الحضارة العربية التي ظلت حتى ذلك الحين محتفظة بأصالتها. وفى هذه الأثناء اكتسحت العالم الإسلامي موجات آسيوية وأدخلته تحت سيطرتها، بدءًا من الأتراك ثم المغول، وبعد ذلك الجيوش العثمانية التركية المستعمرة، وأخيرًا الاستعمار الأوربي. ولهذا كله أصبح العالم الإسلامي يعاني من تصلب مرضي وجمود حضاري.

ولم تبذل أية جهود لتحرير المرأة إلا بعد خروج الأتراك، وحلول الاستعمار الأوربي فى البلاد التي كانوا بها، سواء الاستعمار الفرنسي، أو البريطاني، أو الإيطالي. وقد اتخذت المرأة العربية نظيرتها الأوربية قدوة فى هذا التحرر. ولكن مكافحة سلطان التقليد الذي زعم أنه يستند إلى الشريعة، وإلى حقوق الرجل التي مارسها مئات السنين، كان يتطلب قوة خارقة للتغلب عليه. وبغض النظر عن الجهود الرائدة الفردية، فإنك تستطيع القول بأن الجهود الفعلية لم تقم إلا بعد الحرب العالمية الأولى. واستطاعت هذه الجهود أن تنجح لفترة، ولكنها سرعان ما فقدت ما نجحت فى الحصول عليه(*) لعوامل أربعة:

١) الرجوع إلى القرآن نفسه يكشف عن التأثير الدخيل، الذى أوقع ظلمًا بالمرأة، (أي التأثر بعادات وأخلاق الشعوب التي أسلمت من غير العرب) وأنصف الذين سعوا إلى تحريرها مما ألحق بالإسلام من مزاعم، مثلما حدث فى مصر.

(*) Erdmute Heller, Die Situation der Frau in der islamischen Gesellschaft, in: Im Namen Allahs, hrsg. v. Axel Buchholz und Martin Geiling, 1980.

٢) على حين اتجهت العراق وسوريا فى تحرير المرأة إلى الأخذ عن الفكر الاشتراكي أو الأيديولوجية الاشتراكية.

٣) أما تونس فقد استندت - فى علمانية صارمة - إلى القوانين والمثل العليا الأوربية مثلما حدث بتركيا الحديثة.

٤) وقد تمسكت مجموعة من الدول الأصولية بتقاليد السلف الملتزمة مثل الوهابيين بالمملكة العربية السعودية.

على حين ارتدَّت دول أخرى مثل إيران الخومينية إلى الأشكال شديدة التزمت. وقد كانت إيران هى البلد الأول الذى خرج منه النقاب، والفصل بين الجنسين، ومن ثم تمسكت بالأصل الذى كانت تعيشه، ولذلك فعندما صَرّح آية الله الخومينى[٣٢] عندما كان فى فرنسا بقوله: «إنني فى هذا البلد محافظ، وفى الجمهورية الإسلامية للنساء الحق فى الانتخاب، وأن يمارسن أي مهنة يُرِدْنها، وأن ينعمن بالتعليم، إلا أن ذلك لابد أن يكون فى صيغة خاصة؛ إذ يلزم أن يتحجبن بحجاب بسيط، وأن يُفصلن عن الرجال ما أمكن ذلك».

وعندما رجع إلى وطنه طالب فى خشونة «أن تلبس المرأة الشادور Schador (الحجاب) أو أن تغطي رأسها بحجاب عند ذهابها إلى العمل». وقد تسبب ذلك فى قيام آلاف الفتيات والنساء الصغيرات بإضراب دام يومًا، مما استدعى قيام رجال مزودين بالسياط ذات الشُّعب بفضه فى معارك عمت الطرقات.

وقد حدث بالعراق نقيض ذلك؛ إذ إن العراق كان يحكمه حزب البعث، وعُرِف رئيسه صدام حسين بأنه علماني منذ كان نائبًا للرئيس، وأنه مؤمن

بالمرجعية الاشتراكية المادية، كما يؤمن بأن تحرير المرأة تحريرًا كاملا يُعَدّ هدفًا رئيسًا من أهداف الحزب والثورة، أصدر منشورًا جاء فيه «إن كل عزل للمرأة أو تقييد لمشاركتها فى المجتمع يعنى سلب البلد نصف كفاءاتها وطاقاتها الفكرية والإنتاجية والحربية».

وقد حصلت المصريات[٣٣] بعد إعلان قيام الجمهورية فى مصر عام ١٩٥٢، وبعد أن قمن بنضال متواصل، على المساواة القانونية والاجتماعية بالرجل، وإن كان التطبيق العملي لذلك لم يغير من الواقع الفعلي كثيرًا. وقد قدمت السيدة جيهان السادات – وكانت المحرك الذى تستحق أفضاله كل تقدير – خدمات جليلة لأخواتها المصريات وشجعتهن بالقول:

«أنفضن عنكن التقاليد السلبية الموروثة، ومارسن العمل فى استقلالية، وساعدن فى رفع مستوى أسركن، فإن لكن حقوقًا أكثر مما تعتقدن».

وكانت الخطوات التي توالت عظيمة، فقد سبقها بوقت قصير تعيين الأستاذة الدكتورة عائشة راتب - وهى أستاذة القانون الدولي، فائقة الذكاء والجمال - سفيرة لبلدها فى بون، وأحضرت معها أربع سيدات شابات شغلن وظائف دبلوماسية فى السفارة المصرية ببون.

وقد اهتم العديد من الرجال[٣٤] فى أثناء ذلك بهذا الشأن. ولعل هذا الاهتمام يتمثل فى الكلمات التي ناشد بها مولود قاسم وزير الشئون الدينية بالجزائر السيدات: «لتكنَّ سيدات مبدعات فى كل الميادين، ولكن لا تعملن على التخريب. لا تحلقن للرجال شواربهم كي تصنعن منها حبالاً، ولا تبدلن كرامته، فتسلبنه سلطانه. اجتنبي أيتها المرأة أن تجيبي الرجل بقولك: أنا مستقلة

وحرة، فأنتِ قرة عينه، واللؤلؤة فى قلبه ودرته الغالية».

وتصف المصرية دكتورة لطيفة الزيات[٣٥] الحالة الروحية التي وجدت المرأة نفسها فيها بين التمسك بالتقاليد والتحرر منها فى مصر بقولها: «لقد تعرفت أمهاتنا حالتهن تمامًا، أما نحن فضائعات، لا ندرى إن كنا ننتمي إلى الحريم أم لا، وإذا كان الحب مباحًا أو حرامًا، خيرًا أو شرًا، فوالدانا يقولان الحب محرم، ولكن الإذاعة الحكومية تبث أغاني الحب ليل نهار، وكُتُبنا تكتب أننا محررات، فإذا ما صدقناها فقدنا سمعتنا، أي حالة هذه؟».

أما اللبنانية ليلى بعلبكي فعندها بوصلة يقينية: «نحن أنفسنا نشبع احتياجاتنا التي تنبع من داخل طبيعتنا. وطبيعتنا الداخلية هى ميراثنا، ولكن ميراثنا يُغاير ماضينا الذي نرفضه. إننا نعتقد يقينًا أن الخلط بين الميراث والماضي يضعنا في مأزق خطير، أضرَّ بنا أيما ضرر».

وحينما سُئلتُ[*] فى أحد المؤتمرات الإسلامية عن النصيحة التي أقدمها للنساء المسلمات قلتُ: «وإذا خلعتن الحجاب لتطوين الماضي، لا ينبغي أن تتمثلن بالأوربيات والأمريكيات أو الروسيات، ولا تلجأن إلى تبني أي أيديولوجية، فإن هذا لن يجلب عليكن إلا التغريب الدخيل، وفقدان المقومات الشخصية، وإنما يجب أن تتمسكن بالإسلام القويم، وتراجعن تاريخ من سبقتكن من النساء - فى تاريخكن القديم - اللاتي عشن وفقًا لقانون الفطرة، وأن تلتمسن عندهن القيم والمثل، وأن تكيّفن ذلك مع متطلبات العصر

(*) هذا كلام المؤلفة (المترجم).

الضرورية، وأن تؤدين واجبكن بإعداد جيل عربي عصامي يعتمد على نفسه فى المستقبل».

وقد بدا على وجوه الفلسطينيات فى فلسطين المحتلة تحدٍ خاص- فبينما يمكث آلاف الرجال فى المعتقلات، تحتم على النساء أن يرعين الأسر، ويربين الأطفال، وأن يحمين أنفسهن والأسرة من جور الجنود الهمجية Soltadeska (السلطوية). فالنساء الفلسطينيات لا تؤدين دورًا جديدًا فقط، وإنما رُبين لتولي الأدوار القيادية فى المجتمع، وكن يشاركن على كل المستويات الممكنة فى الانتفاضة (أي حرب التحرير). وبهذا تكتب النساء الفلسطينيات بأنفسهن التاريخ، فهن يحملن مسئولية تقرير المصير فى التحول الاجتماعى، ويرأسن المؤتمرات الشعبية، وينظمن اللجان التعاونية والإنتاجية، ويوفرن أماكن العمل ويشغلنها. وفضلاً عن ذلك كله، فإنهن فدائيات، جريحات، سجينات، مُنكَّلٌ بهن. لهذا كله سوف يسهمن مستقبلاً فى تقرير مصيرهن ومصير وطنهن فلسطين، وسوف تتحقق المساواة وتحرير المرأة عندما تتحرر جميع الأرض الفلسطينية المحتلة(*).



(*) Anita Vitello und Rima Nabulsi, Die Frau in der Intifada, in: Zschr. Palästina, 3. Jg. Nr. 2, S. 13, I. 4. 1990.

تعليقات الفصل الرابع

١) كتب الشيخ محمد الغزالي في التسعينيات من القرن الماضي[1]. «إن الإسلام سوّى بين الرجل والمرأة في جملة الحقوق والواجبات. وإن كانت هناك فروق معدودة، فاحترامًا لأصل الفطرة الإنسانية وما ينبني عليها من تفاوت الوظائف، وإلا فالأساس قوله تعالى: «فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض» وقوله تعالى: «من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون».

٢) توماس (القديس) Thomas ou Didyme (St)

أحد رسل المسيح بالقرن الأول الميلادي. يهودي من الجليل. ذكر في إنجيل يوحنا ثلاث مرات، المرة الأولى بعد أليعازر، والثانية عندما سأل عن الطريق الواجب اتباعها للوصول إلى المسيح، والثالثة عند رفضه الإيمان بقيام المسيح قبل أن يلمس جراح المسيح (ولذلك يسمى توماس الكافر). يقال إنه بَشّر في بلاد الماديين (أي سكان ميديا) وفارس والهند. وينسب إليه كذلك إنجيل أبوكريفي على جانب كبير من الأهمية.

٣) مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) Martin Luther

زعيم الإصلاح البروتستانتي، رُسّم قسيسًا عام ١٥٠٧، ثم عين لرعاية كنيسة مدينة فيتنبرج Wittenberg. اقتنع بأن رجاء الخاطئ موكول بنعمة الله، وبالفداء يوم المسيح، يتقبلهما الإنسان عن طريق الإيمان. زار روما عام ١٥١٠م، وساءه الانحلال الروحي المتفشي في الأوساط الكنسية العليا. وبعد

---

(١) في كتابه: قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الشروق ٢٠٠٥، ص٣٥.

عودته إلى فيتنبرج بدأ يضع خططًا لإصلاح عقيدة الكنيسة وطرق العبادة فيها. وقد تحدى تيتزل Tetzel ١٥١٧ الذي كان يبيع صكوك الغفران، واحتج على هذه المفاسد، وعلق على أبواب كنيسة القلعة القضايا الخمس والتسعين القصيرة، فأثار بذلك غضب السلطان الكنسي. ورفض لوثر في أوجسبرج Augusburg سحب احتجاجاته، ولم يكتف برفضه، بل أعلن مقاومته الصريحة لبعض العقائد المرعية، فأثار غضب الكنيسة الكاثوليكية، وبخاصة عند تأييده النزعة القومية الجديدة التي ظهرت في ألمانيا لتتولى الدولة بها إدارة شئون الكنيسة، فقررت الكنيسة حرمانه. ولما وصله قرار حرمانه من البابوية أحرقه علانية، فحرم بذلك من غفران الكنيسة رسميًا ١٥٢١، واستدعى للمثول أمام ديت تورمز. وعندما صدر أمر القبض عليه، لجأ إلى قلعة فارتبورج Wartburg حيث قام بترجمة العهد الجديد إلى الألمانية، وشرع في ترجمة الكتاب المقدس كله. ثم عاد إلى فيتنبرج حيث أمضى بقية حياته.

٤) الآية الكريمة من سورة الأعراف (آية ٢٠): ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ** ﴾. وفي سورة البقرة (آية ٣٦) ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ** ﴾ وفي سورة طه (آية ١٢٠، ١٢١) ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ** ﴾.

ثم يتحدث القرآن عن توبة آدم وحواء في غير موضع، وعفو الله عنهما وقبول الله تعالى توبتهما، ففي سورة البقرة (آية ٣٧) ﴿ **فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ**

فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾. وفي سورة الأعراف آية (٢٣) ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾. وفي سورة طه (آية ١٢١، ١٢٢) ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾.

٥) الإسلام هو الطاعة والإذعان، والصلح والإيمان، والخلوص، والبراءة من الشوائب الظاهرة والباطنة. وهو متضمن الأحكام الملزمة للبشر، وهي ثلاثة أنواع:

أ- أحكام اعتقادية تتعلق بما يجب على المكلف اعتقاده في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ب- أحكام خلقية تتعلق بما يصدر عن المكلف من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات.

ج- أحكام عملية تتعلق بما يجب على المكلف من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات.

جاء الإسلام بمجموعة من المبادئ والأحكام التي تنظم له مناشطه في الحياة: حياته وحياة الآخرين بجميع أبعادها الروحية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. ومن هذه المبادئ ما نص عليه الإسلام من الخلوص بين الإنسان وخالقه؛ بحيث لا يكون تابعًا لأحد من إخوانه في البشرية يكون وسيطًا بينه وبين خالقه، فلا كهانة ولا كهنوت، ولا رجال دين في الإسلام، وإنما هناك علماء مجتهدون.

وبهذا المبدأ وضع الإسلام أساس الحرية الروحية للإنسان. ومن مبادئه المساواة العامة بين البشر. فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. ونص الإسلام كذلك على تقرير مبدأ الشورى في الحكومة واعترف بحق العقل في تقرير المعتقدات وتحديد المعاملات. وآخى الإسلام بين الدين والعقل، وآخى بينه وبين المدنية.

ومن مبادئه التسامح الديني، فقد أمر أتباعه أن يبروا الأجانب عن دينهم ويعدلوا معهم، إذا لم يقاتلوهم في الدين، ولم يخرجوهم من ديارهم. بل إنه يشجع الكفايات الأجنبية.

٦) الحقوق الزوجية في الإسلام:

لا يمكن أن يكون هناك أمن وطمأنينة في الأسرة إلا بوجود دعائم قوية وأسس متينة. وجاء في سورة الروم آية ٢١: ﴿ **وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾.

وقد قرر القرآن الكريم حقوق المرأة في قاعدة تشريعية؛ إذ جاء بسورة البقرة، آية ٢٢٨ ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾.

وبهذا نصت الآية على أن الحقوق بين الزوجين متبادلة طبقًا لمبدأ: كل حق يقابله واجب، فحقوق الزوجة على زوجها:

١ – المهر، ٢- النفقة، ٣- حق المرأة في اختيار زوجها، ٤- وأن يعلمها الزوج أمور دينها، ويكون عونًا لها على طاعة الله. ٥) أن يحصنها ويعفها.

وحقوق الزوج على زوجته: ١- القوامة (وهي رياسة الرجل الأسرة في البيت). ٢- الطاعة. ٣- أن تقر في بيته، ولا تخرج إلا بإذنه. ٤- أن لا تأذن لأحد أن يدخل بيته إلا بإذنه. ٥- الطاعة. ٦- ألا تصوم نفلاً وهو شاهد إلا بإذنه. ٧- القيام بخدمته. ٨- أن تحفظه في ماله وعرضه وأولاده. ٩- أن تشكر له فضله ولا تجحده. ١٠- ألا تفشي له سرًا.

وثمة حقوق مشتركة بين الزوجين:

١- حسن المعاشرة. ٢- حل الاستمتاع. ٣- حرمة المصاهرة بين الزوجين.

٤- ثبوت التوارث بين الزوجين. ٥- ثبوت النسب[١].

٧) آدم وحواء بالعهد القديم والجديد.

ورد بالعهد القديم بسفر التكوين، أصحاح٣ فقرة ١-٦ «وكانت الحية أصل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله. فقالت للمرأة: أحقًا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل. وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا. بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل».

وجاء في العهد الجديد برسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس «... ولكنني أخاف أنه كما خدعت الحية حواء بمكرها هكذا تُفْسَدُ أذهانكم عن البساطة التي في المسيح»[٢].

فالحية في النصين أغوت حواء، إذًا من الذي أغوى آدم وجعله يأكل مثلما تأكل حواء؟ ورد في رؤيا يوحنا اللاهوتي: «فَطُرِحَ التنينُ العظيم الحيةُ القديمةُ المدعوُّ إبليس والشيطان الذي يضل العالم كله»[٣].

ففي العهد القديم يلقي آدم المسئولية على حواء التي أغوته وأغرته، في حين لم يرد ذكر للتوبة، وفي العهد القديم أيضًا يعاقب الله الحية عقابًا قاسيًا بإسقاط

(١) راجع أيضًا ما ورد عن الحقوق الزوجية بالتعليق رقم ١٦.

(٢) رسالة بولس إلى كورنثوس، أصحاح ١١، فقرة ٣.

(٣) رؤيا يوحنا اللاهوتي، أصحاح ١٢، فقرة ٩.

أرجلها ويلعنها[1]. أما حواء فإنها تعاقب عقابًا قاسيًا أليمًا بتكثير آلام الحمل ومتاعب الولادة.

ولكن هل ترث بنات حواء جميعهن هذه العقوبة فتتألمن آلام الحمل وترثن متاعب الولادة؟ هل هذه المتاعب عقوبة إلهية أم سنة كونية وابتلاء من الله سبحانه للمرأة؟ فإن صبرت على هذه الآلام فلها أجر صبرها، وإن ماتت بسبب حملها أو وضعها فلها أجر الشهداء[2].

ويكتفي دكتور أحمد محمد الشرقاوي هنا بنقل ما ذكر بالتوراة بالنسبة لحواء ولعل هذا ما يخدم نص المؤلفة زيجرد هونكه لتقيم عليه ما تريده من رأي.

ولكن ما ورد بعد ذلك بالنص التوراتي يتصل بعقاب آدم أيضًا؛ إذ ورد بالفقرة ١٧ «وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. ١٨ وشوكًا وحسكًا تُنبت لك وتأكل عُشب الحقل. ١٩ بعرق وجهك تأكل خُبزًا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تُراب وإلى التراب تعود».

ولم يذكر بالتوراة أن الله تعالى تقبل توبتهما وعفا عنهما، وهذا ما ورد بالقرآن الكريم.

٨) البطريرك كريزوستومس (٣٥٤-٤٠٧م) Chrysostomus, Johannes
معلم ديني يوناني، وواعظ مشهور للكنيسة اليونانية، ثم عين بطريركًا

---

(١) التكوين، أصحاح ٣، فقرة ١٤، ١٥.

(٢) نقلاً عن: المرأة في القصص القرآني لدكتور أحمد محمد الشرقاوي، مجلد أول ص١٢٣ - ١٢٩، دار السلام ٢٠٠٣.

للقسطنطينية، أحرق بسبب مواقفه المتشددة.

لم تكن مواعظه مميزة برصانة لغتها وبلاغتها وبأهمية مضمونها فحسب، ولكنها كانت شهادة كنسية عن العصر الذي عاشه وعن الحياة الثقافية آنذاك.

٩) بيتروس دامياني (١٠٠٦ - ١٠٧٢) Damiani Petrus. hi

القديس دامياني. كان زاهدًا ثم أصبح كاردينالاً Kardinal von Ostia اشتهر بالإصلاح الجريجوري

١٠) مطارق الساحرات Hexenhammer

«المطرقة التي تهشم الساحرات» كتاب مختصر نشره دمينيكارن، وياقوب شبرنجر سنة ١٤٨٧ Heinrich Deminikaren und Jacob Sprenger عن عقائد المشتغلات بالسحر، ويستخدم باعتباره تعاليم عن ممارسة السحر.

١١) الحديث ورد لدى البخاري جـ٩ / ص٢١٨ «واستوصوا بالنساء خيرًا، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإنّ أعوج شيء في الضلع أعلاه، إن ذهبتَ تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج».

وورد كذلك «ألا استوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عوانٍ عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة» الترمذي رقم ٣٠٨٧ (من تفسير سورة التوبة).

والحديث الثاني رواه أبو هريرة (رضه) قال: جاء رجل إلى رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله من أحق بحسن صحابتي؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك» البخاري جـ١٣ / ص٦٠٤.

١٢) «الجنة تحت أقدام الأمهات»

ورد الحديث بالجامع الصغير للسيوطي، وذكر أنه حديث حسن، أخرجه

الخطيب في الجامع عن أنس، وأخرجه القضاعي في مسنده. يراجع في ذلك: الجامع الصغير للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠. ج١ ص٢٢١.

١٣) وأد البنات في الجاهلية:

كان بعض العرب قبل الإسلام يرى أن البنت حمل فادح يضعف دونه المرء ويشق عليه احتماله ويشفق على نفسه من وصمة الذل، ووصم العار، إذا وهنت نفسها أو وقعت في زمرة السبايا إذا أغار عليهم الأعداء وهزموهم. فكان العربي إما أن يستبقيها على كره لها، وترقب لموتها، أو يهرع إلى الحفر فيقذفها في جوفها، ويهيل التراب عليها، بدلاً من أن يدعها تستقبل الوجود وتعيش حياتها.

وكانت بعض القبائل تئد البنات خشية الفقر. والبعض الآخر يقول: الملائكة بنات الله، فيقتلون بناتهم زعمًا بأنهن يلحقن ببنات الله.

وقد حرّم الإسلام ذلك، فقد جاء في سورة الإسراء آية ٣١ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾.

وجاء في سورة التكوير آية ٨، ٩ ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾.

١٤) معاملة البنات معاملة البنين:

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وضع الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) أول لبنة في الخطاب المنصف للمرأة. ففي كتابه «المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين» تقدم المرأة ككائن اجتماعي له مكانته ودوره المتكامل مع دور الرجل ويتحدث عن تشريك البنات مع الصبيان في التعلم والتعليم وكسب المعرفة.

١٥) تعدد الزوجات:

يقول فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة: «يكون عادة في الأوقات التي يقل فيها عدد الشبان الصالحين للزواج، ويكثر عدد النساء الصالحات للزواج كالحال عقب الحروب، فإن التعدد يكون ضرورة اجتماعية، لأن النساء اللاتي لا يجدن أزواجًا، إما أن تموت أنوثتهن، وإما أن يطلبنها من غير الحلال، وفي ذلك فساد لهن وإضرار لا حدَّ له بغيرهن، إذ يفسدن الأزواج على الزوجات، وخير لهن وللمجتمع أن يتزوجن من أن يصرن على هذه الحال».

ويقول الشيخ أبو زهرة أيضًا «وقد وُجدت منذ سنة ١٩٢٦ فكرة تقييد تعدد الزوجات بأن يكون بإذن القاضي. والقاضي لا يأذن إلا إذا تحقق من العدالة والقدرة على الانفاق على زوجتيه وعلى من تجب عليه نفقته، وقد أخذت بذلك تونس في تشريعها الأخير وأخذت به في سوريا على سبيل الجواز بالنسبة للقاضي أي أنه يجوز له ألا يأذن بالتعدد لا أنه يجب عليه ألا يأذن، كما جاء في قانون الأحوال الشخصية».

«وما زالت دعوات نسائية وغير نسائية تنادي به، ونحن نرى أنه لا يصح أن يكون هذا التشريع»[1] وعدد سيادته النقاط التي يعترض بها على مثل هذا التشريع.

١٦) الطلاق (أبغض الحلال عند الله)

شرع الله عقد الزواج ليكون مؤبدًا، ولكن لكي يكون عقد الزواج مستمرًا لابد أن تكون المودة بين الزوجين ثابتة لا تنقطع، فإذا انقطعت المودة، ولم يكن ثمة أمل لبقائها، بأن حاولا الإصلاح بأنفسهما وبحكمين من أهلهما فلم يجدا ذلك، كان هناك احتمال لأمور ثلاثة:

---

(١) محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ص٧٨.

١- أن تبقى الزوجية ويبقى الاتصال مع انقطاع حبال المودة، وذلك غير معقول في ذاته.

٢- أن ينفصل الزوجان انفصالاً جسديًا، وكل منهما يسير في سبيله، وهذا أمر غير مرض في ذاته.

٣- أن تنقطع الحياة الزوجية بالطلاق.

وقد اختار الإسلام الأمر الأخير لأنه المعقول في ذاته، ولكنه لاحظ الجانب النفسي في الرجل حين الطلاق – لأنه بيده وليس بيد المرأة – فقيد الطلاق بالعدد، وبزمان الطلاق، وبوضعه فأوجب النبي ﷺ أن يكون الطلاق مقيدًا بما يلي:

١- ألا يكون طلقة واحدة.

٢- ألا يكون في حالة حيض.

٣- ألا يكون في طهر قد دخل بها فيه.

ومع ذلك فإن الإسلام لم يهمل جانب المرأة، بل جعل الخلع، وهو أن تطلب الطلاق في نظير أن تعيد له ما أنفقه في سبيل زواجها من مهر. وقد أصبح هذا ميسرًا الآن في مصر، وتوجد محكمة الأسرة للنظر في طلبات الخلع. وذلك فضلاً عن الإمكانيتين الشرعيتين الأخريين[1].

١٧) زواج المرأة:

الزواج في الإسلام ليس عملية بيع وشراء، والمرأة ليست سلعة معروضة للبيع. وإنما الزواج أساس العلاقة بين الرجل والمرأة، وكل العلاقات ما عدا الزواج حرام تستوجب أشد العقاب. وعقد الزواج يفيد حق العشرة بين الرجل والمرأة وتعاونهما مدى الحياة، فالزواج عماد الأسرة، وللمرأة الحق في

(١) المرجع السابق، بتصرف.

اختيار الزوج أو الموافقة عليه أو رفضه لأسباب مظهرية أو معنوية، ولا تُكره امرأة على الزواج. ولكي يتوافر الاختيار السليم شرع الإسلام الخطبة، وأن يرى أحدهما الآخر ولكن ليس في خلوة، بل في حضرة الوالدين أو الأقارب. والخطبة ليست ملزمة لأحد من الطرفين.

وليس يلزم العدول إلا تعويض الأضرار المادية التي لحقت الخطوبة فقط. وعند موافقة الطرفين والإيجاب والقبول - فالإيجاب يصدر عن أحد العاقدين أولاً، والقبول ما يصدر عن الآخر ثانيًا - لا يستلزم أن يحضر العقد للشهادة رجلان أو رجل وامرأتان، ولا ينعقد الزواج بشهادة النساء وحدهن.

وبعد عقد الزواج يكون للزوجة حقوق على زوجها، وللزوج حقوق على زوجته، وثمة حقوق مشتركة.

فمن حقوق الزوجة على زوجها:

١- حق العدل، وإذا كان للزوج رياسة البيت، فإن هذا الحق أوجب عليه حقًا لها، وهو العدالة فتأكل مما يأكل، وترتدي من مثل ما يرتديه، وتسكن بما هو في طاقته، مع معاملتها بالمعروف، ولا يؤذيها بالقول أو بالفعل.

٢- حق المهر: وهو حق للزوجة على زوجها، يثبت بمقتضى العقد، وهو من قبيل معاونة الزوج للزوجة على الاستعداد للحياة الزوجية. وليس يلزمه تقديمه كله عند العقد، بل يصح أن يؤجل بعضه بشروط. ويحق للمرأة أن تمتنع عن الانتقال إلى بيت الزوجية حتى يقدم لها معجل الصداق (المهر).

٣- حق النفقة: فهي تقوم على رعاية البيت، وتتولى شئون الأولاد، في مقابل ذلك على الزوج أن يقوم بالأعباء المادية، ولو كانت الزوجة محترفة وموظفة فإن نفقتها أيضًا على زوجها مادام قد رضي باحترافها.

أما حقوق الزوج على زوجته فهي:

١- حق الطاعة. ٢- ولاية التأديب الثابتة. ٣- ثبوت نسب من تأتي به من ولد.

والحقوق المشتركة ثلاثة:

١- حق العشرة الزوجية. ٢- حرمة المصاهرة. ٣- التوارث بينهما[١].

١٨) السيدة خديجة بنت خويلد:

كانت أول قلب خفق بالإسلام. تزوجها الرسول محمد ﷺ وكان يثني عليها، ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين. قالت عنها عائشة أم المؤمنين: «ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة، من كثرة ذكر النبي ﷺ لها». لم يتزوج الرسول امرأة قبلها، وجاءه منها ستة أولاد، ولم يتزوج عليها قط. وكانت مبعث سكينة عند تدافع النوب، واشتداد الخطوب. عاشت مع النبي خمسة وعشرين عامًا، منها عشرة في الإسلام.

١٩) السيدة عائشة بنت أبي بكر:

زوج الرسول، أم المؤمنين.أول ما لقنت المرأة من أدب الله تعالى ورسوله ﷺ الاعتصام بالصبر، إذا جل المصاب. روت الحديث عن النبي ﷺ. ودفن الرسول في بيتها. انضمت إلى طلحة والزبير عندما ثارا على عليّ بن أبي طالب عندما حملاه تبعة مقتل عثمان وشدوا له جمعًا من الناس لمحاربته ونشبت معركة جرح فيها طلحة جرحًا أودى بحياته، وفرّ الزبير من المعركة، وقتل وهو يفر، وتوقفت المعركة أمام الجمل الذي امتطته عائشة تستنفر من على ظهره المقاتلين، حسب العادة العربية القديمة. ولم تتم الغلبة لعلي إلا بعد أن عقر الجمل، الذي خلع اسمه على هذه المعركة في عام ٣٦هـ / ٦٥٦م. توفيت عائشة رضي الله عنها

(١) يرجع أيضًا إلى ما ورد عن الحقوق الزوجية بالتعليق رقم ٦.

عام ٥٩هـ / ٦٧٨م، وهي في السادسة والستين من عمرها.

٢٠) مجالس القضاء:

رجعتُ إلى كثير من المراجع التي تقدم تراجم للنساء الفقيهات، فلم أجد ذكرًا لمن أصبحت منهن قاضية أو من حظيت بلقب قاضي القضاة، ويمكن أن يراجع في ذلك الجزء الثامن من كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد كاتب الواقدي (تحقيق زاخاو وتلاميذه)، أو الطبعة التي أصدرتها دار التحرير للطبع والنشر بعد ترجمة مقدمات وتعليقات المستشرقين إلى العربية ١٩٦٨ – ١٩٧٠.

وقد وجد الكثير من النساء ممن كن يفتين بالمساجد، ومنهن من لقبت بفقيهة الفقهاء أو الفقيهات. وقد جمع الأستاذ محمد بن أحمد إسماعيل المقدم في كتابه «المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية» ترجمات عن المرأة العالمة، وعَدّ منهن سبعًا وعشرين عالمة نذكر منهن:

- عَمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زُرارة (ت ٩٨ أو ١٠٦هـ) حدثت عن عائشة، وأم سلمة.
- أم علي تقية: عالمة مصرية فاضلة.
- أم الخير الحجازية: تصدرت حلقات وعظ وإرشاد المسلمات بجامع عمرو بن العاص.
- فاطمة بنت محمد بن أحمد التنوخية (ت ٧٧٨هـ): خاتمة المسندين في دمشق وكانت عالمة بالحديث.
- فاطمة بنت السمرقندي: فقيهة عالمة بالفقه والحديث.
- ستيتة بنت القاضي أبي عبدالله الحسين بن إسماعيل المحاملي: العالمة، الفقيهة، المفتية.

٢١) الخليفة القادر بالله أحمد بن الأمير إسحق بن المقتدر (٣٨١ – ٤٢٢هـ / ٩٩١ – ١٠٣١م).

بعد أن خلع الخليفة الطائع نفسه، تسلم الأمير القادر بالله الخلافة، وله يومئذٍ أربع وأربعون سنة. وكان أبيض كث اللحية كثير التهجد والخير والبر صاحب سنة وجماعة وكان من أفقر الخلفاء، قال الخطيب عنه «كان من الديانة وإدامة التهجد وكثرة الصدقات على صفة انتشرت عنه. صنف كتابًا في الأصول فيه فضائل الصحابة رضي الله عنهم، وكفّر فيه المعتزلة القائلين بخلق القرآن، فكان يقرأ كل جمعة ويحضره الناس مدة».

٢٢) جاء بالنجوم الزاهرة[١] عن الحاكم بأمر الله «وفي سنة أربع وأربعمائة منع النساء من الخروج في الطريق، ومنع من عَمَل الخفاف لهن، فلم يزلن ممنوعات سبع سنين وسبعة أشهر حتى مات».

ومن أغرب المراسيم التي أصدرها أثناء حكمه:

- أمر اليهود والمسيحيين بشد الزنار ولبس الغيار وشعارهم بالسواد شعار الغاصبين العباسيين.
- وقرئ سجل في الأطعمة بالمنع من أكل الملوخية والبقلة المسماة بالجرجير والمتوكلية المنسوبة إلى المتوكل.
- المنع من عجن الخبز بالرجل والمنع من أكل الدلنيس، والمنع من ذبح البقر التي لا عاقبة لها إلا في أيام الأضاحي، وما سواها من الأيام لا يذبح منها إلا ما لا يصلح للحرث.

---

(١) لابن تغري بردي، ج٤ ص١٧٦ - ١٩٢.

- وقرئ سجل آخر بأن يؤذن لصلاة الظهر في أول الساعة السابعة ويؤذن لصلاة العصر في أول التاسعة.
- إصلاح المكاييل والموازين، والنهي عن البخس فيهما، والمنع من بيع الفقاع، وعمل البتة لما يُؤثَر عن عليّ من كراهة شرب الفقاع.

٢٣) يقول الإمام محمد عبده «والحق أن الانتقاب والتبرقع ليس من المشروعات الإسلامية لا لله ولا للأدب، بل هما من العادات القديمة السابقة على الإسلام والباقية بعده، ويدلنا على ذلك أن هذه العادة ليست معروفة في كثير من البلاد الإسلامية، وأنها لم تزل معروفة عند أغلب الأمم الشرقية التي لم تتدين بدين الإسلام، إنما من مشروعات الإسلام ضرب الخمرِ على الجيوب كما هو صريح الآية (النور ٣٠، ٣١)، وليس في ذلك شيء من التبرقع والانتقاب»[١].

ويرى الإمام أن أمر الحجاب بمعنى الاحتجاب عن الاختلاط بالرجال أمر خاص بنساء النبي ﷺ دون عامة النساء، ويؤكد الإمام – خلافًا لمعاصريه – عدم جواز الحجاب لغير نساء النبي، ولو من باب التأسي والاستحباب. وذلك على أساس قوله تعالى: «لستن كأحد من النساء» يشير إلى عدم الرغبة في المساواة في هذا الحكم، كما ينبهنا إلى أن في عدم الحجاب حِكمًا ينبغي لنا اعتبارها واحترامها، وليس من الصواب تعطيل تلك الحكم مرضاة لاتباع الأسوة.

ويقول الأستاذ عبدالله عفيفي[٢] «لما شاع الانحلال في كافة أرجاء المجتمع في نهاية العصر العباسي أرجع الرجال علة ذلك إلى المرأة وزوروا أحاديث الرسول ﷺ نحوها، وظهر الحجاب وأسدل دونها الأستار.. ولقد أغرق

(١) الأعمال الكاملة مجلد٢ ص١٠٩ (ويرجع إلى ما قاله الإمام محمد عبده عن حجاب النساء من الجهة الدينية بالمرجع نفسه ص١٠٤ – ١١١).

(٢) في كتابه: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ج٣ ص١٠٦، ١٠٧.

الناس في حجاب المرأة حتى عيب عليهم أن يذكروا اسمها.. بعد أن كان معاوية يتحدث عن نفسه في مجلس خلافته فيبدأ حديثه بقوله «أنا ابن هند».

ويقول الإمام محمد عبده: «وبالجملة فقد خلق الله هذا العالم، ومكن فيه النوع الإنساني ليستمتع من منافعه بما تسمح له قواه في الوصول إليه. ووضع للتصرف فيه حدودًا تتبعها حقوق، وسوّى في التزام الحدود والتمتع بالحقوق بين الرجل والمرأة من هذا النوع. ولم يقسم الكون بينهما قسمة ضيزى[1]، ولم يجعل جانبًا من الأرض للنساء يتمتعن بالمنافع فيه وحدهن، وجانبًا للرجال يعملون فيه في عزلة عن النساء، بل جعل متاع الجياة مشتركًا بين الصنفين، شائعًا تحت سلطة قواهما بلا تمييز. فكيف يمكن منع هذا لامرأة أن تتمتع بما شاء الله أن تستمع به مما هيأها له بالحياة ولواحقها من المشاعر والقوى. وما عرضه عليها لتعمل فيه من الكون المشترك بينها وبين الرجل إذا حظر عليها أن تقع تحت أعين الرجال إلا ما كان من محارمها؟ لا ريب أن هذا مما لم يسمح به الشرع ولن يسمح به العقل»[2].

٢٤) ولادة بنت المستكفي (ت ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م):

شاعرة أندلسية من بيت الخلافة، شهرت بأخبارها مع الوزير ابن زيدون الشاعر، وابن عبدوس. أحبت ابن زيدون، وكرهت الآخر، حتى وقع بينها وبين ابن زيدون ما وقع من جفوة. فأرسل لها رسالته التهكمية في هجاء ابن عبدوس.

---

(١) (في الأصل «أفزاز» أي انفراد).

(٢) الأعمال الكاملة مجلد ٢، ص١٠٦، ١٠٧.

في شعرها رقة وعذوبة، أكثره في الغزل، ولها هجاء قليل. توفيت في قرطبة، ألف عنها عبد الرازق الهلالي رسالة ولادة وابن زيدون.

من شعرها:

وَدّعَ الصبرَ محبٌّ ودعك ذائعٌ من سره ما استودعك

يقرع السِّنَّ على أن لم يكن زاد في تلك الخطى إذ شيعك

يا أخا البدر سناءً وسَنى حَفظ اللهُ زمانًا أطلعك

إن يُطِلْ بُعْدُكَ ليلي فلكم بِتُّ أشكو قصرَ الليلِ معك

ولابن زيدون فيها قصيدة تفيض لوعة وأسى وحنينًا وهو في سجنه أو منفاه يعاني غصص القهر والحرمان، وكثيرًا ما استمعت إلى جواريها، وهن يغنينها، ومطلعها:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لُقيانا تجافينا

بنتم وبنا فما ابتلّت جوانحنا شوقًا إليكم ولا جفت مآقينا

٢٥) إيروس Eros إله الحب عند اليونان. وعندهم أنه ابن آريس Ares وأفروديت Aphrodite وهو يُمَثَّل بصبي له جناحان وفي يده قوس وسهم. وهو يماثل الإله أمور Amor عند الرومان أو كيوبيد Cupido. وقد جاء ذكره في كثير من التأملات الفلسفية اليونانية (مثل تأملات أفلاطون).

٢٦) جميل بثينة هو جميل بن عبد الله بن معمر العذري من بني عذرة الذين اشتهروا بالحب العذري، وقد أصابه ما أصاب غيره من هؤلاء الشعراء الغزلين. أحب بثينة بنت حبأ بن أبي ربيعة من عذرة، وهي ابنة عمه، وكانا يقيمان في وادي القرى، وهو موضع في الحجاز قريب من المدينة. ويقال إنه أحبها وهو لا يزال غلامًا. وقد ذكر في شعره عدة مرات أنه أحبها قبل أن يولد أو وهو وليد،

ومن ذلك[1]:

عَلِقتُ الهوى منها وليدًا، فلم يَزَل ... إلى اليوم يَنمي حُبُّها ويزيدُ

وقوله:

أبى القلب إلا حب بَثنَةَ لم يُرد ... سواها، وحبُّ القلب بَثنَةَ لا يجدي

وقال:

تعلّق روحي روحَها قبل خَلقِنا ... ومن بعد ما كُنّا نِطافًا وفي المهدِ

ويقول:

تعلقتها، والنفسُ مني صحيحةٌ ... فما زال ينمي حُبُّ جُمْلٍ، وتَضْعُفُ

إلى اليومِ، حتى سَلّ جِسمي وشَفَّني ... وأنكرتُ من نفسي الذي كنت أعرفُ

٢٧) الإمام الفقيه ابن حزم الأندلسي (٣٨٤ - ٤٥٥هـ/ ٩٤٤ - ١٠٦٤م)

عالم عربي أندلسي، مؤرخ وفقيه ومُحَدِّث وأديب. ألف في علم الكلام والعقائد والفلسفة.. اشتهر بمذهبه الظاهري في الفقه. له مصنفات في مختلف العلوم منها: طوق الحمامة، فضل الأندلس، إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، الفصل في الملل والأهواء والنحل.

وجاء النص الذي تتحدث عنه المؤلفة في باب الطاعة وهو رقم ١٤ بكتابه طوق الحمامة: «ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه، وصَرفُه طباعه قسرًا إلى طباع من يحبه، وترى المرء شرس الخلق، صعب الشكيمة، جموح القيادة، ماضي العزيمة، حمي الأنف، أبي الخسف، فما هو إلا أن يتنسم

---

(١) ديوان جميل، شعر الحب العذري، جمع وتحقيق وشرح د. حسين نصار، مكتبة مصر، د. ت. (مواضع متفرقة).

نسيم الحب، ويتورَّط غمره، ويعوم في بحره، فتعود الشراسة ليانًا، والصعوبة سهولة، والمضاء كلالة، والحمية استسلامًا[1].

٢٨) هذه الفقرة من كتاب طوق الحمامة أيضًا بباب الهجر (رقم ٢١) ص٢١٩، ٢٢٠، وبقية الفقرة «... ولقد امتحنتُ الأمرين، وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف، ولا أجيب إلى الدنية، ولا أساعد على الخضوع، وفي الثانية أذل من الرداء، وألين من القطن، أبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نفع، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجح، وأتحلل بلساني، وأغوص على دقائق المعاني ببياني، وأفنن القول فنونًا، وأتصدى لكل ما يوجب الترضي.

والتجني بعض عوارض الهجران، وهو يقع في أول الحب وآخره، فهو في أوله علامة لصحة المحبة، وفي آخره علامة لفتورها وباب للسلو».

٢٩) لم أعثر على المقطوعتين بديوان ابن زيدون الذي حققه الأستاذ محمد سيد كيلاني[2].

ولكني وجدت مقطوعات أخرى تتشابه في معانيها مع هاتين المقطوعتين:

١- أتهجرني وتغصبني كتابي؟ ... وما في الحقِّ غَصبي واجتنابي

أيجملُ أن أبيحكَ محض وُدِّي ... وأنتَ تسومُني سُوءَ العذابِ

فديتكِ كم تغضي الطرف دوني ... وكم أدعوك من خلف الحجابِ

وكم لي من فُؤادك بعد قُربِ ... مكان الشَّيب في نفس الكعابِ

أَعِدْ في عبدِك المظلوم رأيًا ... تنالُ به الجزيلَ من الثوابِ

---

(١) طوق الحمامة للإمام الفقيه ابن حزم الأندلسي، تحقيق د. الطاهر أحمد مكي، دار الهلال ١٩٩٤، ص١٧٠.

(٢) نشر بمكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط١٩٥٦.

وإن تبخـلْ عليـه فَـرُبَّ دَهْـرٍ وَهَبـتُ لـه رضـاك بـلا حـسابِ

٢ - وقال:

أهـيمُ بجبَّـارٍ يَعـزُّ وأَخـضعُ
شـذا المسكِ مـن أردانـه يتـضوعُ
إذا جئـتُ أشـكو الجـوى لـيس يـسمعُ

٣ - وقال:

أَأُسْـلَبُ مـن وصـالكِ مـا كُـسيتُ؟ وأعـزلُ عـن رضـاكِ وَقَـدْ وَليـتُ
وكيـف وفي سـبيلِ هَـوَاكِ طوعًـا لَقِيـتُ مـن المكـارهِ مـا لقيـتُ
فـديتكِ لـيس لِي قلـبٌ فأسـلو ولا نفـسٌ فـآنفُ إن جُفيـتُ
فـإن يكـن الهـوى داءً مميتًـا لمـن يهـوى فـإني مـستميتُ
أُسِرُّ عليـك عتبًـا لـيس يَبقـى وأُضـمر فيـكِ غيظًـا لا يبيـتُ
ومـا رَدِّي عـلى الواشـين إلا رَضـيتُ بِجَـورِ مـالكتي رَضـيتُ

٤ - وقال:

جازَيْتِني عن تمـادي الوصـلِ هجرانـا وعن تمادي الأسى والشوقِ سُلوانا
بـاللهِ هـل كـان قـتلي في الهـوى خطـأ أم جِئتُـه عامِـدًا ظُلْـمًا وعُـدوانا
عهـدي كعهـدِك مـا الـدنيا تُغـيرُهُ وإن تَغَـيَّرَ منـك العهـدُ ألوانـا
مـا صَـحَّ وُدِّي إلا اعتـلَّ وُدُّك لي ولا أطعتـك إلا زِدتِ عـصيانا
يـا ألـينَ النـاسِ أعطافًـا وأفتـنَهم ألحاظًـا وأعطـر أنفاسًـا وأردانـا

حَسُنْتِ خلقًا فأحسني لا سُوء خلقا		ما خيرُ ذي الحُسنِ إن لم يُولِ إحسانا

٣٠) ابن زيدون:

أحمد بن عبد الله بن زيدون (٣٩٤ – ٤٦٦هـ / ١٠٠٣ – ١٠٧٣م). شاعر وكاتب ووزير. درس الأدب واللغة والأخبار، واتصل بابن جهور أمير قرطبة، فاتخذه وزيرًا، ثم كاده ابن عبدوس، فحبسه، ففر واختفى، ثم اتصل بابنه أبي الوليد، ولكن الدسائس تجددت، فهاجر إلى إشبيلية. فكتب ووَزَرَ للمعتضد والمعتمد، وأعان المعتمد على فتح قرطبة. مات بإشبيلية.

أحب ولادة بنت المستكفي، فكانت تقربه مدة، وتقرب غريمه ابن عبدوس أخرى. وقد صور الشاعر هذه الأحوال في شعره الذي يتسم بالعذوبة والسهولة والنغم.

وقد شهر بغزله واستعطافه، وبرسالتيه وبخاصة الرسالة الهزلية التي كتبها على لسان ولادة يسخر فيها من ابن عبدوس ويهجوه.

٣١) تعرض كثير من المستشرقين للحديث عن حضارة العرب محاولين أن يبرروا أن هذه الحضارة منحولة أو منقولة عن غيرهم من الشعوب المجاورة. فقد لاحظ رودلف فيستفال Rudolf Westphal في كتابه عن علم العروض العام عند الشعوب الهندوأوربية والشعوب السامية في ظل قواعد علم اللغة المقارن أن العرب على الرغم من انتمائهم للشعوب السامية، لم يكن في شعرهم أي صلة قرابة داخلية أو خارجية بالعبريين أو الكلدانيين؛ إذ إن الشعر العربي كمي وشعر الساميين الآخرين شعر كيفي، ومن ثم حاول أن يدلل على أن الشعر العربي الكمي تأثر بالشعر اليوناني القديم، ويدلل على ذلك بأن الفنون اليونانية الجميلة دخلت إلى الشرق بدخول الهيلينية إليه، وأن بعض المسرحيات اليونانية أديت بموسيقى يونانية من مغنين يونانيين بالبلاط

البارثي. ولم يلتفت المستشرق إلى أن الشعر العربي نشأ قبل ذلك بفترة طويلة، وأن العرب عرفوا قبل الإسلام هذه الأوزان الكمية، وأنهم نظموا فيها، فضلاً عن أن الشعر اليوناني الكمي كان قد اختفى اعتبارًا من القرن الرابع الميلادي وحل محله الشعر النبري الكيفي نتيجة لكثرة الأصوات الحركية (Vowels). وبداية ظهور الشعر العربي الكمي كان في القرن السادس الميلادي، أي أن ثمة قرنين من الزمان يفصلان بين الشعرين الكميين عند اليونانيين وعند العرب. وبالإضافة إلى ذلك لابد أن نذكر أن هذا الشعر اليوناني الكمي لم تعرف قوانينه إلا في الزمن الألكسندريني نتيجة لاجتهاد اللغويين ودراستهم الجادة لنصوص هوميروس والتراجيديين غيره.

وقد تابعه المستشرق تكاتش أيضًا في كتابه «الترجمة العربية لكتاب أرسطو عن الشعر» ولكن جورج ياكوب Georg Jacob، وجوستاف فايل Gustav Weil رفضا هذا الرأي، ودللا على أن الشعر العربي نسيج وحده، وهو وليد البيئة العربية[1].

كذلك حاول المستشرق الفرنسي رينان Renan أن يدلل على أن الفلسفة الإسلامية وليدة الفلسفة اليونانية، لأنه عدَّ العرب بدوًا، لا يمكن أن يكونوا قادرين على التأملات الفلسفية التي تذخر بها كتاباتهم.

أما بالنسبة لشعر الغزل الأندلسي فقد حاول بعض المستشرقين أيضًا القول بتأثره بالشعر البروفنسالي الفرنسي Provensal والميني زانج الألماني Minnesang، وأن شعر التروبادور قد تأثر أولاً بالشعر البروفنسالي ثم أثر

(١) يرجى الرجوع لمناقشة هذه الآراء بكتابي «بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف» ص٥١ - ٦٢.

في الموشحات. وحاول فوسلر Vossler أن يثبت أن الشعر البروفنسالي قد تأثر أولاً بالشعر اللاتيني القديم، وبخاصة شعر أوفيد Ovid وتابعه في ذلك باول فيشتر Paul Fechter الذي يرى أن الميني زانج عرف أوائل القرن الثالث عشر متأثرًا بالمثال الفرنسي بشعر التروفير Trouver.

وينفي هلموت دي بور Helmut de Boor، كاتب مادة «شعراء المينى زانج» Minnesingers بدائرة المعارف البريطانية هذه الفكرة، إذ إن النبرة في هذا الشعر بعامة كانت أصح وأكثر جدية من شعر أوفيد وغيره، وأن شاعر المينى زانج كان من النبلاء، وإن كان ينتمي إلى الطبقة المتواضعة. وكانت أشعارهم موجهة إلى امرأة متزوجة، غالبًا ما تكون أرفع منزلة من الشاعر. ولم يكن مسموحًا له أن يصرح باسم محبوبته أو يفصح عن شخصيتها. كما لم يكن مصرحًا له بالتعبير المباشر عن إحساسه. كذلك عرف المينى زانج نظم المقطوعات الشعرية Strophenform تأثرًا بأشكال التروبادور البروفنسالى، ولم تكن هذه الأشكال معروفة بالشعر اليوناني القديم. وقد تبين أن التروبادرو والميني زانج يتحركان في دائرة فكرية لا مثيل لها في الأدب الغربي. فقد تغنى هؤلاء الشعراء بالحب، ولكنهم عبروا عن ذلك بطريقة منهجية معينة، بل إن بعضهم وُفق في التعبير عن أفكار مبتكرة أو تناول الموضوع بطريقة طبيعية، إلا أنهم حين يبتعدون بهذا المنهج يفقدون صفاتهم باعتبارهم شعراء غنائيين.

أما في العالم العربي، فإن هذا النوع من الأغراض والمفاهيم ممثل في شعر الغزل في جميع عصوره الأدبية، سواء أكان ذلك عند شعراء الأمويين أم العباسيين أم في مختلف الأمصار بعد ذلك، حيث يوجد الخلفاء أو الولاة والملوك. ومن ثم فإن شعر الغزل العربي وُجد قبل أقدم الأغاني في البروفنسال وغيره مما وجد

من شعر غنائي في أوربا في القرون الوسطى وأن القواعد الأساسية لشعر الغزل العربي توضح تمامًا الملامح الأساسية للشعر الأوربي في هذه القرون، فكلاهما يحترم المرأة ويوقرها ويتحدث عن حبه الطاهر لها، وهو شعر بلاط يربط بين الحديث الفردي عن الخبرات الشخصية والمنادمة والتخاطب، مع الأنس والطرب.

على أن الشكل الأوربي ليس محاكاة تامة للشكل العربي، فإن ثراء الأشكال العربية للشعر الغزلي أوحى فقط للشاعر الأوربي بإيجاد أشكال جديدة للعروض الأوربي ليتساوق مع اللحن والوسائل الموسيقية الأوربية، وكان هذا النوع من الشعر الأوربي ظاهرة طارئة سرعان ما اختفت فلم يستمر أكثر من قرنين من الزمان، أما الشاعر العربي فقد عرف شعر الغزل في جميع عصوره الأدبية، وظلت الأغراض الشعرية العربية دائمة دون تغيير سواء قبل الفتح الأندلسي أو بعده(١).

٣٢) آية الله الخوميني (سبتمبر ١٩٠٢ – يونيو ١٩٨٩).

مرجع ديني إيراني شيعي، وقائد الثورة الإيرانية ١٩٧٩ التي أطاحت بشاه إيران محمد رضا بهلوي. كان يُعد الزعيم الروحي للعديد من الشيعة. حكم إيران منذ الإطاحة بالشاه وحتى وفاته ١٩٨٩. ولقبه الرسمي «آية الله العظمى».

نفي إلى تركيا مدة أحد عشر شهرًا بسبب انتقاده الدائم لحكومة محمد رضا بهلوي، ثم نفي إلى العراق ٢٤/ ١٠/ ١٩٦٥. اتخذ النجف مقرًا له ممارسًا فيها نشاطه الديني ضد حكومة الشاه. وبعد ثلاثة عشر عامًا من النفى توجه إلى

(١) يرجى الرجوع فيما ذكر هنا إلى كتابي: القافية والأصوات اللغوية، ص٢١٣- ٢٣٨.

الكويت بعد مضايقة الحكومة االعراقية، ولكن الكويت منعته من دخولها.

فرحل إلى باريس في ٦/ ١٠/ ١٩٧٨، وحرّم عليه الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان أي نوع من النشاط السياسي، ولكنه رفض الامتثال لذلك، وبقي في باريس مدة أربعة أشهر عرض فيها آراءه وتصوراته بشأن الحكومة الشيعية والأهداف الثورية.

احتل الثوار الإيرانيون السفارة الأمريكية في نوفمبر ١٩٧٩ عندما سمح الرئيس الأمريكي جيمي كارتر لشاه إيران السابق محمد رضا بالعلاج في مستشفى بالولايات المتحدة، واحتجزوا ٥٣ دبلوماسيًا أمريكيًا مدة ٤٤٤ يومًا، وأيد الخوميني احتجازهم مطالبًا بعودة الشاه إلى إيران لمحاكمته، ولكن الشاه توفى في يوليو ١٩٨٠، واستمر احتجاز الرهائن بعد وفاته إلى أن أفرج عنهم في يناير ١٩٨١.

٣٣) على الرغم من أن الإصلاح في عصر النهضة اقتصر على خطاب المفكرين من الرجال، فقد شاركت المرأة في هذا الخطاب، فتناولت الكاتبات العديد من قضايا المرأة وناقشتها، وعرضن ما تعانيه المرأة في كثير منها. تحدثن عن حق المرأة في التعليم، وعن وضعها في الأسرة، ومشاركتها في مؤسسات المجتمع، وأثرن قضية الاختلاط، وطالبن بحقوق المرأة المدنية والسياسية. وعندما نستعرض الجهود النسائية في هذا المجال نجد أن المشاركة النسائية في خطاب الإصلاح ترجع إلى ما قبل الثورة في مصر عام ١٩٥٢.

ولعل المرأة الشامية والمصرية كانتا صاحبتي الخطوة الأولى في العالم العربي، فإن أول مجلة نسائية صدرت بالإسكندرية عام ١٨٩٢ هي «مجلة الفتاة» أصدرتها السيدة هند نوفل، وكانت شامية الجنسية، وقد صدر بعدها العديد من الصحف النسوية في مصر، وصدر قليل منها في الشام والمهجر، وذلك

قبل صدور كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» عام ١٨٩٩. وقد أيدت بعض هذه الصحف النسائية قاسم أمين في دعوته.

دعت هذه الصحف إلى التوسع في تعليم المرأة وإمكان أن تصل إلى التعليم العالي. وبحثت مسائل تقييد الطلاق وتعدد الزوجات والعمل بالسياسة.

أصدرت هند نوفل «مجلة الفتاة» (نوفمبر ١٨٩٢ - أغسطس ١٨٩٣)، وأصدرت ألكسندرة خوري أفرينو «مجلة أنيس الجليس» بالإسكندرية (يناير ١٨٩٨ - ١٩٠٨). وأصدرت لبيبة هاشم «مجلة فتاة الشرق» (١٩٠٦ - ١٩٣٧) بالقاهرة، وظلت المجلة تصدر بعدها إلى عام (١٩٣٩).

وأصدرت ماري عجمي بسوريا «مجلة العروس» (١٩١٠ - ١٩٢٥). وأصدرت جوليا طعمة دمشقية في بيروت «مجلة المرأة الجديدة» (١٩٢١ - ١٩٢٩)، وكتب بمجلتها أعلام الكتاب مثل: الرصافي، والزهاوي، وإلياس أبو شبكة، وحليم دموس، وخليل مطران، وبدوي الجبل، وأحمد محرم.

وتعد منيرة ثابت من أوائل الصحفيات المصريات. عرفت بمقالاتها النارية في جريدة الأهرام بعد الحرب العالمية الأولى. وكانت توقع مقالاتها (خواطر ثائرة) بإمضاء «م. ث.» ثم وقعت باسمها الصريح أول مقال عن «النساء والسياسة» بالأهرام ٢/ ٢/ ١٩٢٤. أصدرت مجلة الأمل (نوفمبر ١٩٢٥) وقد نادت بالمساواة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق المدنية والسياسية، وعملت في الاتحاد النسائي مع هدى شعراوي وسيزا نبراوي».

وأخيرًا نذكر من هؤلاء الكاتبات قبل الثورة نبوية موسى التي أصدرت مجلة أسبوعية نسائية باسم «الفتاة» في ٢٠/ ١٠/ ١٩٣٧ التي نشرت بها مذكراتها التي تحدثت فيها عن حياتها. ألفت في مطلع حياتها كتب «المرأة والعمل» وقالت في مقدمته «إنني لا أتناول النسفور والحجاب في كتابي لأني لا

حجابًا فأبحث عنه. فقرويات مصر سافرات، أما المدنيات فعلى وجوههن نقاب أبيض شفاف لا يستر من وجوههن إلا الحياء، وهو يزيدهن جمالاً وبهجة؛ إذ يزيد الوجه بياضًا على بياضه الصناعي».

وتقول «لقد أعطيت تلميذاتي مثالاً صادقًا للسفور الذي أريده، وهو ظهور المرأة سافرة، ولكن في منظر يدل على حشمتها ووقارها. فهي تخرج لعملها سافرة حتى لا يعوقها الحجاب عن حسن تأدية ذلك العمل، ولكنها تظهر في ملبسها بمظهر الجد فلا زينة ولا تبرج، على أن القرآن لم يأمرنا بالحجاب بل أمرنا بالابتعاد عن الزينة».

من رأي نبوية موسى ضرورة تربية الفتاة تربية تناسب تربية إخوتها الذكور، وهي تدعو إلى التربية الاستقلالية، وترى أن الفتاة يجب أن تتحد في الثقافة العامة مع الفتى. كانت نبوية موسى مربية فاضلة، صاحبة مدارس خاصة تولت إدارتها بالإسكندرية.

ومن السيدات اللاتي كان لهن شأن قبل الثورة:

- عائشة تيمور (١٨٤٠ – ١٩٠٢) لها ديوان معروف بعنوان «حلقة الطراز» ومجموعة قصص «مرآة التأمل في الأمور» ولها مجموعة كتابات نثرية منها «نتائج الأحوال».
- ملك حفني ناصف (باحثة البادية) (١٨٨٦ – ١٩١٨) أبرز أعمالها مجموعة مقالاتها «النسائيات».
- مي زيادة (١٨٨٦ – ١٩٤١) ولها عدد كبير من المؤلفات، ويتنوع إنتاجها بين الترجمة والقصة والكتابة النثرية وكتابة التراجم: «سوانح فتاة»، «كلمات وإشارات».
- د. سهير القلماوي (١٩١١ – ١٩٩٧) أستاذة جامعية، عملت في ميدان

الترجمة والقصة والدراسة الأدبية ونقد الكتب. كانت رسالتها لنيل درجة الدكتوراه عن «ألف ليلة وليلة». أشهر قصصها «أحاديث جدتي».

- بنت الشاطئ (د. عائشة عبدالرحمن) (١٩١١ - ١٩٩٨): أستاذة جامعية، كتبت عن تفسير القرآن الكريم، وحققت رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وحررت في مجلة النهضة النسوية (١٩٢٩)، وتولت رئاسة تحريرها ١٩٣٢.
- نظيرة زين الدين (١٩٠٨ - ١٩٧٦) كاتبة سورية. نشرت كتابًا عن «الحجاب والسفور» بعد الأحداث التي مرت بها دمشق ١٩٢٧ عندما منعت المرأة باسم الدين والقانون من الخروج بدون حجاب. وقد لاحظت أن أشهر مفسري القرآن مثل الخازن والبيضاوي والنسفي والطبري وابن مسعود وابن عباس، قد اختلفوا أيما اختلاف في تفسير الآيات المتعلقة بالحجاب.
- هدى شعراوي (١٨٧٩ / ١٩٤٧): من أهم الأسماء النسائية في مرحلة ما قبل الثورة فقد نشطت نشاطًا ملحوظًا في العمل الاجتماعي والخدمي، وفي النضال ضد الاستعمار عبر الجمعيات التي شكلتها أو من خلال لجنة الوفد المركزية للسيدات. ثم شكلت من بعد ذلك الاتحاد النسائي الذي تأسس عام ١٩٢٣، كما شاركت في النضال من أجل فلسطين.

أما بعد قيام الجمهورية في مصر عام ١٩٥٢ فقد ألغيت كافة التنظيمات النسائية الخاصة والتطوعية، وأغلق الاتحاد النسائي الوطني عام ١٩٥٣ باعتباره حزبًا سياسيًا، وحُلّت جمعية الأخوات المسلمات بحل جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٥٤، ووضعت الدولة كافة التنظيمات النسائية تحت إشراف وزارة الشئون الاجتماعية، وبهذا ألغيت أيضًا جمعية من أشهر وأنشط التنظيمات النسائية وهي جمعية «اتحاد بنت النيل» برئاسة د. درية شفيق.

وأصدرت الدولة الإقرار الرسمي بالحقوق السياسية للمرأة نوعًا من استيعاب الدولة للقضية النسائية والهيمنة عليها، وبذلك تمت إعادة صياغة قضية المرأة وتحقيق مطالبها في المساواة والتعليم والعمل بقرارات فوقية، وامتدت هذه الفترة إلى عام ١٩٥٦، ثم تحولت القضية إلى قضايا فنية نوعية جزئية مثل مشكلات المرأة العاملة والتعليم الفني للنساء، والأسر المنتجة والمشكلات الأسرية، ومشكلات التنشئة. وفي ظل هذا كله أتيح لسيدات فضليات أن يقدمن للمجتمع المصري ولنسائه خدمات جليلة مثل ما قدمته السيدة جيهان السادات زوجة الرئيس الراحل محمد أنور السادات ودكتورة عائشة راتب أثناء توليها وزارة الشئون الاجتماعية.

٣٤) ومن هؤلاء الرجال يمكن أن نذكر دكتور محمد عمارة في كتابه «التحرير الإسلامي للمرأة» الذي يرد فيه على شبهات الغلاة بالتمييز بين اتجاهين يرى أنهما يتنازعان قضية المرأة في هذه الآونة: الاتجاه الأول هو الغلو الديني، وهو غلو الجمود والمحافظة على التقاليد والتراجع الحضاري وبهذا يتخذ العادات والتقاليد دينًا، ويرى المرأة مجرد متعة ومعملاً لتفريغ النسل لبقاء النوع الإنساني، ولا يسمح لها بأي مشاركة في المجال العام.

والاتجاه الثاني هو غلو التفكير العلماني للنموذج الغربي الوضعي، ويعمل على تحرير المرأة من التقاليد الدينية(١).

وبهذا يعايش المجتمع الإسلامي حالة العولمة، وأصبحت هذه الحالة مفروضة

---

(١) محمد عمارة: التحرير الإسلامي للمرأة: الرد على شبهات الغلاة، (دار الشروق ٢٠٠٢).

عليه نتيجة الظروف السياسية والاقتصادية، وخضع لهيمنة الغرب، وانتكست تجارب التنمية المستقلة في البلدان النامية وبخاصة بعد تفجير ثورة الاتصالات في العالم عبر الإعلام الفضائي وشبكة المعلومات الدولية، وتقنيات الاتصال الحديث عبر الأقمار الصناعية.

وقد تعددت المشروعات الفكرية المعاصرة التي تتناول تحرير أوضاع المرأة من منطلق الإسلام وإنصافها أو إصلاحها، وممن تصدوا لهذا الشيخ محمد الغزالي والأستاذ عبدالحليم أبو شقة. فنجد الشيخ محمد الغزالي في كتابه «قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة»[1] يؤكد أن الإسلام سوى بين الرجل والمرأة في جملة الحقوق والواجبات، ويستطرد الشيخ محمد الغزالي فيقول «والإسلام الذي نقدمه علاجًا شريفًا لهذه الفوضى العامة الطامة، لا يؤخذ من أفواه المجانين الذين ينادون بحبس المرأة فلا تخرج من البيت أبدًا إلا لزواجها أو قبرها كما يقولون، إننا نأخذ من تعاليم الإسلام الواضحة في الكتاب والسنة.. ومصيبة ديننا في أناس يحرفون الكلم عن مواضعه، ويطيرون بحديث موضوع أو معلول ليلغوا به الآيات البينات، والسنن الثابتات.. إن الذي يتدبر القرآن الكريم يحس المساواة العامة في الإنسانية بين الذكور والإناث، وأنه إذا أعطى الرجل حقًا أكثر فلقاء واجب أثقل، لا لتفضيل طائش، وقوامة الرجل في البيت لا تعني ضياع المساواة الأصلية».

٣٥) دكتورة لطيفة عبدالسلام الزيات (١٩٢٣ - ١٩٩٦) كانت أستاذة لغة إنجليزية بكلية البنات. تقلدت منصب مدير ثقافة الطفل، وتولت رئاسة قسم

---

(١) ط. دار الشروق / القاهرة ٢٠٠٥ ص٣٥.

النقد المسرحي بمعهد الفنون المسرحية، وأكاديمية الفنون. وكانت عضو مجلس السلام العالمي، وعضو شرف اتحاد الكتاب الفلسطيني، وبالمجلس الأعلى للآداب والفنون.

من مؤلفاتها: «الباب المفتوح» رواية ١٩٦٠، مقالات في النقد الادبي ١٩٦٤، نجيب محفوظ الصورة والمثال. مقالات نقدية ١٩٨٨.

الفصل الخامس

١ - عن حريق مكتبة الإسكندرية[(١)]

نشرت صحيفة يومية كبرى العام الماضي فرية تاريخية- من الواضح أنها ما زالت يتكرر سردها على الرغم من أنه كُشف عن زيفها قبل عام من إعادة نشرها بالصحيفة- ومضمونها كما يلي:

«عندما غزا المحاربون المسلمون بقيادة عمرو بن العاص مصر، بجيشهم العاصف وزحفوا إلى الإسكندرية، أمر عمرو بن العاص بحرق المكتبة العتيقة التي تشتمل على سبعمائة ألف لفافة مخطوطة، وأعدم ما تحتويه من كنوز المعرفة الإنسانية الثمينة عن الحضارة اليونانية القديمة. وقيل إنه فعل ذلك بناء على أمر الخليفة عمر بن الخطاب – بحكمته الساذجة- الذي جاء به:

وأما الكتب التي ذكرتها، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففي كتاب الله عنها غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها. فتقدّم بإعدامها، فالإسلام يسمح بوجود كتاب واحد، وهو كتاب الله، أي القرآن»[(*)]

كيف يمكن للعرب أن يأخذوا على عاتقهم مثل هذه الإبادة البربرية للمعارف الإنسانية التي لا يمكن تعويضها؟ والتي ما تزال حتى الآن تؤجج

(*) Walter Görlitz, Vor 1350 Jahren wurd die antike Bibliothek von Alexandrien zerstört, Griff in die Geschichte 5.8.1989.

فالتر جرليتز: قبل ١٣٥٠ دمرت المكتبة القديمة بالإسكندرية، تصويب ما وقع فيه المؤرخون من أخطاء.

المشاعر، وتثير الاحتقار الشديد لهذا العمل، وتصب لعناتها على الأجلاف الذين لا يقدرون القيم الإنسانية؟

ولكن ماهى الحقيقة التي يدونها التاريخ؟

إن المؤسسة الأكاديمية Museion التي أسسها الملك بطليموس الأول[٢] سوتر Ptolemäus I. Soter عام ٣٠٠ قبل الميلاد بالإسكندرية، والتي كانت مصدر إشعاع للمعارف الهيلينية بمكتبتها الضخمة التي جمعت ما يقارب مليون لفافة كتب، وكانت كلها مدونة باللغة اليونانية، هذه المؤسسة أو المركز العالمي الذي ضم كافة أنواع العلوم والمعارف آنذاك كان قد احترق في عام ٤٧ ق.م، عندما حاصر قيصر الإسكندرية، ثم أعادت كليوباترا بناء المكتبة وتزويدها (ببعض الكتب) من رقوق البرجامون مرة أخرى.

ثم بدأ التدمير المخطط في بداية القرن الثالث ق.م؛ إذ بدأ القيصر كاراكالا[٣] Caracalla بإلغاء الأكاديمية، وسفك دم العلماء في حمام دم، وأباد المتعصبون الدينيون بقية المكتبة عام ٢٧٢ق.م.، باعتبار أن ما فيها من الكتب من عمل الكفرة، عندما أغلق البطريرك المسيحي الأكاديمية، وشرد علماءها.

وفى عام ٣٦٦م حوّل القيصر فالنس[٤] Valens المتحف Caesareum إلى كنيسة، ودمر مكتبتها وأحرقها، وطارد علماءها لاتهامهم بممارسة السحر والشعوذة.

وفى سنة ٣٩١م تسببت مواصلة تتبع الكفرة في حصول البطريرك ثيوفيلوس Patriarch Theophilos على موافقة القيصر ثيودوسيوس[٥] Kaiser

Theodosios على تدمير آخر وأعظم أكاديمية السيرابيون das Serapeion[٦] وكانت أشهر بقعة يؤمها حجاج الحكمة القديمة، كما أحرق المكتبة العامة التابعة لها، والتي تضم ثلاثمائة ألف مخطوطة، وبنى مكانها كنيسة وديرًا.

وفى القرن الخامس واصل جماعة من الشُبان المراهقين المتحمسين الذين كونوا مجموعات رعب، تدمير كتب علوم الكفرة وفلسفاتهم بالإسكندرية، كما اعترف بعد ذلك البطريرك سيفيروس فون أنطيوخيان Patriarch Severus von Antiochien، واعترف معه أحد أصدقائه بذلك دون خجل، وقررا أن هؤلاء الشبان قاموا بمباغتة العلماء الكفرة ومراكز الثقافة ودمروا المكتبات.

وعندما دخل العرب الإسكندرية سنة ٦٤٢م، لم يكن بها منذ زمن طويل أي مكتبة عتيقة. ومعنى ذلك أن رماد مئات الآلاف من لفافات المخطوطات الأكاديمية التي تعد «أعظم كنوز الثقافة القديمة» التي قيل إن العرب أحرقوها تمامًا، وإن حرقها استمر ستة أشهر متواصلة، واستخدموا رمادها وقودًا لأفران الحمامات العامة – تلك الحمامات التي لم تعرفها الإسكندرية في ظل المسيحية المعادية للجسد – معنى ذلك أن كل هذا فرية؛ إذ إن هذه المكتبة هبت عليها ريح الشمال (اليونانية) قبل ذلك بستة قرون فبددتها في الصحراء.

ما أشد عناد الادعاءات (الفِرى) التى ألصقت بالعرب، وما أكثر التلذذ باختلاق الروايات عنهم بأدق التفاصيل حتى تصل إلى التفنن في الاختلاقات المجنونة المشوبة بسلاطة الألسن، ممثلة فيما يشبه ما حدث بمدينة كاتين[٧] Katyn الروسية (التي دُفن فيها ضباط بولنديون، ولكن الدفن هنا دفن

فكري) على الرغم من محاولات التكذيب التي قام بها بعض من حاولوا الرد على عدد قليل من المؤرخين(*) الذين شوهوا الحقائق التاريخية إلى الأبد فيما يبدو.

ولكن الناس في ألمانيا امتنعوا أيضًا في عام ١٩٨٩ م عن مواجهة الحقيقة الواضحة للجميع(**)، وانتشر مجددًا بابتهاج واستنكار للجريمة الوحشية المنافية للأخلاق التي مورست ضد القيم الفكرية الإنسانية وهي الأفكار التي روجتها الحروب الصليبية في القرن الثالث عشر، حين زعم أحد المسيحيين العرب أن عمرو بن العاص حرق مجموعة من الكتب كانت موجودة في الميناء الفلسطيني قيصرية.

ثم نقل هذا الزعم الوهمي إلى الإسكندرية، ومن ثم اتُّهم عمر بن الخطاب خليفة المسلمين – وهو الرجل المشهود له بأنه من أعظم رجال الدولة وأجلهم – بأنه ساذج وضيق الأفق وجاهل.

ولا يمكن أن تصدر عن عمر المعروف بنظره الثاقب هذه الفعلة النكراء التي قيل بأنها صدرت عنه، وبخاصة أنه وصف القرآن بأنه «كتاب الكتب»، مثلما وُصف الكتاب المقدس، وهى الصفة التي نقلت عن اللغة اليونانية biblos (بمعنى كتاب). وهذه التسمية أطلقها آباء الكنيسة، وتدل على أن مؤلفها مسيحي. وهى تتعارض مع الحقائق التاريخية من أوجه ثلاثة:

١) وفقًا للأحكام الرئيسة للإسلام ينبغي ألا يوجد إلا كتاب واحد. ولكن وجد مع القرآن – «وهو وحي من الله»(٨) – أحاديث الرسول، وهى السُّنة

(*) Sigrid Hunke, Allahs Sonne, S. 191.- Rolf Palm, S. 168.
(**) Brockhaus Enzyklopädie I 315: Alexandrinische Bibliothek.

التي تكمل أحكام المعاملات.

٢) سيرة الخليفة عمر نفسها تنقض ما نسب إليه من جهل وحشي وتعصب؛ إذ إنه هو نفسه الذي صاغ عقود الهدنة مع كل البلاد الأجنبية المفتوحة. وهذا ما التزم به قائد جيوشه عمرو بن العاص، فلم يخرب أرض البلد الذي يستسلم بعد مفاوضات ودون قتال، وفقًا لتعليمات النبي ووصاياه التي تحرّم السلب والنهب. وهو النص الذي اتخذ عند عقد الاتفاق مع البطريرك البيزنطى المقوقس (كيروس)[٩] Patriarch Kyros بالإسكندرية. وهو عهد يفوق في حكمته وسماحته كل عهود الأمان قبله وبعده.

ويحتفظ العهد القديم في السفر الخامس من التوراة (سفر التثنية)، الأصحاح السابع، آية ٥- ١٦ بوصايا موسى التي يوصي بها قومه عند خروجهم من مصر إلى أرض كنعان وكيفية تعاملهم مع أصحاب الديانات الأخرى ومنشآتهم الثقافية. وهذا - بالصدفة - عكس الاتجاه الذي سار فيه عمرو بن العاص مع جيوشه العربية بعد ذلك بألف وثمانمائة سنة.

يقول موسى بهذا الأصحاح: «ولكن هكذا تفعلون بهم، تهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتقطِّعون سواريهم، وتُحرقون تماثيلَهم بالنار. لأنك أنتَ شعبٌ مُقَدَّسٌ للربِ إلهك. إياك قد اختار الربُّ إلهُك لتكون له شعبًا أخصَّ من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض. ليس من كونكم أكثرَ من سائر الشعوب، التصقَ الربُّ بكم، واختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب. بل من محبة الربِّ إياكم، وحفظِهِ القَسَمَ الذي أقسم لآبائكم، أخرجكم الربُّ بيدٍ شديدة، وفداكم من بيت العبودية من يدِ فرعونَ ملكِ مصر. فاعلم أن الربَّ

إلهَك هو الله الإله الأمين الحافظُ العهدَ والإحسانَ للذين يحبونه، ويحفظون وصاياه إلى ألف جيل، والمجازي الذين يبغضونه بوجوههم ليهلكهم. لا يُمهل من يبغضه. بوجهه يجازيه. فاحفظ الوصايا والفرائض والأحكام التي أنا أوصيك اليوم لتعملها.

ومن أجل أنكم تسمعون هذه الأحكام وتحفظون وتعلمونها يحفظ لك الرب إلهك العهد والإحسان اللذين أَقْسَمَ لآبائك، ويحبك ويباركك ويُكثّرك ويبارك ثمرة بطنك وثمرة أرضك، قمحك وخمرك وزيتك ونتاج بقرك وإناث غنمك على الأرض التي أقْسَمَ لآبائك أنه يُعطيكَ إياها. مبارَكًا تكون فوق جميع الشعوب، لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك. ويرد الربُّ عنك كلَّ مرضٍ وكل أدواء مصر الرديئة التي عرفْتَهَا لا يضعها عليك، بل يجعلُها على كل مبغضيك. وتأكل كُلَّ الشعوب الذين الربُّ إلهك يدفعُ إليك. لا تشفق عيناك عليهم، ولا تعبد آلهتهم لأن ذلك شَرَك لك»(*).

أما عهد الأمان العربي الذي أملاه الخليفة عمر، وكان يسري على جميع الذمِّيين. وهو العهد الذي التزم به القائد العربي عمرو بن العاص عند زحفه على الإسكندرية- مع المقوقس بطريرك الإسكندرية فقد ورد به:

«يَسري هذا العهدُ على جميع الرعايا المسيحيين، وقسِسِهم، ورهبانِهم، وراهباتِهم. ويمنحهم الأمانَ لأنفسِهم وحمايتهم أينما كانوا.. وبالمثلِ يقررُ الحمايةَ القصوى لكنائسهم، ومنازلهم وأماكنِ حجهم، والسماح لهم بزيارتها... ».

(*) غير موجود لدى المؤلفة بكتابها، والإضافة لكي يكون النص مفهومًا (المترجم).

٣ – كان عمر على علم تام بحرص الرسول ﷺ أن يُعَرّف زوج ابنته عليّ (ابن أبي طالب) قيمة العلم، وأن يتزود المسلمون بالعلم والمعرفة ما استطاعوا. وقد ورد عن الرسول أحاديث كثيرة تحضُّ على طلب العلم، ومنها:

«اطلب العلم ولو من فم كافر»

«اطلبوا العلم ولو بالصين»(١٠)

وإزاء هذه السماحة والانفتاح على العالم، و التطلع لمعرفة العلوم الأجنبية مهما كان مصدرها، يمكن أن نتبين كذب الادعاء بأن عمر أصدر أمرًا بحرق الكتب التي يوجد أو لا يوجد بها شيء يخالف ما في القرآن، ومن ثم فلا حاجة إليها.

٢ - اطلبْ العلم
ولو من فمِ كافر

أقبل المسلمون على تنفيذ وصية النبي بشغف وحماس. وقد جاء بالقرآن (سورة طه: الآية ١١٤) ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

ويشكل الإسلام الحياة كلها وينظمها في جميع المجالات بكل تفاصيلها، حتى أبسطها وأصغرها. ويحدد القرآن نفسه أول تعاليمه إلى الإنسان في السعي وراء العلم وطلب المعرفة. وكم من الواجبات – التي لاحصر لها – أُلقيت على كاهل الدولة الصغيرة، وماذا يتطلب أداء الفروض الدينية اليومية من معرفة.

الصلاة بفروضها الخمسة يوميًا – تحديد اتجاه القبلة بكل مكان بالدولة الإسلامية – تحديد موعد حلول شهر رمضان الذي يختلف سنويًا، وتحديد عدد أيام الشهر، أي ملاحظة دوران الشمس، ودوران القمر - إنشاء وتشغيل الآلات الفلكية، أي المعرفة الفلكية والميكانيكية، وفن القياس والحساب.

ويتبين من ذلك أن مجرد أداء الفروض اليومية يتطلب القيام بأعمال لا حصر لها مثل: العناية بالطهارة – رعاية المريض – الوقاية من الأوبئة، ومنع انتشارها بين ملايين البشر في المدن – إجراء التجارب لاكتشاف أدوية جديدة وناجعة والمثابرة على إنتاجها ومزجها، وإيضاح طرق استخدامها.

وكل هذا يتطلب أن يكون المسلم ملتزمًا بتنفيذ ما يأمره به الشرع، وما وصاه به النبى من أعمال:

طلب العلم بغض النظر عن منبعه؛ إذ ورد بالحديث:

«أن الساعي في طلبِ العلمِ عابدٌ لله»

«خذوا العلمَ ولو من فمِ كافر»

وقال الرسول ﷺ:

«الساعي في طلبِ العلم هو في سبيلِ الله حتى يرجعَ»

ويوضح ذلك بقوله:

«مدادُ طالبِ العلمِ يعدلُ عند اللهِ دمَ الشهيدِ»[١٠]

وبهذا نرى أن محمدًا والإسلام قد نهجا نهجًا مغايرًا تمامًا لمنهج المسيحية في أدغال بلد لم تكن معروفة للعالم، ومكن هذا النهج العرب من أن يسبقوا الغرب بخمسة أو ستة قرون. وفي هذه القرون اتبعت أوربا ما قاله بولس Paulus : «حكمة العالم جهالة»[١١]، وقد أراد بذلك أن الرغبة الفضولية في السعي وراء المعرفة، والتطلع لمعرفة أكثر تلقي بالإنسان – كما يقول آباء الكنيسة الذين اعترضوا على الأبحاث والعلوم – في جحيم الذنوب (أو توقعه في الخطيئة). وهم في ذلك يرددون مقالة ترتوليان[١٢] Tertullian «بعد المسيح عيسى لا يحقُّ لكم أن تكونوا فضوليين تتبعون سبل البحث والمعرفة، ففي الإنجيل الكفاية». ومن ثم اكتفوا بالرجوع إلى ما ذكر عن الوحي في الكتاب المقدس؛ إذ إنه القادر على أن ينير الطريق أمام الروح، على حين أن كل ما يخالف ذلك يعطل القوى الذهنية إذا ما أرادت دراسة الطبيعة.

وبهذا نعقت بومة المينرفا Eule der Minerva بالغرب، ورفرفت بأجنحتها في أفقه قبل طلوع الفجر، على حين كانت قد بدأت الطيران من الشرق، وتبين الناس الخيط الأبيض من الخيط الأسود بالفجر.

٣ - نقلة التراث اليوناني

اجتهد المسلمون في تنفيذ كل ما طالبهم دينهم به، فهم يؤمنون «بطلب العلم من المهد إلى اللحد» كما أمرهم النبي، وسعوا في تنفيذ هذا الأمر بحذافيره، وكيفما استطاعوا، فتوفروا على جمع شتات ما لم يحترق تمامًا من مخطوطات المعارف اليونانية، بعد أن تسبب التعسف العصبي المسيحي، وإزدارء الوثنية بالإسكندرية وبمئات الديار الأخرى في إعدام المكتبات التي حوت ذخائر العلوم واستخدامها فيما لم تؤسس من أجله، فنشط العرب في التنقيب عن آثار الحضارات القديمة، وجمع ما بقي من ثقافاتها، والتوفر على ترجمته وتصويبه وشرحه والتعليق عليه. وقاموا بالبناء على ما جمعوا من مبادئ العلوم، يدفعهم إلى ذلك المقتضيات الجديدة التي يحتمها عليهم دينهم، ومجتمعهم ودولتهم.

هذه هي أفضال الحضارة الخالدة التي يحمدها العالم للعرب. فالعرب هم الذين أنقذوا الحضارة الإغريقية الهيلينية من الضياع، وليس الرومان، أو البيزنطيين، وليس الجماعات المسيحية مثل النصارى والنساطرة[١٣] أو من قالوا بالطبيعة الواحدة للمسيح. كان بعضها قد أبيد تمامًا، وبعضها قد أهمل وأوشك على الاندثار مثل حضارة المايا[١٤] والإنكا[١٥] Mayas und Inkas التي كشفوا عنها وأخرجوها من الأنقاض والأقبية المهدمة بعد أن ظلت سجينة بها قرونًا طويلة، و قدموها بعد تخليصها باعتبارها تعويضات عند عقد اتفاقيات سلام أو بالطرق السلمية الدبلوماسية.

ولم يقُم العرب بوضع الأعمال التي أنقذوها في مخازن مغلقة لا يصل إليها النور والهواء، وإنما رمموها وأحيوها. وكانت بداية هذه الأعمال الجليلة ما قام به الأمير الأموي خالد بن يزيد[١٦]، الذي كلف عددًا من العلماء اليونانيين ومترجمين عربًا عام (٦١هـ / ٦٨٠م) بالقيام بهذه الأعمال العلمية، ثم قام الخلفاء[١٧] بعده بتأسيس أكاديميات منتظمة للمترجمين حيث ترجمت كنوز المعرفة إلى العربية بأسلوب يفهمه الرجل البسيط.

وقد قام العرب في طليطلة أيضًا بترجمة ما بقى من تراث المعرفة اليوناني — بعد أن قام المسيحيون المتعصبون بعمليات الإبادة والحرق لما وصل إلى أيديهم منه — في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وقد قدمت مدرسة طليطلة[١٨] هذا كله إلى الغرب المسيحي - بعد ذلك - وقد كان في أشد الحاجة إليه.

لقد كانت هذه هي إحدى صنائعهم الحضارية العظيمة وإن لم تكن الصنيعة الوحيدة بأي حال، كما يريد مؤرخو الحضارة أن يقنعوا العالم بقَصر دور العرب على كونهم وسطاء لا غير. وتختلف الإجابة عند التساؤل عن صلة العرب بالعلوم؛ إذ إن كُتاب التاريخ لا يتفقون: فالبعض يذكر أن العرب هم الذين بددوا التراث اليوناني، على حين أن البعض الآخر يقول إنهم كانوا وسطاء للإرث اليوناني، والمراد عند ذكرهم ضمن الأمم ذات الحضارة أن يُكتفى - بالكاد - بالقول بأنهم كانوا مثل الخدم (أو السعاة) الذين ينقلون الملفات اليونانية من طابق إلى طابق آخر. وكانت هذه هي الرؤية التقليدية لمؤرخي الحضارة إلى أن نشر كتاب شمس الله تسطع على الغرب (١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠م)، فصحح ما ورد بهذه المزاعم بصورة استقصائية. بينما نجد موسوعة

مثل «تاريخ حضارة أوربا من العصر القديم إلى الحاضر»(*)، وتشتمل على ٧٥٢ صفحة، و ورد في سجلها خمسة آلاف إشارة لم يرد بإحداها ذكر للعرب أو المسلمين، فضلاً عن عدم ذكر النبي محمد أو الإسلام. وعندما ظهر كتاب أرتور كيستلر(**) عام ١٩٥٩، وعنوانه «تاريخ نشأة معارفنا العالمية- السائرون في أثناء النوم» عرض فيه كل ما ذكر عن المعارف في عصره في خمسمائة وخمسين صفحة هي عدد صفحات الكتاب، ويقول فيه:

«لم يكن العرب إلا وسطاء وحفظة ونقلة للتراث، ولم يمتلكوا سوى قدر ضئيل من المؤهلات العلمية والقدرة الإبداعية، ولم يضيفوا إلا كمًا ضئيلاً من المعرفة يمكن الإفادة منه طوال السنين التي كانوا فيها هم فقط الحراس لهذا الكنز، وفضلاً عن ذلك لم يشجعوا العلوم النظرية. ومما هو جدير بالذكر ملاحظة أن الاحتكار العربي اليهودي الذي دام قرنين أو ثلاثة ظل عقيمًا».

(*) Kulturgeschichte Europas von der Antike bis zur Gegenwarta, hg. v. Dr. G. Winzer, Braunschweig. o. J.

(**)Arthur Koestler, Die Nachtwandler - Entstehungsgeschichte unserer Welterkenntnis, 1959, S. 105

٤ - ألم يَقُم العرب حقًا بتشجيع العلوم النظرية؟

بلى: فلم يكونوا مجرد سعاة بريد للتراث اليوناني، ولم يظلوا في المستوى الحضاري الذي نقلوه عنهم وعمن سبقهم من أمم أخرى، وكأنهم عبيد مستقبلون سلبيون مقلدون تقليدًا آليًا. وفي هذا تناقض بين ما يزعمون وبين حقيقة الأمر؛ إذ إن أي حضارة تتأثر بإبداعات حضارات أخرى أجنبية عنها ومغايرة لها - سواء ارتضتها أو تسلمتها وحاكتها - إنما تحتاج إلى تأمل. ولكن هذه الحضارة العربية لا تجد اهتمامًا إلا من عدد قليل من مؤرخي الحضارات؛ إذ لم يتنبهوا، مثلما حدث فيما نحن بصدده من خطل الرأي وفداحته. فمسار الإبداع الحضاري وكيفيته يقتضي وقفة تأمل يمكن من خلالها تعرُّفه وتبين استمراره أو بقائه دون ثمرة.

فالحضارة ليست نتاجًا لأصلٍ وُضع في مِسبك ليكون تقليدًا له. وكل حضارة إذا كانت تحتضن إرث إبداع آخر، فهي تأخذ منه ما تتمكن منه قبضتها، وما يتفق واحتياجاتها الخاصة، وما يقع في دائرة اهتمامها، وتقوم بتشكيله وفق طبيعتها، فيصبح من خلقها، ويحمل بصمتها. وهذا ما حدث مع الحضارة الإغريقية التي ورثت الحضارة المصرية الفرعونية، وحضارة الشرق الأدنى. فكل شعب يشكل الحضارة التي يأخذها عمن قبله بطريقته الخاصة، ووفقًا لفكره وعمله.

ولذلك فإنه خطأ شنيع أن يعاب على العرب أنهم لم ينقلوا عن الإغريق اليونانيين ما يتميزون به في حضارتهم من تراكيب فكرية خاصة في فلسفتهم، ولم

يتابعوا نَظْمهم في أعمالهم الدرامية، وإنما أبدعوا لأنفسهم حضارة متميزة الملامح، وأصيلة لا تقارن بغيرها. فعلومهم ليست - ببساطة - امتدادًا لعلوم من نقلوا عنهم، ولم تبقَ حبيسة فكر من نقلوا عنهم، وإنما كانت لهم طريقتهم الخاصة التي تتميز عن الحضارتين اليونانية والهندية. ويتضح هذا جليًا في تباين موقف حضارتهم عن موقف حضارة الأمم التي نقلوا عنها من البحث والتفكير في الكون والعالم. فالأمر يحتاج - باختصار- إلى دراسة لعلم نفس الشعوب كي يتبين أن نقل العرب للتراث الفكري لم يكن عملاً آليًا تلقائيًا.

فالفكر العربي يهتم بمعطيات الحقائق العلمية، مخالفًا في ذلك - لحسن الحظ - اتجاه الفكر الهندي الذي يقتصر على الاتجاه الذاتي (إلى المادة لا غير)، أما الفكر اليوناني فنتيجة مباشرة للارتقاء من الخاص إلى العام، ومن الحقائق المفردة إلى الفكرة المجردة، «ودراساته كانت متعلقة بالأصول العليا، وأبحاثه النظرية تحررت من الآثار المادية في مجال الفكر الخاص»، وفي هذه الجملة التي وردت على لسان فيثاغورث Pythagoras[١٩] وصف دقيق لمنهج الفكر اليوناني، وكيف كان يحلق مرتفعًا فوق الحقائق المادية إلى النظرة العقلية والفكرة والمجردة[*].

أما المنهج العربي في الدراسات العلمية فكان مخالفًا لذلك؛ إذ التزم فيه العرب بالسير بخطى ثابتة منتظمة في عالم الحقائق المفردة، في طريق جمع التجربة القائمة على الرصد والمثابرة والقياس والعمليات الرياضية، وفى صبر وأناة

(*) Sigrid Hunke, Glauben und Wissen, Kap. "Die grundlegenden Unterschiede von griechischer und arabischer Wissenschaft", S. 105 -115.

ارتقوا من المفرد الخاص إلى الكلي العام.

فلو اعتبرنا أن اليوناني كان حقيقة فيلسوفًا طبيعيًا – مع بعض الاستثناءات – فإن العربي كان عالمًا طبيعيًا بالمعنى الخاص، وكان مخترع علم الطبيعة التجريبي الذي تمكن بآلاته من استصلاح حقول علمية جديدة، وافتتحوا ميادين بحثية لم تكن موجودة، فكان –كما ورد في كتاب «شمس الله تسطع على الغرب»(*) – مؤسس علوم الكيمياء العضوية وغير العضوية، والصيدلة، والطبيعة، وبخاصة علوم البصريات، والميكانيكا، والجبر، وحساب الأعداد، وعلم الحساب بالمعنى العصري، وحساب المثلثات، والجيولوجيا، وعلم الاجتماع، والفلسفة العقائدية.

وقد تفوق العرب بتأملاتهم للطبيعة التي تتسم بالواقعية والمنهجية على أسلافهم الصينيين والهنود واليونانيين في كل الميادين التي تتطلب الاستخدامات العملية، والتي تصلح للممارسات الحياتية في كل المجالات التي تحتاجها دائمًا. وكان تكوينهم العلمي يتطابق مع ما تتطلبه الطبيعة نفسها، ليس بمساعدة التأمل النظري العقلي –وهو أسلوب أرسطو المحبب– وإنما من خلال الملاحظات والقياس والرياضيات.

والجدير بالملاحظة هنا هو الاستمرار المتعمد الواضح للعيان لكتابات العصور الوسطى التي تنضح بالعداوة للعرب، وقد كانوا آنذاك يعدون العلم اليوناني مثالاً تقاس عليه القدرة الحضارية للشعوب، ومن ثم رفضوا التخصص العلمي عند العرب، ولم يعترفوا بقدرتهم الإبداعية، واعتبروها غير مثمرة، وغير

(*) S. 69-100.- S. Hunke, Glauben und Wissen, S. 115 – 160.

إبداعية وأنها بالنسبة لنشأة معارفنا عن العالم غير جديرة بالاعتبار.

وقد تمكن العرب - بفضل قربهم من الطبيعة والحقيقة بدارستهم المنظمة للطبيعة وبخبراتهم في دقائق المعارف التي لا تحصى، بعد طول الملاحظة والتجارب، التي لم يفقدوا الصبر في إجرائها- من الوصول إلى اكتشافات قيمة للغاية، واختراعات لترسانة من الصناعات تمكنوا من التوصل إليها بقدراتهم الخاصة. وهم في هذا لم ينفروا بأي حال من الرجوع في ذلك إلى اليونانيين، وهو ما أثبتوه من قضايا بمناهجهم النظرية بعدما قاموا بإجراء العديد من التجارب عليها، وانتقادها وتصحيحها في مئات الحالات.

ونكتفي هنا بأن نسوق أمثلة ثلاثة لذلك:

- فعالم التشريح عبد اللطيف[٢٠] الذي كان من حاشية صلاح الدين الأيوبي اكتشف خطأين عند جالينوس Galen[٢١] وصوبهما.

- وبيّن ابن النفيس[٢٢] خليفته بالمستشفى، رئيس الأطباء القاهريين فساد نظرية جالينوس عن وجود ثقوب في الحجاب الحاجز بين الأذينين بالقلب، ووصفها بأنها وهم لا صحة له. وقام بإصلاح هذا الوهم باكتشافه الدورة الدموية الصغرى.

- أما عالم الطبيعة ابن الهيثم مؤسس علم البصريات التجريبي، فقد أصلح بما آتاه الله من عبقرية - نظريات إقليدس[٢٣] Euklid، وبطليموس[٢٤] Ptolemäus عن أشعة العين المزعومة التي تسلطها على المرئيات. وقد توصل إلى ما لا يحصى من المعارف البصرية وقوانينها. وقدم علمًا كاملاً للبصريات يتضمن أيضًا استخدام العدسات والعدسات المكبرة، والمرايا بكل أنواعها،

وآلات التصوير وكشافات الإضاءة... الخ.

ووصلت هذه المعارف والعلوم إلى الغرب عبر طرق خمسة هي:

– عن طريق السفن، والمعلومات التي حصلها التجار الرحالة، وفرسان الحروب الصليبية، والحجاج.

– عن طريق جزيرة صقلية التي خضعت لحكم العرب أكثر من مائتين وخمسين عامًا، وعن طريق القيصر فريدريش الثاني من أسرة هوهن شتاوفن (وكان صديقًا للعرب) Kaiser Friedrich II von Hohenstaufen

- عن طريق إسبانيا الأندلسية التي حكمها المسلمون حوالي ثمانمائة سنة.
- عن طريق مدرسة الترجمة بطليطلة.
- عن طريق طلاب العلم المتنقلين vagierende Studiosi والبعثات، واليهود الجوالين، والحجاج والتجار.

وكان ما انهمر على أوربا كالمطر على الأرض العطشى مما حققه العرب من مكاسب في ميادين الطب والطبيعة والكيمياء والرياضيات، والفلك، والجيولوجيا، والمخترعات الفنية أي مخترعات التقنية.

وفى الوقت الذي كانت الكنيسة تحكم قبضتها على الغرب، فتزداد أحوالهم سوءًا، كان للعرب أكبر الأثر في الشعوب الأوربية على مدى مئات السنين، مما أدى إلى ازدهار نواح عديدة، وحثهم على القيام بأبحاثهم الخاصة بقوة.

وكانت هذه هي العطية الثانية التي تتلقاها أوربا والعالم من العرب، ولكنها كانت أسخى كثيرًا من سابقتها، فقد قدم العرب لهم نتائج أبحاثهم الغنية، وتجاربهم العلمية التي أشعلت أول شرارة لانطلاق العلم منذ القرن التاسع،

على حين كان الغرب مخنوقًا بتعصب الكنيسة العنيف، والتحريم والملاحقة التي وَأَدت الأبحاث، فأزالت هذه العطية العربية الانقياد الأعمى للمسلَّمات اليونانية، والتورائية، والتعاليم اللاهوتية، وساعدت على تنشيط الدراسات الطبيعية لتنطلق بكامل قوتها في استقلالية ذاتية(*).

(*) S. Hunke, Glauben und Wissen S. 103 – 195. - Aly Mazahéri, So lebten die Muselmanen im Mittelalter, 1957, S. 153.

٥ - التراث العربي
بين الحرية والسجن

كان استقبال العلوم التي أنتجها الغرباء أعداء العقيدة (أي العرب والمسلمون من وجهة نظر الكنيسة) استقبالاً متباينًا حافلاً بالتوتر؛ إذ اختلط الإعجاب الحماسي بالرفض الغليظ، والتعطش الجارف إلى العلم، بالشك العنيف، وقوبل السير في الاتجاه الجديد الذي استقبل الحضارة العربية بالسماحة والمباركة بالقمع والملاحقة، والاتهام بالكفر، والزج في السجون.

كان بطرس فون مارى كورت[٢٥] Petrus von Maricourt من بيكاردى Picardie أول مصدر مباشر للأخبار، ولقب بالحاج بيرجرينوس Peregrinus der Pilger، وقد نزل في أثناء عودته من الشرق بجزيرة صقلية، حيث أتيحت له الفرصة أن يستخدم معرفته الفنية الدقيقة بآلات الحضارة العربية عند حصار حصن لوكيرا[٢٦] Lucera. وألف أيضًا إلى جوار ذلك رسالته الصغيرة التي اشتهرت بعنوان «رسالة عن المغنطة» Epistola de "magnete". وكانت هذه الرسالة هي أول رسالة علمية عن أبحاث جابر بن حيان في مجال المغناطيسية، والبوصلة الممغنطة. وقد نص المؤرخون الصينيون على أن العرب خاضوا البحار منذ القرن التاسع بسفنهم في الليالي المظلمة مستخدمين البوصلة.

ولم يلق بطرس فيما نعلم أي أذى من قِبل المفتشين الكنسيين، أما تلميذه المشهور – وهو شاب إنجليزي – فقد كان شغوفًا بكل ما هو عربي شغفًا جعله

يكاد يلقى مصير جيوردونا برونو[٢٧] Giordona Bruno. هذا التلميذ هو روجر بيكون[٢٨] (١٢١١- ١٢٩٤) Roger Bacon الذي حصَّل ما كان يُعد في عصره معارف عالمية، ولكنه حينما رفض التعصب العقائدي الذي كان سائدًا آنذاك، والسلطات الكنسية التي تركع بجهالة أمام أرسطو واللاهوتيين، وإغراقهم المفرط في التفريعات العقائدية، والمنطق الذي لا جدوى منه، انعزل في أكسفورد المنفتحة على العالم، حيث تنتقل أعمال العرب من يد إلى أخرى. وهناك ألهبته النظرة الحرة بالحماس للحقيقة الواقعة، واقتنع بحقائق الأمور التي أصبحت أقرب ما تكون منه، وتمكن من مسايرة الأجسام، والآلات، ومتابعة الأبحاث والتجارب.

وكان الهدف من التجريب باعتباره الوسيلة إلى البحث هو تبين القوانين التي استخدمها الباحثون العرب مثل ابن الهيثم والكندي[٢٩]، والتوصل في الرياضيات إلى معرفة كيفية صياغة القوانين الرياضية وطرق استخدامها والإفادة منها.

وتمكن روجر بقدرته الفكرية على التخيل والتخطيط الجديد من تطوير المخترعات التي توصل إليها العرب باستخدامه لخياله الفني، وقدرته على التصور. ولا عجب أنه بإنفراده بالبحث في خلق الله قد آثار ريبة رؤسائه الفرنسسكان.

وزاد من خطورة الأمر بالنسبة له أنه في أثناء الحروب الصليبية لم يكتف برفع احتجاجه على البربرية ضد أصدقائه العرب، وإنما ظل يستشهد علنًا بالعرب واليهود، واستشهد بأسماء ثلاثين مسلمًا... فكان أن لعنه رؤساؤه

الفرنسسكان لاتهامه بأنه مارق، ويحتقر كل المقدسات. فحكم بطرده من أكسفورد مدة عشر سنوات.

يمم المنفيُّ نحو باريس، وهناك حظي بلقاء حظه السعيد، الذي انتشله من الوحدة السحيقة، بلقائه بالفرنسي - الذي كان سكرتيرًا للملك لودفيج التاسع Ludwig IX الملقب بالقديس، كما كان مستشارًا قانونيًا لبلاطه – وهو جى لي جروس فولك[٣٠] Guy le Gros Foulque. ولم يكن قد مضى على رجوعه من الحملة الصليبية السادسة وقت طويل، وكان مأخوذًا بها هز كيانه هزة عنيفة بعد هجوم العرب بالنار الرهيبة «بأسلحتهم الطائرة في الهواء التي تدوي كالرعد». وكانت هجمات المسيحيين الغازين لا تترك المسلمين يرتاحون إلى أن تمكنوا بعد تجارب طويلة من أن يعدوا في معامل بارود سرية مواد حربية كيميائية تفوقوا بها على الفرنجة، وأعدوا لعدوهم استقبالاً رهيبًا تتلظى ناره عند دمياط، إذ كتب المراسل الحربي الفرنسي جوانفيل Joinville:

«لقد بدت السماء وكأن البرق يتساقط منها، ويموج ما يشبه التنانين الضخمة في الهواء».

ولم يكن حولهم جميعًا إلا النار واللهب. وكلما أطلقت قذيفة وسقطت عليهم يرتاع ملك فرنسا ويصيح «حبيبي يا عيسى المسيح، احمنى واحم جيشي». ويعبر التقرير الذي كتبه الصديق الجديد - الذي وجد فيه روجر بيكون توأم روحه - عن سعة الأفق، والإعجاب بثراء قدرة العالم العربي على الاختراع؛ إذ وجد فيه أذنًا سمعت، وعينًا رأت؛ إذ يقول في مؤلفه الأساسي ج١، ص٢ : Opus majus:

«من الممكن أن تُكتشف فنون كثيرة مهمة لمواجهة أعداء الدولة دون

اللجوء إلى السيف أو أي سلاح آخر يستلزم الالتحام بالأجساد والإبادة لكل مُعارض».

وما كاد روجر بيكون يعود إلى أكسفورد بعد قضاء السنوات العشر بالمنفى حتى وصلته رسالة سرية من بروجيا Perugia بإيطاليا؛ إذ إن صديقه الفرنسي الجليل الذي كان لسنوات طويلة أسقف نربون Erzbischof von Narbonne - حين كانت محتلة من العرب، ثم أعيد غزوها باعتبارها مدينة حدودية - نصب آنذاك بابا للكنيسة الكاثوليكية باسم كليمنز الرابع .Papst Klemens IV. كتب البابا الجديد هذه الرسالة إلى روجر بيكون عام ١٢٦٥م يطلب منه - في سرية دون أن يسمح لرؤسائه الكنسيين بتضليله - أن يسرع بإرسال كتبه.

ولكن هذه الفرصة الوحيدة التي لم يطمع يومًا أن تسنح له، والتي يمكن أن تجعله أسعد حالاً، وأن يتخطى بأفكاره جدران الصمت، ويتخلص من كل الممنوعات والمحظورات الكنسية، بعد أن حظي بتشجيع أعلى سلطة كنسية، هذه الفرصة تلاشت، وساقته إلى أفدح مصيبة.

خشي بيكون ألا يستطيع الفراغ من مؤلفه الأساسي في الوقت المناسب، فاختصره ليصبح ملخصًا، ثم حوّل المختصر إلى صياغة مقتضبة. وبمجرد وصول المختصر والصياغة المقتضبة - اللذين توفر على إتمامهما ثلاث سنوات - إلى روما توفى نصيره عام ١٢٦٨.

ولما وصل الخبر إلى رؤسائه الفرنسسكان ثاروا عليه لعدم خضوعه لأوامرهم، واتصاله مباشرة بالكرسي الرسولي (البابا)، متخطيًا الرؤساء. فاتهموه بأنه لم ينته عن زندقته ومخالطته للكفار «أعداء الرب»، وعصيانه أمرهم

له بالكف عن العبث بالآلات الشيطانية، وتدوين اختباراته وكشوفه ومشروعاته المستقبلية. كما أخذوا عليه نقده الدائم للنظم التعليمية.

ولهذا كله حكموا على روجر بيكون بالسجن مدى الحياة. ولكن تعيس الحظ توفى في سجنه عام ١٢٩٤م بعد أن قضى به خمس عشرة سنة.

قال روجر بيكون مخاطبًا معاصريه ليشاهدوا أنفسهم في مرآة ما يقول:

«البهائم وحدها هي التي تنقاد بالزمام الذي يشدها، ورقابة المؤلفات أيضًا تقود عددًا منكم ليس بالقليل ، لأنهم أسرعوا بتصديقها فقيدتهم وقادتهم مثل البهائم».

وبهذه الكلمات يردد ما قاله أحد أسلافه الفرنسيين الذي تعلم العربية قبل ذلك بمائة وعشرين سنة، وتجول بالبلاد العربية، والتحق بالمدارس العليا العربية، وأقبل على تعلم علوم الطبيعة العربية، وهو أدلهارد فون باث Adelhard von Bath من بريستول Bristol (١٠٩٠- بعد ١١٦٠) وهو من عائلة نورماندية. وعندما عاد من عالم الفكر العربي البعيد الحر مذهولاً إلى بلده، أصيب بالاكتئاب مرتاعًا من جو وطنه الخانق، فأعلن في كتابه «أسئلة للطبيعة» Fragen an die Natur رفضه في عناد وغضب قائلاً:

«لقد أتيح لي أن أتعلم من العلماء العرب الانقياد للعقل، أما أنتم فصورة صنعها الاستبداد، مقيدون بزمام... والحيوانات المقيدة بزمام تقاد إلى حيث يراد لها، ولذلك لا تستطيع أن تميز إلى أين تقاد ولماذا. وهكذا أيضًا فعل رقباء المؤلفات مع عدد ليس قليلاً منكم، قيدوهم وساقوهم لسرعة تصديقهم مثل البهائم».

وقد عبر عن غضبه وقال ما كرره روجر بيكون بعده بمائة عام، وقد تشابه مصيراهما، فقد كُبل منهما العقل والجسد؛ إذ كتب روجر بيكون:

«إذا ما فاتنا أن نتعرف جمال عالمنا الرائع الحكيم الذي نعيش فيه فإننا نستحق إذًا أن نطرد منه نهائيًا، مثل الضيف الذي لا يعرف كيف يقدر البيت الذي يستضيفه. لقد تعلمت من العلماء العرب شيئًا عن الانقياد للعقل، أما أنتم فتتبعون صورة السلطة كما لو كنتم مكبلين بقيود.

وإذا ما سيقت البهائم بزمام إلى مكان ما لا يهمها أن تعرف إلى أي مكان تساق، فهي تتبع فقط الحبل الذي تساق به. وليس أقل من ذلك ما يفعله رقباء المؤلفات مع من يقيدونه منكم بحبالهم لسذاجة عقائدهم التي تماثل تصرف البهائم[1]»(*).

---

(١) هذه الفقرة هي الأصل لما قدمته المؤلفة (زيجريد هونكه) في الصفحة السابقة، ويبدو أنها أرادت أن تستشهد بنص بيكون على ما نقلته عنه (المترجم).

(*) Roger Bacon, Quaestiones naturalis 6.

٦ - الملكية الفكرية
بين النحل والانتحال

قيل إن أعمال العرب التي تدفقت على أوربا، وبخاصة في القرن الثاني عشر لقيت الترحيب والحمد كما لقيت الرفض والهجوم عليها، فقد صادفت ترحيبًا عند بعض الدوائر العلمية، وفي واحات مهرة الدراسات الطبيعية مثل مدارس شارتر Chartres ورايمز Reims وأوجسبرج Augsburg وكولونيا Köln ورايشناو Reichenau وأكسفورد Oxford حيث أقبلوا على دراستها بلهفة، ورجحت عندهم كفة هذه الأعمال، حتى إن عالمًا مثل أدلهارد فون باث Adelhard von Bath اعترف بأنه هو نفسه- إن أراد التمكن من إنجاز أفكاره الخاصة – عليه أن يضعها في كثير من الأحيان على نسق المؤلفين العرب.

وفى مقابل ذلك قوبلت أعمال أعداء الدين (أي العرب من وجهة نظر الكنيسة) بالرفض الفظ المفتعل وبالارتياب، ليس فقط بسبب مشاعر الحسد والحقد، بل لأن هؤلاء العرب الممقوتين الذين يستحقون كل ازدراء من ذوى الفضل، لا يستحقون عندهم توجيه الشكر لهم، ولا يستحقون أن يقف الغرب منهم موقف التلميذ الذي يتعلم منهم، فهو موقف ذليل، فضلاً عن أنه اعتراف بتفوقهم، مما يضطرهم آخر الأمر أن يلتزموا بتقديم الشكر لهم.

وقد زعمت الكتب التي تؤرخ لثقافتنا – بلا ملل – أن الإيطالي فلافيو جيويا[٣١] Flavio Gioja من بلدة أمالفى، اخترع البوصلة حوالي عام ١٣٠٢م. ولكننا – اليوم – لسنا مقتنعين بذلك؛ إذ إن جابر بن حيان الذي عاش بالقرن

الثامن الميلادي تمكن من إجراء تجاربه على البوصلة. وأن التجار العرب – وفقًا لأقدم المصادر – استخدموا البوصلة في رحلاتهم البحرية الكبرى عام ٨٥٤ م لتحديد المسار (في البحار)، ولم يدرك أحد أن ذلك وقع قبل الإيطالي جيويا بخمسمائة سنة؛ إذ كان من الأولى والأفضل لديهم أن ينسب اختراعها إلى الصينيين، وليس إلى العرب.

ارتبطت مدينة أمالفى[٣٢] Amalfi - وهى مسقط رأس فلافيو جيويا، وأول ميناء بحري إلى جوار البندقية Venedig - بعلاقات تجارية ذات أهمية مع الأصدقاء العرب. وقد تعرف فلافيو منهم على العلامات الإرشادية النافعة. ومن المحتمل أن يكون هو الذي أدخلها إلى الرحلات التجارية الأوربية. ثم تمكن بطرس فون ماري كورت Petrus von Maricourt بعد ذلك بثلاث وثلاثين سنة في كتابه «رسالة عن المغنطة» Epistola de magnete من تقديم رسم لبوصلة ذات أرقام عربية.

وبطبيعة الحال لم يتقبل الغرب حقيقة أن العرب هم الذين اخترعوا البارود؛ إذ إن هذا الاختراع خليق بأن ينسب إلى أوربي، بل الأفضل أن ينسب إلى مخترع ألماني يستحق عليه الثناء، وينوه عنه في سجل النابهين. ويا حبذا لو كان هذا المخترع راهبًا. هذا إذا لم يكن من الممكن أن ينسب الاختراع إلى أحد الصينيين. وقد اختير الراهب الفرنسسكانى برتهولد شفارتز[٣٣] Berthold Schwarz ليؤدي دور الراهب المعتكف في ديره، والكتوم صاحب الأسرار والعجائب. وأنه هو الذي اخترع البارود[٣٤] في صومعته الضيقة حوالي عام ١٣٥٩.

ولكن ألم تُثِر القناصة العرب الرعب والهلع في صفوف الفرسان الذين

قدموا من أوربا، واحتشدوا لقتالهم في إسبانيا من قبل، في الأعوام١٣٢٥، ١٣٣١، ١٣٤١؟ ألم يرتعد ملك فرنسا وجيشه خوفًا، قبل ذلك بمائة سنة - وكأن يوم القيامة حلّ – عندما برق وميض الطلقات التي تدوي كالرعد في ظلام الليل فوق النيل؟

أما بالنسبة للصينيين، فإنه لم يرد عنهم أي خبر يفهم منه أنهم اخترعوا البارود. ففي الحرب المصيرية الفاصلة بين المغول والصينيين القدماء عام ١٢٣٢ استخدم الصينيون السهام المشتعلة. وفى عام ١٢٧٠ طلب السلطان قبلاى خان المغولي[٣٥] Kublai – Khan من السلطان العربي أن يرسل له المهندسين العرب من مدينة بعلبك، ومدينة دمشق، فقاموا بتصنيع البارود. وتمكن بمساعدتهم من الانتصار في حروبه.

فليس الأمر - كما قيل- أن راهبًا يسمى الأسْوَد Schwarz استطاع لدرايته الواسعة بالسحر الأسود Schwarzkünste من اختراع البارود. وفضلاً عن ذلك فإن مسيحية الغرب نفسها هي التي كانت تحرص في موجات متجددة أن تعتدي على البلدان العربية، وقد اضطر العرب – للضرورة المرّة – لحماية أنفسهم من هذه الهجمات الصليبية أن يخترعوا البارود. وهذا ما تُبينه كتب التاريخ مثل كتاب حسن الرَّمَّاح[٣٦] وغيره من كتب أخرى. وهذا ما شهد به روجر بيكون.

وفى عام ١٣٤٦ انتهت المعركة بين الإنجليز والفرنسيين عند كريسى Créci باستخدام مواسير الشيطان العربية في سلاح الفرسان آنذاك. وقد حدث هذا قبل السنة التي قيل إن الشخصية الخيالية برتهولد Berthold هو

الذي اخترع فيها البارود. وقد استمر هذا الاعتقاد سنوات طويلة. فهل استخدم عبقريته هذه في خدمة فنون الحرب؟

وقد امتدت محاولة نسبة المخترعات العربية إلى أوربيين، واستخدمت هذه المحاولات في علوم كثيرة، ولاسيما في الطب، الذي كان في حاجة لسد العجز فيه. وقد شهد بذلك أجريبا فون نتسهايم[٣٧] Agrippa von Nettesheim في كتابه «في الطب» «In der Heilkunde» حوالي عام ١٥٠٠م، إذ يكتب:

«هل كان العرب من الشهرة بحيث يشاع عنهم أنهم مخترعو هذا العلم؟ قد كان يمكنهم أن يدّعوا هذا ببساطة لو أنهم لم يستخدموا الكثير من الأسماء والكلمات اللاتينية واليونانية. لذلك ذكرت كتب ابن سينا[٣٨]، والرازي[٣٩]، وابن رشد[٤٠] بالتوثيق نفسه الذي ذكر به أبقراط[٤١] Hippokrates وجالينوس[٤٢] Galen، وحظوا بالاحترام نفسه. ومن ثم فإن من يتصدى لعلاج المرضى دون أن يفهم ما قدمه العرب يمكن أن يقال عنه بكل بساطة إنه يخرب الصالح العام»[*].

ولم يكن هذا هو رأى كل فرد بالغرب، فعلى الرغم من أن صاحب الفضل الأول في إيقاف نزيف الأوعية الدموية هو الطبيب العربي أبو القاسم، فإن الغرب ينسب هذا الفضل إلى الجراح الفرنسي أمبرواز باري Ambroise Paré الذي جاء بعده بستمائة سنة، أي في عام ١٥٥٢م، زعمًا بأنه أول من قام بذلك.

كذلك فإن أعمال الجراح الأندلسي العظيم أبي القاسم[٤٣](ت ١٠١٣م)، الذي

(*) S. Hunke, Glauben u. Wissen, S. 161.

كان معاصرًا للقيصر أوتو الثالث[٤٤] .Otto III والذي اشتهر بأنه أستاذ الأطباء الغربيين، كانت هذه الأعمال - بخاصة - عرضة لانتحال الغرب:

- فوضع التدلي عند التوليد Hängelage الذي أحدثه ينسب منذ عام ١٩٠٠ إلى أحد أطباء أمراض النساء بمدينة شتوتجارت ويدعى فالشر Walcher (١٨٥٦-١٩٣٥م) وسمي هذا الوضع باسمه (أي تدلي فالشر Walcher-Lage)
- ما أوصى به عند الجراحة أسفل الصرة برفع الحوض والقدمين سمي بحالة ترندلنبورج Trendelenburgsche Lage نسبة إلى الجراح الألماني فريدريش ترندلنبورج (١٨٤٤-١٩٢٤) Friedrich Trendelenburg.
- نسب تشخيص أبى القاسم - المسمى في الغرب Abulcasis - لمرض المفاصل والفقرات إلى برسيفال بوت Percival Pott (١٧١٣-١٧٨٨م). وسمي في تاريخ الطب باسم Pott' sches Übel.

أما شرف اكتشاف الدورة الدموية فقد اقتسمه في أوربا الإسبانى ميشائيل سيرفت[٤٥] Michael Servet عام ١٥٥٣م والإنجليزي وليم هارفى[٤٦] William Harvey عام ١٦١٦م، وهذا انتحال لما قام به صاحب الاكتشاف العربي الحقيقي؛ إذ إن جالينوس Galen الطبيب اليوناني الذي عاش بالقرن الثاني الميلادي، والذي كان أعلى سلطة طبية بالعصور الوسطى كلها، كان يعلِّم تلاميذه أن الدم النقي يتدفق من البطين الأيمن عبر ثقوب بالجدار الفاصل بالقلب إلى البطين الأيسر. وهذا خطأ فادح.

وأول من عرف هذا الخطأ وصححه الطبيب المهارس ابن النفيس الدمشقي

الذي كان رئيس أطباء مستشفى الناصر بالقاهرة(*). وهو أول من فحص الدورة الدموية و وصفها «بما يدلل عليه التشريح» بأدق التفاصيل. وقد استخدم الإسباني ميشائيل سيرفت (١٥١١- ١٥٥٣م) كلماته نفسها في كتابه النقدي الضخم المعنون «إصلاح المسيحية» Wiederherstellung des Christentums الذي جاء بعده بثلاثمائة عام. ووصف به نظريًا كيف أن الدم هو مركبة الروح التي تسري في الجسم.

أكان هذا مصادفة أم سطوًا على أعمال تخص الغرباء الآخرين؟

فهو كإسباني يمكنه أن يطلع على الدراسات العربية بما فيها من دراسات طبية، ولعله اطلع على تفسير ابن النفيس لمؤلَّف ابن سينا عن التشريح (أي «القانون») الذي كان من السهل العثور عليه آنذاك. وما زالت توجد منه مخطوطة محفوظة بمكتبة الإسكوريال بمدريد.

إنها روح الزندقة التي حملت سيرفت على أن يهاجم المسيحية، وينقدها نقدًا عنيفًا. وقد زج به في السجن – لأنه ساند كالفن[٤٧] Calvin المتهم بالزندقة – حيث بقى سجينًا في حالة بائسة حتى نفذ فيه حكم الإعدام بالحرق العلني في جنيف.

أما رسمه التخطيطي الموجز للدورة الدموية الصغرى فلم يذكر فيه المصادر التي رجع إليها، ولم يذكر أي شيء عن جالينوس أو عن ثقوب الجدار الفاصل بالقلب، سواء بالموافقة عليه أو برفضه، مما يدل على أنه لم يعلم عنه شيئًا.

(*) كما ورد بكتابي «شمس الله» ص ١٤٢.

ومن ثم يجب أن يراجع الذين يلهجون بالثناء عليه بحماس أنفسهم، وأن يعيدوا النظر في فضل الريادة، ويردوا الاكتشاف المزعوم إلى صاحبه. وقد تمكن أخيرًا أحد مواطني ابن النفيس – وهو الطبيب القاهري التطاوي الذي كان يدرس للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة فرايبورج عام ١٩٢٤، تمكن من الوصول إلى الحقيقة، وتبين أن ابن النفيس هو أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى.

كان المسيحي قنسطنطين الإفريقي القرطاجي Konstantin von Afrika من كبار الذين سطوا بانتظام على التراث العربي منتحلين إياه. كان عشابًا (يتاجر في الأعشاب الطبيعية) يطوف بها في المدن حول البحر الأبيض المتوسط، وأتيح له في طوافه زيارة مدرسة الأطباء في سالرنو Salerno، التي كانت هيئة التدريس بها مجموعة تنتمي إلى شعوب مختلفة. ومن ثم خطرت له فكرة التوفيق بين التناقض الزاعق بين مستوى المعارف الطبية عند الأطباء الفرنجة، ومستوى الأطباء العرب في برجهم الطبي العالي، ومعرفتهم بالطب والتطبيب. وبعد زمن أعد فيه كل ما يلزمه لذلك الأمر، رجع إلى سالرنو متأبطًا مجموعة من الكتب. وهناك نشط في همة للقيام بعمله المثمر، ولكنه سرعان ما نقل مقره إلى مونت كاسينو[٤٨] Monte Cassino وواصل عمله في هدوء، دون إزعاج.

وإذا بمؤلفاته التي تسطرها ريشته بلا كلل في كل المجالات الطبية، وبها سيل من العلوم ذات القيمة العالية، وكأنها شلال من نور، أو كأنها حلول روح القدس من علٍ، تنصب فياضة على هيئة تدريس الطب في سالرنو. فَعَلت

منزلته، وذاع صيته، واشتهر بأستاذيته في الطب. فيا لرجاحة عقله!!

ولكن لم يمضِ أربعون عامًا حتى تكشفت الحقيقة، وعُرف أن حكيم مونت كاسينو العظيم ليس إلا تاجر أعشاب محتال؛ إذ سرعان ما تعرف خبير بعد خبير على المؤلف الحقيقي لهذا العمل أو ذاك من مشاهير المؤلفين العرب، وإنما انتحلها التاجر القرطاجي المتجول ، الذي ظن أنه سيخلد إلى الأبد.

لقد جاهد الغرب بكل قواه – سنين طويلة – كي يجحد فضل العرب في أسبقية المعرفة في كل الميادين، حتى هبت عاصفة عنيفة في حقول الدراسات الأدبية في العشرينيات من القرن العشرين.

وعندما صرح كونراد بورداخ[٤٩] Konrad Burdach الخبير بشعر العصور الوسطى، وبخاصة شعر الغزل الذي درسه بعناية، أن الشعر العربي هو الأصل الذي نقل عنه الشعر البروفنسالي الفرنسي Provenzal، وشعر الغناء الألماني الميني زانج Minnesang، عندما صرح بذلك أثار حوله زوبعة هائجة من النقد، ولقى معارضة شديدة؛ فلم يكن الغرب مستعدًا للاعتراف بالامتنان للعرب لنقل هذا الفن النفيس الرائع عنهم.

وقد وَلّد شعر الفاجنتين[٥٠] Vagantendichtung فرعًا آخر للشعر الغنائي ويُعَدُّ منبثقًا من التراث الإغريقي. فقد بعثت فنون العصور القديمة مرة أخرى في فترة متأخرة من القرون الوسطى توهج فيها الغرب، فقد اشتهر أوفيد[٥١] Ovid بخاصة بعمله «Ars amatoria» بنغماته الراقصة في الحب التي أصبحت معروفة وتحاكى. فقد حاكاه شعر المارين[٥٢] Mariendichtung في الشعر الغربي، واشتدت حدة الجدل وامتدت حتى إلى المناقشة التي عقدت

للحكم على رسالتي التي تقدمتُ بها للحصول على درجة الدكتوراه عن «أثر الأنماط الغريبة (الأجنبية) في ضوء فن الغزل العربي والألماني»، وبينتُ من خلال الأمثلة أثر الشعر العربي في الميني زانج الألماني. وللمصادفة كان المشرف المشارك يؤمن بالفرية التي تزعم أن شعر أوفيد ودعاواه Ovid – These هي الأصل في شعر الميني زانج، على حين أن المشرف على الرسالة كان أحد كبار العلماء المتمكنين من معرفة الثقافة العربية ورجالاتها. وهو الذي أعلن أن البرهنة على الأصالة العربية واضحة بصورة قاطعة وأنه مقتنع بصحة الأدلة على الأصل العربي لفن الغزل.



تعليقات الفصل الخامس

١) حريق مكتبة الإسكندرية:

يرجى الرجوع إلى هذه القصة كاملة بكتاب تاريخ الحكماء للقفطي (٥٦٨ – ٦٤٦هـ/ ١١٧٢ – ١٢٤٨م) عند ترجمته ليحيى النحوي ص٣٥٤ - ٣٥٧[1] وكان معاصرًا لفتح مصر، ومتصلاً بعمرو بن العاص. وهو الذي طلب فيه «كتب الحكمة في الخزائن الملوكية» وتسبب بهذا الطلب في جعل عمرو بن العاص يرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب، فكان أن أرسل إليه فيما جاء بالقصة – يقول: وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففي كتاب الله عنها غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها. ومن ثم كان حرق مكتبة الإسكندرية.

وقد وردت القصة نفسها لدى أبي الفرج المعروف بابن العبري. وهو أبو الفرج جريجوريوس (٦٢٣ – ٦٨٥هـ/ ١٢٢٦ – ١٢٨٦م) وهو مؤرخ سرياني صنف كثيرًا من الكتب في اللغة والتاريخ والفلسفة والعقائد. ووضع بالعربية موجزًا لكتاب في التاريخ كتبه بالعبرية، وجعل عنوانه «مختصر تاريخ الدول». نصب أسقفًا لليعاقبة في مدينة حلب، ثم ارتقى إلى رتبة جاثليق على كرسي المشرق ١٢٦٤م.

---

(١) ويرجع أيضًا إلى تعليق المستشرق جوستاف فليجل على ما جاء بالفهرست ج١ ص٢٥٤ الذي يذكر فيه أن القفطي لم يذكر المصدر الذي نقل عنه هذه المعلومات. ولم يذكره أيضًا أبو الفرج ابن العبري الذي نقل عنه.

وراجع أيضًا ص٢٦٩ من الجزء الثاني من كتاب الفهرست، إصدار عوني عبدالرءوف وإيمان السعيد، سلسلة الذخائر (رقم ١٥٠)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦.

وذكر القصة أيضًا عبداللطيف البغدادي (٥٥٨– ٦٢٩/ ١١٦٢ – ١٢٣١). ولد ببغداد، ودرس الطب والفلسفة، وقام بتدريسها بدمشق وحلب ثم انتقل إلى مصر، والتقى بموسى بن ميمون وألف كتبًا في الطب والفلسفة واللغة والتاريخ. ومن كتبه «الإفادة والاعتبار» فيه وصف لمصر في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي.

أما إحراق المكتبة المزعوم فيقال إنه كان سنة ٢٢هـ / ٦٤٢م، أي أن أقدم تأريخ عربي للحادثة يبعد عن تاريخ وقوعها بأكثر من ستمائة سنة. ولم يرد ذكر هذه الحادثة بأي تاريخ يوناني مما وصل إلينا أو غيره، بل قيل إنهم أخذوا معلوماتهم من مصدر مجهول ضائع معادٍ للمسلمين، على الرغم من أن المؤرخين العرب قبل هذا التاريخ لم يذكروا شيئًا عنه أيضًا.

وتعليقًا على هذه الفرية التي تنسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب في الرسالة التي أرسلها إلى عمرو بن العاص وسبق ذكرها نكتفي بأن نورد:

١– نص مصالحة عمر أهل إيلياء بالجابية عند حضوره إلى بيت المقدس، ٢– وما أعطاه لأهل لُدّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، ٣– ونورد أيضًا نص الأمان الذي تعهد به للمقوقس وأهل مصر نقلاً عن تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك، تحقيق وتعليق عبدا علي مهنا / المجلد الثالث، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان ١٩٩٨.

أولاً: صلح أهل إيليا (ص٤٠٣):

«وعن خالد وعبادة، قالا: صالح عمر أهل إيلياء بالجابية، وكتب لهم فيها الصلح لكلّ كُورة كتابًا واحدًا، ما خلا أهل إيلياء:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبدُ الله عمر أمير المؤمنين من الأمان؛ أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبَريئها

وسائر ملّتها، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيِّزِها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكنُ بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطُوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منهم الرّوم واللصوت[1]؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومَن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومنْ أحبّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الرّوم ويخلّي بِيعهم[2] وصُلُبهم فإنّهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومَن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجِزْية، ومن شاء سار مع الرّوم؛ ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم؛ وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمّة رسوله وذمّة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبدالرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان. وكتب وحَضر سنة خمس عشرة».

ثانيًا: عهد أمان أهل لُدّ (ص٤٠٤).

«فأما سائر كُتبهم فعلى كتاب لُدَّ: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لُدّ ومَن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلُبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملّتهم، أنه لا تُسْكن كنائسهم ولا تُهدم ولا ينتقصُ منها ولا من حَيِّزها

(١) اللصوت: اللصوص.

(٢) البِيَع: أمكنة العبادة عند النصارى واليهود، جمع بِيْعَة.

ولا مللها، ولا صُلُبهم ولا من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم؛ وعلى أهل لُدّ ومَن دخل معهم من أهل فلسطين أن يُعطوا الجزية كما يعطي أهلُ مدائن الشأم، وعليهم إن خرجوا مثلُ ذلك الشرط إلى آخره».

ثالثًا: عهد الأمان للمقوقس ولأهل مصر:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهلَ مصر من الأمان على أنفسهم وملّتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم، وبرّهم وبحرهم؛ لا يُدخَل عليهم شيء من ذلك ولا يُنتقص، ولا يساكنهم النّوب. وعلى أهل مصر أن يُعْطُوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح. وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لُصوتهم (أي لصوصهم) فإن أبى أحدٌ منهم أن يجيب رُفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمّتنا مِمّن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رُفع عنهم بقدر ذلك، ومَنْ دخل في صلحهم من الروم والنُّوب فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومَنْ أبى واختار الذّهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثًا في كلّ ثلث جِباية ثلث ما عليهم، على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمّته وذمّة رسوله وذِمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يُعينوا بكذا وكذا رأسًا، وكذا وكذا فرسًا، على ألا يُغْزَوْا ولا يُمنَعوا من تجارة صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبدالله ومحمد ابناه. وكتب وردانُ وحضر».

٢) بطليموس الأول (سوتر) Ptolemäus I. Soter:

ولد قبل ٣٦٠ ق.م، وتوفى ٢٨٣ق.م. قائد من قواد الإسكندر الأكبر، حكم مصر بين عامي (٣٠٤ – ٢٨٥) ق.م.

٣) كاراكالا Caracalla, Marcus Aurelius Antoninus:

قيصر روماني حكم ست سنوات (٢١١ - ٢١٧م) منح جميع المواطنين الأحرار الحقوق الرومانية.

٤) فالنس (٣٢٨ - ٣٧٨م) Valens, Flavisa قيصر روماني:

شارك أخاه فالنتنيان الأول Valantinian I. ثم أصبح قيصرًا وحكم اعتبارًا من عام ٣٦٤، وسقط في معركة ضد القوط الغربيين بجوار أدريانوبل Adrianopel.

٥) ثيودوسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥م) Theodosios d. Gr. Flavius

قيصر روماني شرقي. هزم الغوط، ونصب نفسه على الإمبراطورية الغربية أيضًا سنة ٣٩٤ بعد محاربة الكفرة والإريانيين.

٦) السيرابيون: هو المعبد المخصص للإله الفرعوني.

٧) كاتين Katyn مدينة روسية بالقرب من سمرلنسك، عثر فيها الضباط الألمان عام ١٩٤٣ على مقابر جماعية لحوالي ٤١٠٠ جندي بولندي.

٨) الآية القرآنية ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: آية ٤].

٩) البطريق المقوقس Patriarch Kyros

هو الحاكم البيزنطي الذي حكم مصر أيام الرسول (ص) وقد دعاه عرب الإسكندرية «المقوقس» متوهمين أن هذا اللفظ لقب من ألقاب الحاكم، مع أنه أطلق على سبيل التهكم على البطريق الذي كان يضطلع أيام الفتح الإسلامي بالسلطة الزمنية أيضًا (وليس الدينية فقط).

١٠) الحديث النبوي: «اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم» رواه البيهقي والخطيب وابن عبد البر والديلمي وغيرهم عن أنس، وهو ضعيف: يقول الذهبي في «تلخيص الواقعات»: «روي من عدة طرق واهية وبعضها صالح». من كتاب كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من

الأحاديث على ألسنة الناس لإسماعيل بن محمد العجلوني، دار التراث، مصر د.ت (ج١ ص١٥٤).

أما الحديث: «إن الساعي في طلب العلم عابدٌ لله» فلم أعثر عليه، وإن وجدت ما يقاربه في المعنى: «العلم أفضل من العبادة، ومِلاك الدين الورع» وهو حديث ضعيف، رواه الخطيب في التاريخ، ورواه ابن عبد البر في العلم عن ابن عباس، ويروى: «العلم خير من العبادة، ومِلاك الدين الورع» وهو حديث حسن، رواه ابن عبد البر عن أبي هريرة. راجع: الجامع الصغير، ج٢، ص٣٥٢.

وأما الحديث: «خذوا العلم ولو من فم كافر» فلم أعثر عليه، وإن كان الحديث الذي رواه ابن عساكر: «العلم ضالة المؤمن، حيث وجده أخذه» يقاربه في المعنى.

راجع: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، ج٢ ص٨٩.

وأما الحديث: «الساعي في طلب العلم هو في سبيل الله حتى يرجع» فقد ورد في سنن الترمذي: «من خرج في طلب العلم، فهو في سبيل الله حتى يرجع» باب فضل طلب العلم من تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لأبي العلي محمد عبد الرحمن بن عبد الحليم المباركفوري، دار الفكر، ط٣، ١٩٧٩، ج٧ ص٤٠٦ «حديث حسن غريب، رواه بعضهم فلم يرفعه».

وفي الجامع الصغير للسيوطي ج٢ ص٥٢٥ «حديث صحيح».

وأما الحديث «مداد طالب العلم يعدل عند الله دم الشهيد» فلم أعثر عليه بنصه.. وإن وجدت: «يُوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء».

قال السيوطي في «الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير» ج٢ ص٥٩٠: «حديث ضعيف، رواه الموهبي عن عمران بن حصين، ورواه ابن عبد البر في العلم عن أبي الدرداء، ورواه ابن الجوزي في العلل عن النعمان بن بشير».

وورد بصيغة أخرى: «مداد العلماء أفضل من دم الشهداء» رواه المنجنيقي في رواية الكبار عن الصغار له عن الحسن البصري. قال الزركشي نقلاً عن الخطيب: موضوع، وقال إنه من كلام الحسن». راجع: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، ج٢ ص٢٨٠.

وفي إحياء علوم الدين للغزالي (دار الشعب، مصر، د. ت. ج١ ص١٠): «يُوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء: ابن عبد البر من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف». ولديه أيضًا ج١ ص١٤ «قال الحسن رحمه الله: يُوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء».

١١) ورد برسالة القديس بولس إلى أهل كورنثوس ٣ : ١٩ «لأن حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله لأنه مكتوب الآخِذُ الحكماءَ بمكرهم».

١٢) ترتوليان Tertullian

ولد حوالي ١٦٠م، وتوفي بعد ٢٢٠. كاتب كنسي لاتيني، انفصل في عام ٢٠٧ عن الكنيسة والتحق بمذهب المونتانيزموس Montanismus. في كتاباته تحمس لضرورة نقاء التعاليم الكنسية، واشتد هجومه على الكفرة وكراهيته لليهود، وأخيرًا ضد مخالفة المسيحية الصحيحة والاتجاه إلى تحولها إلى العلمانية. ويعد ترتوليان أول من ابتدع أسلوب الكتابات الكنسية اللاتينية.

١٣) النساطرة:

أهل بدعة ظهرت في القرن الخامس الميلادي يعتقدون فيما قال به نسطوريوس بطريرك القسطنطينية حين اعترض على تسمية مريم العذراء بوالدة الإله،

فعارضه كيرلس الإسكندري وانعقد بسبب ذلك ثلاثة مجامع دينية متلاحقة: مجمع أفسوس ٤٣١م، ومجمع خلقيدونه ٤٥٠م، ومجمع القسطنطينية ٥٥٣م. وقررت كلها أن للمسيح طبيعتين: إلهية، وإنسانية متحدين في أقنوم واحد، وقوام إلهي واحد. ناصرت كنيسة أنطاكية مذهب نسطوريوس، ولكن لم يبق معه في النهاية إلا كنيسة فارس التي صارت الكنيسة النسطورية. ولا يزال لها أتباع في العراق وإيران وملايار، والهند طقوسها سريانية شرقية. وتدعى أحيانًا بالكنيسة الأشورية[١].

١٤) المايا: هنود أمريكيون يقطنون شبه جزيرة بوكاتان وشياباس بالمكسيك، وفي جواتيمالا، وغرب هندوراس ويتكلمون لغة المايا. كانت حضارتهم من أعظم الحضارات الأمريكية قبل الكشف الكولمبي.

١٥) الإنكا: الإمبراطورية الهندية التي كانت قائمة قبل كشف كولمبس لأمريكا، والاسم إنكا يشير إلى اسم الإمبراطور، ويستخدم بمعنى الشعب كله. أسست الإمبراطورية حوالي سنة ١٢٠٠ وبلغت أوج عظمتها وسطوتها في عهد واينا كابا (١٤٩١ – ١٥٢٧م).

١٦) خالد بن يزيد بن معاوية الأموي (ت ٨٥هـ/ ٧٠٤م):

كان حكيمًا اشتغل بالكيمياء والطب والنجوم فأتقنها، وألف فيها رسائل. بويع بالخلافة بعد موت أبيه، فأقام ثلاثة أشهر ثم تخلى عن الخلافة لينصرف إلى العلم. أمر بإحضار فلاسفة يونانيين من مصر يعرفون العربية، وكلفهم بنقل الكتب عن اليونانية إلى العربية فترجموا كتبًا في الطب والنجوم والكيمياء.

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي بالقاهرة ج٢ ص٢٩.

١٧) يرجى الرجوع إلى كتابي «تاريخ الترجمة العربية بين الشرق العربي والغرب الأوربي». مكتبة الآداب، ٢٠٠٨ (ص٧٥ - ١٧١)، الفصل الثاني: ازدهار الترجمة عند العرب).

١٨) الرجاء الرجوع إلى الكتاب السابق نفسه لمعرفة ما ترجمه الغرب عن التراث العربي ومدى إفادته منه، الباب الثالث: نقل الغرب عن حضارة الشرقيين (ص١٧٧ - ٢٤٧).

١٩) فيثاغورث (ولد حوالي ٥٨٢، وتوفى حوالي ٥٠٧ ق.م) Pythagoras.

فيلسوف يوناني. كان يرى أن العلاقات يمكن التعبير عنها بالعدد. أي أن الجانب الكمي هو لب الحقيقة، فكل جوهر عدد، كما أن أنغام الموسيقى جوهرها أعداد، فالعدد علاقات هندسية أو رياضية. وكان يرى أن الغاية من تعلم الرياضيات الموسيقى التي تُعد بلوغ الانسجام بين الروح والجسد. له نظرية هندسية مدونة باسمه.

٢٠) عبد اللطيف البغدادي (٥٥٧ - ٦٢٩هـ/ ١١٦٢ - ١٢٣١م)

عبد اللطيف الذي ورد اسمه لدى المؤلفة هو الشيخ موفق الدين عبد اللطيف ابن يوسف البغدادي ويعرف بابن اللباد، موصلي الأصل، بغدادي المولد. كان مشهورًا بالعلوم، كثير التصنيف، وكان متميزًا في النحو واللغة العربية، عارفًا بعلم الكلام والطب. وقد اعتنى كثيرًا بصناعة الطب لما كان في دمشق، واشتهر بعلمها، وكان يتردد إليه جماعة من التلاميذ وغيرهم من الأطباء للقراءة عليه، تنقل في بلاد كثيرة، ثم توجه إلى صلاح الدين الأيوبي بظاهر عكا، وكانت شهرته بالموصل قد بلغت صلاح الدين، فانبسط له وأقبل عليه. ثم طلب عبداللطيف من صلاح الدين أن يرسله إلى مصر، ولما دخل القاهرة أصبح ضيفًا على القاضي الفاضل، وبقي بها زمنًا. ثم سافر إلى دمشق بعد أن

مر بمجلس صلاح الدين، ثم عاد إلى مصر لما ملك العادل سيف الدين. تميز البغدادي في صناعة الطب، وصنف في هذا الفن كتبًا كثيرة عرف بها، وعاد إلى الشام مرة أخرى، ثم خطر له أن يسافر إلى بغداد، ليقدم للخليفة المستنصر بالله أشياء من تأليفه، ولما وصل إلى بغداد مرض بها وتوفى في ثاني عشر من المحرم سنة ٦٢٩هـ. ودفن بها.

ومن تصانيفه في الطب:

- شرح كتاب الفصول لأبقراط.
- شرح كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط.
- اختصار شرح جالينوس.
- كتاب الأمراض الحادة لأبقراط.
- اختصار كتاب منافع الأعضاء لجالينوس.
- اختصار كتاب الجنين.

وغير ذلك كثير.

يرجع في سيرته وأعماله إلى كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، تحقيق ودراسة د. عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، المجلد الرابع، ص٢١١ – ٢٥٣.

وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان، التكملة، ج١ ص٨٨٠، ٨٨١.

C. Brockelmann, Geschichte d. arabischen Literatur 1. Supl. Bd. I 880 ff.

٢١) جالينوس (١٣٠ – ٢٠٠م) Galen

طبيب وكاتب يوناني. عمل جراحًا لمدرسة المصارعين بعد أن أتم دراسته باليونان وآسيا الصغرى والإسكندرية، ثم أقام بروما، وأصبح طبيبًا لمرقص

أوريليوي. ينسب له خمسمائة مؤلف أغلبها في الطب والفلسفة، بقى منها ثلاثة وثمانون على الأقل. أضاف إلى ما سبقه من معارف طبية اكتشافاته التي توصل إليها بالتجريب وبتشريح أجسام الحيوانات[١].

٢٢) ابن النفيس:

هو علي بن أبي الحزم القرشي (ت٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) طبيب دمشقي. كان إمامًا في علم الطب لا يضاهى، عالمًا في ميادين الفكر والعلم والطب، وصنف في المنطق والفلسفة، وأصول الفقه والعربية والحديث وعلم البيان والطب.

كان مستقلاً في التفكير والرأي، يعتمد في استنتاجاته على العقل والملاحظة والتجربة وكان استقلاله في الفكر، وروح النقد من العوامل التي جعلته يسبق عصره في العلاج والتطبيق العلاجي، فجاء بآراء ونظريات تعد فتحًا في ميدان الطب وعلم وظائف الأعضاء.

كشف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى، وقال إن الدم ينقى في الرئتين قبل أن يقول بذلك «سيلفيوس Sylvius» بثلاثة قرون. كان من المعروف في أيامه الرأي الذي قال به جالينوس وابن سينا بأن الدم يتولد في الكبد ومنه ينتقل إلى البطين الأيمن في القلب، ثم يسري بعد ذلك في العروق إلى مختلف أعضاء الجسم فيغذيها، وأن بعضه يدخل البطين الأيسر عن طريق مسام في الحجاب الحاجز حيث يمتزج بالهواء الذي يأتي من الرئتين.

وعارض ابن النفيس هذه الآراء ونقدها، ولو كانت منسوبة إلى جالينوس وابن سينا[٢]. وخرج من ملاحظته وخبرته ودراساته إلى أن الدم ينساب من

---

(1) A History of Surgery pp. 15 - 21.
(2) A History of Surgery, p. 100.

البطين الأيمن إلى الرئة حيث يمتزج بالهواء ثم إلى البطين الأيسر، وهذه هي الدورة الدموية الصغرى.

وكان دكتور يوسف شاخت J. Schacht المستشرق الألماني يقول «أصبح ابن النفيس الإمام الأول لهارفي الطبيب البريطاني المشهور الذي خطا في المسألة خطوة جديدة، وكشف في سنة ١٦٢٨م الدورة الدموية الكبرى من البطين الأيسر إلى الشرايين، ومنها إلى الأوردة ثم البطين الأيمن».

ألف ابن النفيس: «الموجز» وهو ملحق لقانون ابن سينا، وكتاب «شرح تشريح القانون» ونشر له شاخت الرسالة الكاملية، وهي نصوص وترجمات عن المؤلفين الشرقيين[١].

نشر وليام هارفي (١٥٧٨ - ١٦٥٧) نظريته سنة ١٦٢٨[٢].

٢٣) إقليدس Euklid

عالم رياضيات يوناني، نشأ في الإسكندرية في عهد بطليموس (٣٢٣ - ٢٨٥ق.م.) أنشأ مدرسة بالإسكندرية. ألف كتاب الأصول، ويشتمل على ثلاث عشرة مقالة، ترجم الكتاب إلى اللاتينية في القرن الخامس عشر الميلادي، وإلى العربية في القرن الثامن الهجري، ونقل من العربية إلى اللغات الغربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

كتب عنه القفطي في تاريخ الحكماء (صفحة ٦٢ - ٦٥) باسم «إقليدس

(١) العلوم عند العرب لقدري حافظ طوقان، مكتبة مصر (د. ت)، ص٢١٥ - ٢٣٧.

والمستشرقون: نجيب العقيقي، دار المعارف ١٩٦٥، جـ٢ ص٨٠٣ - ٨٠٥.

(2) Daniel de Moulin, A History of Surgery, Martinus Nijhoff Publishers L Dordrecht, Boston, Lancaster p. 100, 101.

المهندس النجار المصري»[1].

٢٤) بطليموس Claudius Ptolemäus (ولد حوالي ١٠٠م وتوفى حوالي ١٨٠م).

عالم فلك ورياضيات وجغرافيا وطبيعة، وكان مؤرخًا أيضًا. يوناني مصري. نشأ بالإسكندرية في الربع الثاني من القرن الثاني الميلادي. اكتشف عدم انتظام حركة القمر، وله أرصاد هامة عن حركات الكواكب. اعتبرت أعماله في الفلك والجغرافيا مرجعًا أساسيًا حتى أيام كوبرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) Nikolaus Kopernikus.

من آثاره: المجسطي: يبحث في الفلك والرياضة، ويشتمل على مسائل وتفسيرات الأجرام السماوية وعلاقتها بالأرض.

ذكره ابن النديم بالفهرست باسم «بطلميوس الإسكندراني» ج١ ص٢٣٩ طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة، عدد (١٤٩) من سلسلة الذخائر.

وذكره القفطي في تاريخ الحكماء باسم «بطلميوس القلوديّ» ص٩٥ - ٩٨.

٢٥) بيير بيلارين دي ماريكورت Pierre Pelerin de Maricourt

فرنسي اشتغل بالتدريس. نُسب إليه إجراء تجارب على المغناطيس، وكتب وصفًا لخصائص المغناطيس. كما نسب إليه كتابة مذكرات تشتمل على تفاصيل الإبرة المغناطيسية وخصائصها، وتركيب الأسطرلاب.

٢٦) حصن لوكيرا Lucera Kastell

لوكيرا مدينة إيطالية بمقاطعة أبولين Apulien، بها قلعة بناها فريدريش الثاني حوالي ١٢٣٣.

---

(١) تحقيق ليبرت، وترجم الحواشي وأضاف إليها عوني عبد الرءوف، مكتبة الآداب، ٢٠٠٨.

٢٧) جيوردونا برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠) Giordona Bruno:

فيلسوف وأديب. اتهم بالزندقة، ففر من إيطاليا إلى جنيف وتنقل بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا. شغل كرسي الفلسفة بجامعة فيتزج بألمانيا ١٥٨٦، ثم رجع إلى إيطاليا، وقبض عليه في البندقية، وسيق إلى روما حيث حوكم، واتهم بنقد تعالم الكنيسة الكاثوليكية، وعدم التسامح النصراني، وبأنه يدعو إلى استخدام العقل والتجربة. واستغرقت محاكمته أعوامًا، ثم أحرقته محكمة التفتيش الكنسية علنًا في ميدان عام بروما.

٢٨) روجر بيكون (ولد حوالي ١٢١٤ وتوفى حوالي ١٢٩٤) Roger Bacon

فيلسوف إنجليزي. رجع إلى الترجمات العربية لفلسفة أرسطو عن الطبيعة، واستطاع أن يقدم صياغة جديدة عن العلوم التجريبية. وكان عالمًا فذًا بالرياضيات.

٢٩) الكندي: أبو يوسف يعقوب بن إسحق (١٨٥ - ٢٥٦هـ/ ٨٠١ - ٨٧٣م)

فيلسوف العرب، أول من فلسف منهم. تأثر بفلسفة أرسطو مصطبغة بالأفلاطونية الجدلية درس في البصرة وبغداد علوم الدين واللغة والأدب. بدأ حياته متكلمًا، وشارك المعتزلة في بحوثهم المتعلقة بالعدل والتوحيد. ألم بعلوم الرياضيات والطبيعيات والفلك والطب والجغرافيا والموسيقى، وهو أول من حاول التوفيق بين الفلسفة والدين. (ذكره القفطي في تاريخ الحكماء، ص٣٦٦ - ٣٧٩، وابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء، ج٢ ص١٧٥ - ١٧٨).

٣٠) جي لي جروس فولك Guy le Gros Foulque

كان مستشارًا للملك لودفيج السادس، ثم أصبح أسقفًا لنربون Erzbischof von Narbonne ثم أصبح بابا روما باسم البابا كليمنز الرابع ١٢٦٥ Papst Klemens.

٣١) فلافيو جيويا Flavio Gioja

تذكره زيجريد هونكه في كتابها «شمس الله تسطع على الغرب» ترجمة كمال دسوقي وغيره ص٤٧ - ٤٩: «ولد في مدينة أمالفي Amalfi الإيطالية، مخترع الحسُك (البوصلة). وحقيقة الأمر أن فلافيو قد عرف هذه الآلة عن طريق العرب، بل إنه لم يكن أول شخص في بلاد الغرب عرفها.

فمن المعلوم أن الصينيين كانوا يعلمون منذ زمن بعيد أن الإبرة المغناطيسية تشير دومًا إلى الشمال. ولكنهم في حديثهم نفسه لم يستدلوا على استعمال البوصلة إلا بواسطة «غيرهم». ولما كانت السفن التجارية تصل في ذلك الوقت – أي في القرن الحادي عشر – إلى المحيط الهندي، يرجح الرأي القائل بأن هؤلاء «الغير» هم العرب بالذات. وثمة مصادر عربية تؤكد استعمال العرب للبوصلة في ذلك العصر. وفي عام ١٢٦٩ نقل بطرس فون ماريكور Petrus von Maricourt عن العرب مباشرة معلوماته عن المغناطيس، وعن كيفية استعمال البوصلة، وأدخل استعمالها إلى أوربا في رسالته Epistole de Magnete. وبعد ذلك بخمسين عامًا (أي حوالي عام ١٣٢٠م) (اكتشف) إيطالي من أمالفي «البوصلة» كما زعموا. وتقع أمالفي هذه إلى جانب البندقية أولى المدن البحرية التي كان لها تجارة مزدهرة مع العرب الأصدقاء، وكان لها أيضًا مراكز تجارية في المرافئ العربية.

هذا ولئن كان عصر تلك المدن الذهبي قد وَلّى الأدبار، إلا أن سكانها في عصر فردريك الثاني كانوا يُعتبرون أكثر تجار جنوبي إيطاليا وبحارتها رزانة ووعيًا، ومن بينهم فلافيو غيويا، وقد تلقى علومه في الشرق نفسه، وحسّن في الآلة العربية حسب زعم بعضهم، إنقاذًا لسمعته التي فضحها التزوير والإدعاء،

وقدمها للغرب كأحسن ما تكون أداة تؤدي أكبر الخدمات في بحار العالم وتوصل السفن إلى شواطئ جديدة».

٣٢) أمالفى Amalfi مدينة بخليج فون ساليرنو von Salern يقصدها الناس للسياحة.

٣٣) برتهولد شفارتز Berthold Schwarz كان راهبًا فرنسسكانيًا يعيش في فرايبورج بألمانيا واسمه قنسطنطين أنكليتزن Konstantin Anklizen حمل اسم برتهولد الأسود بدخوله الإبراشية، ووفقًا لما ورد بأسطورته أنه كان كيميائيًا، وأنه أول أوربي اكتشف البارود فيما بين ١٣١٣ - ١٣٥٣ الذي أدى مباشرة إلى اختراع أول ذراع ناري Fire arm. ويقال أيضًا إنه بنى أول طور للبندقية أو أول مدفع. وقد أثارت هذه الآراء خلافًا كبيرًا حيث إن هناك من يؤثر أن روجر بيكون هو أول من اكتشف هذا، وذلك دون تحديد لسنة الاكتشاف أو لتاريخ وفاته، وثمة روايات كثيرة عن تاريخ وفاته وكيفيتها. وقد انتشرت أسطورته في ألمانيا. واقيم له تمثال في فرايبورج سنة ١٨٥٣.

٣٤) استخدم المغول حوالي عام ١٢٧٠م البارود، فكان أن قرر مصير المعركة المحتدمة حول مدينة فاو - تشينغ Fau – Tsching المحاصرة، وبواسطته تمكن قبلاي خان المغولي من التغلب على آخر مقاومة من الصين القديمة. وقد حدث هذا بمساعدة العرب كما ورد لدى المؤرخ رشيد الدين من قصر السلطان المغربي «أن قبلاي خان كان قد تقدم إلى البلاط العربي يرجو منه إيفاد مهندس له، كان قد أتى من دمشق وبعلبك. وقد بنى أبناء هذا المهندس الثلاثة: أبو بكر وإبراهيم ومحمد مع الجماعة التي صحبتهم سبع آلات ضخمة، وأتوا بها إلى المدينة المحاصرة والسؤال الآن هو: هل وضع المهندسون العرب في بين - كنغ Bien – Kong علمهم ليستخدم في هذا

الموقف؟ وهل كانت القذائف التي استقبل بها القائد المصري فخر الدين صديق فريدريك الثاني، الجيوش الفرنجية وملكها القديس عام ١٢٤٩ بحفاوة وحرارة شديدة لدى الحملة الصليبية السابعة اليائسة، وهل كانت هذه القذائف عربية؟ لقد كتب رسول أندلسي محارب يقول: إنه كلما انطلقت قذيفة في الفضاء كان يبلغ التأثر بملك فرنسا لويس التاسع مبلغًا كبيرًا، فيصيح بأعلى صوته «سيدي الحبيب احمني وشعبي من الكارثة».

«والحق يقال إن العلماء العرب وضعوا، على أية حال، نظرية تركيب البارود المندفع في القرن الثاني عشر. ونظرًا للحاجة الماسة التي تفرض الحرب على العرب أن يظلوا دومًا في حالة دفاع واستعداد ضد العدوان الغربي، فلقد دفع الحكام العرب كيميائييهم الطائري الشهرة إلى إجراء التجارب، خاصة على البارود وغيره من المواد الكيمائية المفيدة في ساحة المعركة بشواظها ونيرانها وقوة اندفاعها وانفجارها. ومن المؤكد أن العرب تمكنوا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر أن يستعملوا البارود القاذف كمادة دافعة للصواريخ»[1].

٣٥) قبلاي خان (٦١٢ – ٦٩٤ هـ/ ١٢١٥ – ١٢٩٤م):

إمبراطور مغولي، مؤسس أسرة يوان الحاكمة في الصين. أحرز نصرًا على أسرة سنج الحاكمة في الصين ٦٧٨/ ١٢٧٩. كان ميالاً للبوذية، اهتم بالدراسات العلمية والفنون وشجع التجارة الخارجية. حارب اليابان وإندونسيا، ولكنه فشل وكان في جيشه كثير من خبراء العرب. وكان متسامحًا مع جميع الأديان.

٣٦) كتاب الحرب لحسن الرَّمَّاح.

في كتاب الحرب لحسن الرَّمَّاح هذا وفي غيره من الكتب التي تعالج شئون

(١) شمس الله تسطع على الغرب، ص٤٩، ٥٠.

الحرب في ذلك الزمان نجد أن الحديث كان يدور فقط حول المواد المتفجرة والأسلحة النارية، وحول «بيض متحرك حارق» كان ينطلق كقذائف نارية قاصفة كالرعد، وهي أولى الرَّعايات (طوربيدات) المزودة بمحركات صاروخية، وعن طريق ترجمات لاتينية وصلت أولى المعلومات عن أنواع المزيج القاصف اللامع، وعن الألاعيب السحرية في بلاد أوربية إلى سمع روجر بيكون Roger Bacon وألبرتس ماجنوس Albertus Magnus والنبيل الألماني فون بولشتات von Bollstadt، وهذا الأخير هو الذي أمد، خلال طوافه، المدعي باختراع البارود برتهولد شفارتز الفرنسسكاني Berthold Schwarz في مدينة فرايبورج بمعلوماته الفذة.

وجاء لدى جرجي زيدان «بتاريخ التمدن الإسلامي»، ج ١ ص ٥١:

«عرب الأندلس في إسبانيا هم أول من أشعل القذائف النارية في أوربا لأهداف عسكرية. ففي الأعوام ١٣٢٥، ١٣٣١، ١٣٤٢ أثارت قذائف العرب النارية في كل من بازا Baza والجزيرة وأليكانت Alicante الهلع الكبير والخوف الكاسح المؤذن بنهاية العالم بين صفوف الأعداء. وبعد أربع سنوات أي في عام ١٣٤٦ وفي معركة كريسي Crecy الشهيرة قررت مصير المعركة أنبوبة الشيطان التي بثت الذعر في قلوب الإنجليز لدى معركة الجزيرة. وحُسمت تلك المعركة بالانتصار الكاسح على جيوش الفرسان الفرنسية. وبهذا السلاح الجديد العجيب ابتدأ عصر جديد أيضًا بالنسبة إلى الحروب».

٣٧) أجريبا فون نتسهايم (١٤٨٦ - ١٥٣٥) Agrippa von Nettesheim

ساحر ألماني ورجل دين، فلكي وكيميائي. ولد بمدينة كولونيا Köln. درَّس بجامعة دول Dole بفرنسا وحاضر في جامعات أخرى. في عام ١٥١٠ درَّس

مع يوهانس تريثميوس Johannes Trithemius، وأرسل أجريبا له كتابه De ecculta philosophia libritres عينة من تفكير حديث مبتكر. ووافق تريثميوس على ذلك، ولكنه اقترح على أجريبا أن يحتفظ به سرًّا ما أمكن، ولم ينشره أجريبا لهذا السبب أو لسبب آخر، وظل يعيد النظر فيه عشرين عامًا، وظل في تنقله بين ألمانيا وفرنسا وإيطاليا يعمل رجل دين وعالم طبيعة، خدم بعض الوقت لدى مكسمليان الأول Maxmilian I ويحتمل أن يكون قد عمل جنديًا لديه في إيطاليا.

٣٨) ابن سينا (٣٧٠–٤٢٨هـ/ ٩٨٠ – ١٠٣٦م)

فيلسوف وطبيب مسلم، يلقب بالشيخ الرئيس. درس العلوم الشرعية والعقلية. كان حجة في الطب والفلك والرياضيات والفلسفة. عمل طبيبًا عند بعض الأمراء، وظل ينتقل بين قصورهم. اشتغل بالتعليم والسياسة وتدبير شئون الدولة، حتى توفي. تجاوزت مؤلفاته المائتين بين كتب ورسائل في العلوم الفلسفية وغيرها. ألف كتاب «القانون» في الطب الذي ظل عمدة الأطباء طوال العصور الوسطى، فظل ابن سينا أعظم عالم بالطب منذ سنة ١١٠٠ إلى ١٥٠٠[(١)].

٣٩) الرازي (٨٦٥ : ٩٢٥هـ/ ١٤٦٠ : ١٥١٩م)

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي. طبيب وكيميائي وفيلسوف مسلم. درس الرياضيات والطب والفلسفة والفلك والكيمياء والمنطق والأدب. ظل حجة في الطب حتى القرن السابع عشر. عمل رئيسًا لأطباء بيمارستان الري، فرئيسًا لبيمارستان العضدي ببغداد. ألف كثيرًا من الرسائل في شتى الأمراض،

---

(1) A History of Surgery p. 29.

وأشهرها كتاب «الجدري والحصباء». وقد ترجم إلى اللاتينية بالبندقية. وألف كتبًا طبية مطولة، ترجم عدد منها إلى اللاتينية. وأعظم هذه الكتب «الحاوي» وهو أكبر موسوعة طبية عربية، جمع فيه مقتطفات من مصنفات الأطباء الإغريق والعرب. وقد ترجم إلى اللاتينية بصقلية، ترجمه الطبيب اليهودي مزج بن سالم (١٢٧٩). والرازي هو أول من ابتكر خيوط الجراحة، وصنع مراهم الزئبق، وأجرى بحوثًا على حمض المزاج والكحول[1].

٤٠) ابن رشد (٥٢٠ – ٥٩٥ هـ/ ١١٢٦ – ١١٩٨م).

أبو الوليد محمد بن أحمد. فيلسوف وطبيب وفقيه عربي أندلسي. حذق العلوم الشرعية والطبية وولى القضاء في أشبيلية، وفي قرطبة. وأصبح يلقب بقاضي قرطبة، إلى جانب تلقيبه بالشارح لأنه شرح أرسطو.

٤١) أبقراط (٤٦٠ – ٣٧٧ق.م) Hippokrates

طبيب يوناني مؤسس علم الطب والمعالجة الطبية، وكان دقيقًا في التشخيص وفقًا لملاحظته لأعراض المرض. وينسب إليه القَسَم الذي ينطق به الأطباء حتى الآن بالالتزام بأخلاق مهنة الطب قبل مزاولتها.

وقد ترجم له ابن النديم في كتاب الفهرست ص٢٨٧ – ٢٨٨، كما ترجم له القفطي في تاريخ الحكماء باسم بقراط بن إيراقلس ص٩٠ – ٩٤ وقال عنه «أول من استنبط الطب وأول الأطباء على خلاف في ذلك». ونقل عن يحيى النحوي: «وبقراط هو السابع من الثمانية الذين من أسقليبيوس الأول مخترع الطب على الولاء، وجالينوس الثامن وإليه انتهت الرئاسة ولم يلقه جالينوس بل كان بينهما ستمائة سنة وخمس وستون سنة».

---

(1) Ibid., p. 28.

٤٢) جالينوس (١٢٩ – ١٩٠م) Galen

واسمه Galenos وباللاتينية Galenus. طبيب يوناني ألف في جميع العلوم الطبية في عصره بطريقة منتظمة، وطور أساليب العلاج الطبي، كما أجرى تجارب على الحيوانات. كان طبيب القيصر مارك أوريلز Kaiser Mark Aurels.

ورد اسمه لدى ابن النديم بالفهرست ست عشرة مرة، نظرًا لكثرة ما ترجم إلى العربية من أعماله أو الرجوع إليها. وترجم له القفطي بتاريخ الحكماء ص١٢٢ – ١٣١.

٤٣) أبو القاسم (٣٢٥– ٤٠٤هـ/ ٩٣٦ – ١٠١٣م).

هو أبو القاسم خلف بن العباس الزهراوي أشهر جراحي العرب. اخترع كثيرًا من العمليات الجراحية الدقيقة في العيون والأسنان والولادة، وكان يتخذ الخيوط اللازمة لخياطة الجروح من أمعاء بعض الحيوانات، وبخاصة القطط. ومن العمليات الجراحية التي نبغ فيها عملية سحق الحصاة في المثانة واستخراجها، وبخاصة استئصال حصى المثانة عند النساء عن طريق المهبل. كذلك أوضح أهمية الكي في فتح الخراجات، واستئصال الأورام السرطانية. وأشار باستخدام مساعدات وممرضات من النساء في حالة إجراء عملية جراحية لامرأة.

ألف كتابًا باسم «التصريف لمن عجز عن التأليف» وظل الكتاب مرجعًا أساسيًا اعتمد عليه الأوربيون في الجراحة، وتجبير العظام عدة قرون، بعد أن ترجموه إلى اللاتينية. وترك أبو القاسم أيضًا مرجعًا صغيرًا في وصف الآلات المستعملة في العمليات الجراحية وطرق استخدامها مع توضيح ذلك بالرسم[١].

---

(١) المدينة الإسلامية لسعيد عاشور، ص١٥٧، ١٥٨ دار النهضة العربية ١٩٦٣.

وكذلك: - A History of Surgery p. 30.

٤٤) أوتو الثالث (٩٨٠ - ١٠٠٢) Otto III

كان الحاكم الخامس لساكسون Saxon وأتونيون Ottonion للإمبراطورية الرومانية المقدسة، واختير ملكًا لألمانيا عام ٩٨٣م، بعد وفاة والده أوتو الثاني. ولد بكاسل Kassel، ونُودي به ملكًا في فيرونا Verona، وكان عمره ثلاث سنوات، وتوج في آخن Aachen في ديسمبر بالسنة نفسها (٩٨٣). وقد توفي والده قبل تتويجه بأربعة أيام، ولكن لم يصل خبر موته إلا بعد التتويج. كان تحت وصاية أمه التي أنقذته من أسر هنري الكواريلسوم Henry of Quarrelsome دوق بافاريا عام ٩٨٤م وشاركها في الوصاية أرشبيشوبماينز فيليجيز Willigis Archbischop of Mainz. وعندما توفيت أمه عام ٩٩١م حلّت جدته أدلهايد الإيطالية Adelhaide of Italy مع فيليجيز حتى بلغ سن الرشد عام ٩٩٤ فساعد البابا جون الخامس عشر Pape John XV في هزيمة كريستيوس الثاني النبيل الروماني Crescentius II فعينه ملكًا على لومباردي Lombards، وساعد على تنصيب جريجوري الخامس Gregory V (وكان أول بابا ألماني) فنصبه إمبراطورًا في ٢١ مايو ٩٩٦ بروما.

حصل بعد ذلك على ألقاب كثيرة منها «خادم المسيح عيسى» «خادم الفرنسيين» «قنصل مجلس الشيوخ بروما والناس» «إمبراطور الدنيا».

٤٥) ميشائيل سيرفيت أو ميجيل سيرفيتو (١٥١١ - ١٥٥٣).

Michael Servetus or Miguel Serveto

عالم لاهوت إسباني وطبيب وجراح. أول أوربي وصف وظيفة الدورة الدموية الكبرى، اهتم بكثير من العلوم: الفلك والجغرافيا والقانون. درس الكتاب المقدس والرياضيات والتشريح والطب، واشتهر بتميزه في المعارف الطبية وبمعرفته باللاهوت وبتاريخهما بخاصة.

شارك في الإصلاح البروتستانتي، ولعنه الكاثوليك والبروتستانت معًا. قبض عليه – في جنيف – المجمع الحكومي، وأحرقه البروتستانت باعتباره كافرًا.

٤٦) وليم هارفي (١٥٧٨ – ١٦٥٧) William Harvy

عالم طبيعة إنجليزي نسب إليه اكتشاف الدورة الدموية الكبرى. تعلم في المدرسة الملكية بكانتربري. حصل وهو في السادسة عشرة من عمره على منحة لدراسة الطب، وحصل على الدرجة الجامعية الأولى سنة ١٥٩٧، رحل بعدها إلى جامعة بادوا Padua، ودرس على هيرونيموس فابريسيوس Hieronymus Fabricius وسيزار كريمونيني Cesare Cremonini، وفرغ من دراسته عام ١٦٢٢ ثم عاد إلى إنجلترا حيث عُين زميلاً بالكلية الملكية لدارسي الطبيعة Royal College of Physiacians ثم أصبح رئيسًا لكلية ميرتون بأكسفورد Warden of Merton college. سبقه ابن النفيس وميشائيل سيرفيت وكان للأخير ثلاث نسخ مخطوطة، ولكنها دمرت، ومن ثم لم يعلم الكثير عن دورته، حتى أعاد هارفي اكتشافها بعد قرن.

٤٧) جون كالفن (١٥٠٩ – ١٥٦٤م) John Calvin

عالم لاهوت فرنسي كان له نفوذ قوي وكان كاهنًا أثناء الإصلاح البروتستانتي. وهو الشخصية الرئيسة في حركة تنظيم اللاهوت المسيحي التي سميت كالفانيزم Calvinism. عمل في بدء حياته العلمية محاميًا، وانفصل فجأة عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية عام ١٥٣٠، وبعد مهاجمات كثيرة ضده وثورة عنيفة هرب إلى بازل Basel بسويسرا حيث ألف كتابه معاهد الديانة المسيحية Institutes of the Christian Religion سنة ١٥٣٦.

٤٨) مونت كاسينو Monte Cassino دير بمدينة كاسينو دمر تمامًا أثناء الحرب

العالمية الثانية، ودمر معه كثير من أنفس التحف التي لا يمكن تعويضها.

٤٩) كونراد بورداخ:

بيّن الاقتداء والتأثر بأغاني الحب العربية، وقديمًا ورد هذا التفسير بالدراسات الرومانتيكية كما ينادي به في العصر الحديث أيضًا الباحث الأمريكي لورانس إيكر Lawrence Ecker[1].

٥٠) شعر الفاجنتين هو أغاني وأشعار العصور الوسطى، وتشيد بالحب الشهواني ungebrochene Erotik. وقد وُجدت هذه الأغاني قبل أن يوجد الميني زانج وأثناء وجوده أيضًا، ونجد آثار ذلك واضحة بأشعار الميني زانج، ولكن هذا التأثر لا يمس كيانه، ووجوده لا يمكن أن تغفل عنه كافة العلاقات المسببة له[2].

٥١) أوفيد Ovid (٤٣ق.م – ١٨م)

شاعر روماني تتميز أعماله بالزخرفة اللفظية ورشاقة الأسلوب. تنقسم أعماله إلى مجموعات ثلاثة: غرامية، وأسطورية، وأشعار كتبها في المنفى (في مدينة تومي جنوبي نهر الدانوب من ٨م – ١٨م). وباستثناء قصائده الأسطورية فإن شعره غنائي يمكن أن ينقسم إلى:

قصائد غرامية: أ- خطابات البطلات، وهي خطابات أرسلتها نساء إلى أزواجهن وعشاقهن.

ب) قصائد الحب ويتغنى فيها بمحاسن صاحبته كورينا.

ج) فن الحب Ars amatoria، وبها تعليمات يتبعها العشاق.

---

(١) القافية والأصوات اللغوية، ص٢٢٣، ٢٢٤.

(٢) السابق، ص٢٢٥.

د) دواء الحب Remendia وبه إرشادات يتخلص بها المرء ممن يحبه ويريد التهرب منه.

(يرجى الرجوع إلى ما ذكره الباحثون الغربيون عن التأثر بالموشحات الأندلسية في الشعر الفرنسي البروفنسالي والشعر الألماني الميني زانج وعن أوفيد وشعره بكتابي القافية والأصوات اللغوية)[١].

٥٢) شعر المارين Mariendichtung أشعار غنائية عن ماريا (أم السيد المسيح)، وتمتدح جمالها وطهارتها وعفتها. انتشرت هذه الأغاني بالبلاد البيزنطية، واستمرت إلى القرن الثاني عشر وفقًا للنموذج اللاتيني. وازدهرت بالقرن الثالث عشر، كما انتشرت أشعار الرثاء لماريا أيضًا. وبعد الإصلاح الديني أصبحت هذه الأشعار ترتل بالكنائس بالقرنين السادس عشر والسابع عشر. وقد تجددت هذه الأغاني في الحقبة الرومانتيكية، كما تغنى بها في القرن العشرين الشاعران ريلكي Rielke، وكلاندل Clandel.

---

(١) ص٢١٣ – ٢٢٦.

الفصل السادس

١ - تدهور الثقافة بسبب تدخل خارجي[(١)]

(الأتراك)

لم يكن السبب في ضياع كثير من السمات العربية الإسلامية هو تراجع السيادة العربية، واختلاط أنساب الطبقة الحاكمة بأنساب السكان الأصليين، بل إن السبب قبل أي شيء هو تسلل الأجناس الغريبة التي لا تمتُّ إلى العروبة بأية صلة إلى مواقع السيادة في البلدان العربية. وقد كان تأثير غزوات المغول[(٢)] واضحًا في زعزعة الثقافة وليس تغريبها، وذلك خلافًا للشعوب التركية الآسيوية[(٣)] التي تسللت إلى المجتمع العربي في أول الأمر، عبيدًا في قصور الخلفاء، ثم استطاعوا بمرور الوقت تملُّك القوة. بل إنهم تمكنوا - مثلما فعل المماليك[(٤)] - من أن ينتزعوا السلطة في مصر، فحكموها من عام ١٢٥٠ إلى ١٥٨٤م.

وبغزوة السلاجقة وتكوينهم إمبراطوريتهم انطلق الغزو التركي حتى تمكنوا آخر الأمر من تكوين إمبراطوريتهم العثمانية العظمى التي وصلت بقوتها الحربية الغازية إلى جنوب أوربا، بل إنهم زحفوا إلى فيينا أيضًا، وتوسعوا في فرض سلطانهم على البلاد العربية باستخدام التقتيل والقسوة في حروبهم بطريقة لا تتفق مع تعاليم الإسلام أو المثل الأخلاقية، كما جاء في معارضة أحد المصريين في حزم لسطحية الشكوك التي أثارها أحد المؤرخين الأوربيين ضد الحقيقة. وقد كان عصر سيادة المماليك بمصر مثل العصر العثماني «أظلم العصور الإسلامية

وأكثرها انحطاطًا، كما كان أظلم الأزمنة في الثقافة العربية، كثر فيه القمع، ليس فقط لأتباع الديانات المغايرة للإسلام، بل للشعوب الإسلامية، والبلاد الإسلامية والمناطق التي دخلت تحت الحكم الإسلامي قبل ذلك أيضًا»(*).

كان العصر العثماني من أظلم الأزمنة التي مرت بها الثقافة الإسلامية؛ فالعقلية التركية غريبة عن العقلية العربية، نشأت أساسًا في وعي ثقافي مختلف، فكانت كمن انتعل حذاء طويلاً لا يناسبه وأراد النهوض به، فاختلف وضع الأصابع في الحذاء، ولم يستطع المشي به مطلقًا. وليس هذا فحسب فإن العثمانيين وهم من نسل الشعوب التركية الآسيوية اعتنقوا الإسلام ظاهريًا، دون أن يتعرفوا مضمونه ورسالته جيدًا، أو يتفهموا روح العقيدة(**).

لذلك تصلبت العقيدة تحت غطاء من الجليد عند هذا الغريب الذي كان يسعى لهدف مغاير تمامًا للشريعة الإسلامية والتعاليم الإسلامية، وتيبست حياته الروحية الدينية فتحولت إلى أرثوذكسية متعصبة. من ثم يبست الثقافة العربية التي كانت مزدهرة من قبل وذوت، وأصبحت أرضها بورًا عقيمة بلا ثمر.

ولهذا فإن الحركة الوهابية(٥) بالمملكة العربية السعودية هي الحركة الوحيدة التي ظلت تكافح في سبيل تطهير الإسلام وإعادة إصلاحه.

أما الاستعمار الأوربي سواء الفرنسي أو البريطاني أو الإيطالي فقد تسبب في أثناء احتلاله للبلاد العربية في استمرار تغريب العقيدة العربية والإسلامية. ولم تتخلص الشعوب العربية من ذلك إلا بعد أن قويت المعارضة.

(*) Hamdy M. Azzam, Der Islam, 1981, S. 78f.
(**) Ebd. S. 79.

لم يستعدْ العالم العربي نفسَه، ولم يسترد هويته إلا بعد أن قويت المعارضة، وتحقق التحرر والتغلب على الاستعمار، وإن كان هذا بطرق مختلفة، وبمقاييس متغايرة.

ويشهد على عودة روح التسامح العربي الإسلامي في الصورة الإسلامية الحقة بعد مئات السنين من التعصب والظلم والقمع، ما كتبه ملك المغرب الحسن الثاني(٦) الذي يطلق عليه «عبد الله وأمير المؤمنين» إلى البابا يوحنا بولس الثاني(٧) .Johannes Paul II في ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩٨٣:

«الأب المبارك وأعز صديق:

تستطيع الكنيسة الكاثوليكية بالمملكة المغربية أن تواصل نشاطها كالمعتاد علانية وبحرية، وبخاصة في العبادة والتعليم والشعائر الكنسية، وجمع التبرعات الخيرية بين معتنقي مذهبكم، والتعاليم الدينية....

وتعفى من الضرائب على الجمعيات الدينية والجمعيات الخيرية ومثيلاتها التي تمارس عملها في المؤسسات الكنسية، وكذلك المؤسسات التي تمارس شئون الرعاية والتعليم، حيث إنها جميعًا لا تهدف الربح ولا تحصل على مقابل لخدماتها». وفى نهاية الرسالة يستشهد الملك بما يمثله الإسلام من روح التسامح العظيمة(٨).

٢ - ليس كل من هو مسلم عربيًا
(الفرس)

يجب على الذين لم ينشغلوا بالعالم العربي والإسلامي إلا انشغالاً سطحيًا أن يعلموا - كي يتجنبوا إصدار أحكام خاطئة – أنه ليس كلُّ ما هو إسلامي عربيَّ النشأة. وليس علينا أن نعتبر أن الأتراك الذين مثلوا الإسلام بدورهم في حمل الخلافة العثمانية محسوبون على العرب، أولئك الذين نُفوا من الحياة العامة العلمانية البعيدة كل البعد عن الحياة الدينية منذ تولِّي كمال أتاتورك[٩] قبل ستين عامًا أصبحوا يطالبون بالعودة إلى الإسلام، واندفعوا في تعصبهم الديني الشديد، وبخاصة طبقة العمال في البلاد (الأوربية) المضيفة.

أما إيران- فأيًا كانت النظرة إليها – فإنها تعد في الأغلب بلدًا عربيًا، على حين يخلط البعض ممن يتلقون الأخبار بسطحية بين «إيران» Iran، «وعراق» Irak للجناس الناقص بينهما: بالاسمين، والرنين الصوتي، وكذلك المطابقة في الزي والدين، والتشابه بينهما في الأنباء. ولا يعرف الكثيرون أن الشعوب الإيرانية ليست عربية، بل فارسية. فثمة خلاف عنصري مهم يمكن تبيُّنه بوضوح حتى في الصورة الخارجية: في الهيئة والقامة، وفي ملامح الوجه، وفي الاختلاف المذهبي، وقبل أي شيء في اللغة، وفى الاختلاف التام في فهم أمور عديدة، وفي السلوك؛ مثل الرأي في المرأة أو فيما يمثله «آية الله» «والملالي» من دور.... إلخ.

كان العالم الديني العربي في ازدهاره جذابًا، ذا قوة خلاقة، حتى إن

خصائصه الشعبية والعنصرية في الدولة العملاقة قد جمعها التضامن الإسلامي باعتباره وحدة ثقافية عظيمة التأثير في معتنقي الإسلام. فقد كان كل الأحياء يتفاهمون باللغة العربية وكانت كل أفكارهم مسكوكة باللغة العربية الفصحى، واللهجة البدوية اللتين كانتا مهيبتين لنقائهما وجمالهما، ولما يتمتعان به من بريق مشع يرجع الأساس الحقيقي فيه للغة القرآن التي لا تبارى. بل إن بعض الفرس أنفسهم مثل: ابن سينا، والرازي، كانوا يُعَدون ضمن رجالات الثقافة العربية، وساهموا مع العديدين من بني جلدتهم مساهمة عظيمة في الثقافة العربية أسلوبًا وتفكيرًا. فاللغة العربية كانت لغة الدين، ولغة التعامل ولغة الثقافة واللغة الدراجة التي يتكلمون بها، وكانت لغة الإدارة والشعر. وكان الشعر باللغة العربية التي يتخاطب بها الجميع، كما أنها كانت لغة الاقتصاد بناء على بنائها الفكري الخاص... فالحديث باللغة العربية يعني التفكير باللغة العربية.

ولكن باضمحلال سلطة خليفة بغداد، وانهيار دولة الخلفاء، وبتسرب غزاة غرباء، وبخاصة الغزاة المغول والجورجيون (من جورجيا) والعثمانيون، انتزع الفرس - وكانت دولتهم ما زالت سنية المذهب - أنفسهم من الدولة العربية، ومن اللغة العربية أيضًا التي ظلوا متعلقين بها تسعمائة سنة عاشوا فيها غرباء دون هوية.

وقد نشطت في القرن الحادي عشر جماعات غير شرعية من الشيعة الثوريين تناهض السلطة الشرعية، أفزعت الحكومة في بغداد، وفى البلاد كلها...

والشيعة أتباع مذهب إسلامي يرى أن عليًا بن أبى طالب ابن عم النبي محمد هو من يستحق أن يكون خليفة للنبي، على حين أن السنيين - ويشكلون ٩٠٪ من المسلمين - يعترفون بسنة الرسول.

برزت جماعة شيعية بقيادة المتعصب الحسن بن الصباح[١٠]، الذي كان يعيش في شمال فارس بقلعة (الموت) Alamut «عش النسر» بأعلى جبل إيبرس Ebrusgebirge حيث كان يدرب أتباعه الذين سموا – بالحشَّاشين على الاعتداء على «أعداء العقيدة الحقة» وقتلهم، زاعمًا أن في ذلك تقربًا لله، وطمعًا في رضائه.

ومنذ هذه المقدمة غرقت الأرض الفارسية مرارًا في الدماء في سبيل «العقيدة الحقة». وقد تجبرت إحدى هذه الجماعات الفارسية- بقيادة شيخ الجبل[١١] أي «عابد الجبل» ويعرف باسم Alte vom Berge – على الفرسان الصليبية، وساموهم الخسف والجور.

وتولى بطن من بطون قبيلة الصفوية[١٢] السيادة والسلطنة اعتبارًا من سنة ١٥٠٠م، وأجبروا السُّنيين الذين كانوا يمثلون معظم الشعب الفارسي على التحول إلى المذهب الشيعي، بعد أن أصبحت الدولة تدين بهذا المذهب الذي أصبح المذهب الرسمي الجديد عقب استقلالها عن السيادة العربية.

وباستقلالهم رجعت إليهم هويتهم المفقودة، على حين بقى الإسلام الذي اصطبغ بصبغة فارسية يربطهم بالعالم العربي. ولم يمتثلوا للآية القرآنية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[١٣]؛ فلم يتردد الحاكم الصفوي الذي نصب نفسه شاهًا على بلاد الفرس في معاملة مئات الآلاف بالقسوة والتهديد حتى يجبر الناس على تغيير مذهبهم ويقنعهم بأن الله اختار عائلتهم لتخلف النبي[*]، فإن خالفوه اعتبروا أعداء الله، وضيعوا حياتهم.

ويمكن تبين ما لقيه الذين كانوا يعتنقون الدين – كما أنزل على النبي ودعا

(*) Gerhard Konzelmann, Allahs Schwert, Der Aufbruch der Schiiten, 1989 S.143.

إليه - وكانوا حقًا متسامحين على خُلقٍ ومستوى اجتماعي راق، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحموا أنفسهم من قسوة الفرس المتعصبين، ولقي الآلاف منهم مصارعهم. ويتضح هذا جليًا من المصير المدمر على يد الفارسي سيد على محمد(١٤) الشيعي الذي كان يبلغ الرابعة والعشرين من عمره، ولقب «بالباب». وأعلن أنه خليفة النبي محمد ويوحى إليه من الله. وقد طورد مع أتباعه، وحكم عليه بالإعدام عام ١٨٥٠ وهو في الثلاثين من عمره. وخلفه تلميذه الذي يفوقه كثيرًا بهاء الله(١٥) الذي أودع «الثقب الأسود» وهو أفظع سجون طهران. وفى عامي ١٨٥٢، ١٨٥٣ نادى بأنه أنشأ دينًا مستقلا(*) وبعد خروجه من السجن نفي إلى بغداد التي كانت تتبع الدولة العثمانية. وأفلت أكثر من ألف من أتباعه من المطاردة وقسوة بلادهم عليهم، وهربوا وتتبعوا الطريق الذي نفي إليه بهاء الله، ولكن العثمانيين المتعصبين نفوهم، وأودعوهم معه السجون مرة أخري. وعندما أطلق سراح بهاء الله ذهب إلى عكا التابعة لفلسطين آنذاك، وتوفى هناك عام ١٨٩٢.

لم يجد الانفتاح العالمي للتسامح الديني في انتظاره بفارس إلا أقسى صور التعصب. فبينما تمكنت البهائية من أن تجد انتشارًا أوسع في العالم فقد اقتصر المذهب الشيعي على إيران وبعض البلاد العربية؛ إذ لم تجد البهائية في إيران

(*) ᶜAbdu – Bahā, Beantwortete Fragen, Illinois (deutsch) Frankfurt 1962.
ᶜAbdu – Bahā Gedanken des Friedens, Rosenheim 1985. Huschmand Sabet, Der gespaltene Himmel, Stuttgart 1967: Der Weg aus der Ausweglosigkeit, Stuttgart/ Herford 1985; ders., Weltidentität, Rosenheim 1989.

وبعض البلدان العربية إلا عددًا محدودًا من الشيعيين، فنال الآلاف من أتباع هذا المذهب (البهائية) عذابًا وحشيًا، ووقعوا ضحايا تحت رحمة نفر من شديدي التعصب العقائدي. فهناك عادت طريقة السلوك(*) والتفكير الخاصة بشعوب الجبل الإيرانية مرة أخرى، هؤلاء الذين أغاروا قبل ثلاثة آلاف سنة في موجات كثيرة على الشرق الأدنى، والتي بقيت واضحة المعالم حتى اليوم لهيكلهم العقائدي الثنائي شديد القدم، والمذكور في نصوص العهد القديم أيضًا(**).

ومن أهم سماتهم التفرقة الواضحة بين الله والإنسان- بين السيد والعبد- مثلما حدث في الفارسية القديمة من السجود أمام القداسة الإلهية والملوك والتي أطلق عليها Prokynese.

استخدم الكتاب كلمة Prokynese ويقصد بها التفرقة بين الرجل الذي يملك وحده الحقوق الإنسانية، و المرأة مرتكبة الخطيئة التي خرجت من ضلعه، الخاضعة له كما تروى قصة الخلق، وهذا ما عابه المصلح الفارسي علي الشارياتي على الرجل(***).

خرج النقاب إلى العالم الإسلامي(١٦) من عباءة الفرس. استخدمته المحظيات والضرائر Nebenfrauen (غير العربيات) عند الخلفاء لتخفين وجوههن عند وجودهن ببلاط الخليفة. ومن ثم بدأ الأمر باعتباره نموذجًا (موضة) يحتذى به في البلاط. ثم تسلسل النقاب ليصبح مثالاً لفضليات النساء

(*) Sigrid Hunke, Am Anfang waren Mann u. Frau, S. 52 – 69.
(**) Sigrid Hunke, Europas andere Religion, S. 30 ff, 506 f Dies, Europas eigene Religion, Berg. Gladbach 1981, S.27ff.
(***) Ali Schariāti, Fatima ist Fatima, 1981, S. 75 – 78.

بالمدينة، بل وفرض على نساء العالم العربي. ولم يفرضه على النساء إلا الخليفة الضعيف المتعبد القادر بالله حوالي عام ألف ميلادية تحت التأثير الفارسي، وكذلك أيضًا الخليفة المخبول المتزمت الحاكم بأمر الله بالقاهرة الذي اعتبر النقاب كرامة لتقدير النساء، زاعمًا أن الله أوصى في القرآن بذلك.

وقد أفادت المرأة العربية في القرن العشرين من أن النقاب لا ذكر له في القانون الإلهي فتحررت منه.

وكذلك فإن ما طولب به «الرجال المؤمنون» طولبت به «النساء المؤمنات» بالألفاظ نفسها؛ إذ جاء بالقرآن الكريم: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .... ﴾ (سورة النور ٢٤: ٣٠، ٣١).

ووجه إلى النساء إضافة إلى ذلك: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ ... ﴾ (سورة النور ٢٤ :٣١).

فالآية تطالب النساء بعدم إبداء زينتهن، ولكن من أين تبدأ زينة المرأة؟

لقد بينت الآية ذلك: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾.

أي على صدر المرأة.

استمرت أوامر الخليفة الضعيف المتزمت والخليفة السفيه بما يطلبانه من النساء، وهو ما دام قبلهما بمئات السنين، من أوامر وفقًا للتفرقة الفارسية-

البيزنطية بين عالمي الرجل والحريم (بإبعاد عالم الرجل عن عالم المرأة في الحريم). وقد كان مصدر هذا الإذلال (للمرأة) من المصادر نفسها التي صدر عنها تربية النساء المسيحيات الغربيات على الطاعة (للرجل)، لأنهن ربين على أنهن خاطئات، ومن ثم ينبغي أن يخضعن لرجالهن. في حين أن الإسلام الصحيح- على الضد مما فهم الفرس- لا يمكن أن يُفهم على أنه ثنائي؛ إذ نفى عن حواء وبنات حواء مثلما نفى عن الرجل الخطأ، وحررهم جميعًا من الاتهام بأنهم ورثوا الخطأ المزعوم عن حواء وآدم، ومن تحمل وزر هذا الخطأ.

على أن إيران اليوم- على الرغم من سيادة الشيعة بها - لميلها إلى تحقيق الأصالة، تمارس الطريقة الردايكالية (مذهب المتطرفين) لتعود إلى المطالبة «بتفرقة النساء عن الرجال» مثلما صرح بذلك آية الله الخومينى في باريس.

وكما أن النقاب الذي فرضه الفرس قبل ألف عام – كان غريبًا عن العالم الإسلامي، كذلك الحال بالنسبة للفرمان (الأمر) الذي أصدره الخومينى في طهران بأن ترتدي المرأة ما يغطي جسمها كله، وهو رداء أسود هو الشادور، وأن تغطي رأسها أثناء العمل، وفى الحياة العامة.

وهذا ما يعد لعنة القرون الوسطي التي تستحق العزاء والحداد؛ إذ إنه يجعل المرأة تبدو أقرب إلى الطيور الضخمة السوداء، منها إلى البشر. وبهذا تخضع المرأة للمرة الثالثة للإذلال من الرؤساء الدينيين الشيعيين بتعصبهم، وهو الأمر الذي يتسرب إلى العالم الإسلامي كله.

٣ - الانعزال أم المشاركة بين الشرق والغرب؟

لعل أزمة النفط في خريف ١٩٧٣ هي آخر حدث جعل الغرب يتأكد ويضع نصب عينيه أن العالم العربي وأوربا يحتاج كل منهما إلى الآخر مصيريًا. ولكن فجأة- بين عشية وضحاها- عرف بعض الغربيين في وسط أوربا – ممن يظنون أنفسهم مثقفين- مدى جهلهم المطبق وغرورهم الساذج في نظرتهم إلى العرب من علياء والاستهانة بهم وازدرائهم، معتبرين أنهم رعاة ماعز مهلهلين وحداة إبل، وهى النظرة نفسها التي تعوّد عامة الأوربيين الغربيين أن يعبروا بها عن موقفهم من العرب. ولذلك كانت مخيلتهم الفارغة مكانًا خصبًا أصبح مرتعًا للرسوم الكاريكاتيرية الساخرة لشيوخ النفط السمان الذين تتحلى أصابعهم بالخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة، وينعمون- في قصورهم الأسطورية- باللهو مع حريمهم، ويرفعون في قسوة وقحة أسعار النفط.

وفى الحق أنه غاب عن الغرب أن نصيب العرب عند رفع أسعار النفط لا يقاس إلى جانب ارتفاع تكاليف الإنتاج بصورة مبالغ فيها، فضلاً عن ارتفاع الضرائب التي تحصلها الدولة يوميًا، على حين أن نصيب العرب من ذلك ضئيل للغاية.

ولم تفلح صورة الزعيم القذافى الزاهد صاحب الوجه النحيل المليء بالتجاعيد ما بين الحاجبين، ولا صورة وزير البترول السعودي «جمالي» رقيق الشمائل صاحب الابتسامة، شديد اللطف الذي يلبس أحيانًا الملابس الأوربية، ويرتدي أحيانًا الجلباب البدوي، لم يفلح ذلك في تغيير صورة شيوخ البترول

التي تنضح بالسخرية المزرية، على الرغم من أنهم قدموا لشعوبهم شبكة عظيمة لا مثيل لها من العلاقات الاجتماعية.

وخلافًا لذلك فإن الدوائر الأوربية السياسية والاقتصادية انفتحت على مجريات الأحداث العالمية- كي تتغلب على المركزية الأوربية- وكانت أزمة الستينيات قد تسببت في إعادة الصداقات القديمة بين رؤساء ألمانيا والأمراء العرب وقادتهم إلى الذاكرة. وما من رئيس لجمهورية ألمانيا الاتحادية أو ممثل للدولة فاته- في كلمته أو في أحاديث المائدة أو في خطبه -عند زيارة أي ضيف عربي - أن يشهد بفضل أجداد العرب، ويمتدح مقدار هباتهم الفكرية القيمة التي أهدوها للبشرية عندما سطعت شمس الله على الغرب، وأفاضوا على الدنيا بعلمهم الغزير. ومن ثم عادت الصداقات والعلاقات الحميمة- على مستوى العلاقات السياسية العليا والدبلوماسية – تميز معاملات ألمانيا مع الدول العربية.

لما تحرر الشرق من ضغط الاستعمار الذي دام مئات السنين، ممثلاً في الاستعمار العثماني التركي، أو الاستعمار الأوربي- سواء أكان الاستعمار الفرنسي، أم الإنجليزي، أم الإيطالي- وجد الشرق نفسه في مواجهة متطلبات العصر الحديث المتقدم في الصناعات والعلوم التقنية. فكان أن سلك طرقًا كثيرة كي تحقق وجوده بالعالم الحديث.

وكان من البديهي أن يقلدوا الشعوب التي كانت تستعمرهم في شئونها المنزلية والحياتية، وأن يستخدموا التقنيات الحديثة التي يستخدمونها، وأن يحافظوا على التشبه بالسادة القدماء في أمور معيشتهم وطريقة تفكيرهم،

وعاداتهم، وأن يكتسبوا صفاتهم، ويتمثلوا بهم، وبذلك تأوربوا وتأمركوا، وقلدوا الروس فيما يفعله الروس السوفيتيون.

ولذلك فإنه على الرغم من التحرر الخارجي من ربقة الاستعمار، فإنهم لم يكونوا قد تحرروا بعد من قبضة التحرر الداخلي والانفتاح على الغرب، ومن ثم فقد ثارت ضد هذا الخطر قوى تدفعهم إلى تذكر ماضيهم التاريخي وقسوة الاستعمار الغربي، رافضة مجرد تقليد النماذج الغربية.

وقد قال بومدين(١٧)- أحد الرؤساء الجزائريين -عند الاحتفال بيوم التحرير:

«وإذا أردنا بناء المستقبل، يجب أن نعود إلى أصولنا، وأن نستعيد ذاتنا الشخصية. يجب أن نقوّى جذورنا حتى لا نرتمي في أحضان غربية».

وقد وضَّحتُ هذه الأصول والجذور التي يجب أن يستعيدها العالم العربي كي يخطو إلى الأمام، في محاضرات كثيرة ألقيتُها في بلاد المغرب وهى:

١) استعادة اللغة العربية في الجزائر التي كادت أن تُمحى تحت سيطرة اللغة الفرنسية طيلة مائة وثلاثين عامًا، فاللغة العربية هي- بلا ريب- المفتاح الرئيس إلى عالم الفكر العربي الخالص.

٢) التمسك بالدين فهو المحور الأساسي الذي يحدد كل الأمور بالنسبة لوجود الإنسان، فالإسلام يطهر من كل ما هو غير إسلامي، وهو ينفتح على العالم، دون أي تعارض مع أي تقدم فكرى. وقد قال الفيلسوف محمد عزيز الخبابي بالرباط: «المسلم في خدمة الله، ما دام في خدمة أخيه. والإسلام شهادة وعمل»، أي أن شهادة أن لا إله إلا الله، والسعي في الدنيا هما ما

يريده الله من الإنسان. فالالتزام الإنساني يعنى أن الإنسان في أعظم الدرجات مسئول عما يعمل.

فالتمسك بالهوية الذاتية، عودة إلى الهداية.

٣) الاهتداء إلى الماضي وما حمله من رصيد فكري مطمور كلية يتطلب تعرف كيفية تحققه وبزوغه واكتماله، وتعرف أسباب انحطاطه، ومن ثم إدراك كيفية الانطلاق إلى المستقبل؛ إذ إن العرب أثبتوا وجودهم من قبل، ونهضوا وسط حضارات تفوقهم، ولكنهم نقلوا عن هؤلاء الغرباء ما يرونه ضروريًا لحياتهم فقط، دون أن يقلدوه كالعبيد، بل أضافوا إليه بطرقهم وبوسائلهم الخاصة، وبمهاراتهم المتميزة، مستخدمين أساليبهم الخاصة، ومن ثم كانوا قادرين على الإتيان بإبداع جديد خاص بهم، وكان عالي القيمة وبالغ الأهمية.

ولكن الاكتفاء بتعظيم الماضي المجيد لا يغنى شيئًا، والافتخار بالعصور العربية في التاريخ العربي ينبغي ألا يكون معناه الهروب من الحاضر أو تقديم الأعذار الواهية التي تغذي الغرور دون تحمل أي عبء مفروض، ودون أن يكون درسًا يفيد في بناء المستقبل. فلا يمكن أن يتعلم المرء شيئًا من مجرد تذكر أصله وازدهار حضارته القديمة، بل يجب أن يتعرف أيضًا أسباب انهيارها لتجنب المخاطر التي أدت إلى هذا الانهيار. وأعظم الخطر يكمن في التقوقع، كما يكمن في الانفتاح الأعمى على كل ما هو غريب. وكل تعصب لأمر من الأمور إنما هو خطر يهدد الحياة.

بعد انقضاء المرحلة الأولى من التحرر التى اتخذ العرب فيها الغرب- في كل

المستويات- مثلاً يحتذى كما سلكوا فيها مسلك الأيديولوجية الروسية، لم يلبثوا أن تراجعوا عن هذا كله لعدم الثقة، ولكراهية كل غريب، وبخاصة كل ما هو غربي، وارتبط هذا التصرف بالرجوع إلى الإسلام، وإحياء تقاليده.

ومع انتشار حركة النهضة الإسلامية ظهرت المشكلة الفلسطينية مجاورة لها. وتفجرت في ديناميكية شديدة أفكار الخوميني ذات الأسس الحربية كموجة شديدة التزمت في أعلى درجة من درجات التعصب الشيعي الفارسي، تلك الموجة التي جرفت معها كل الدول الإسلامية، فدارت في دائرة اللامعقول، ثم التفتت كلية في تعصبها غير الإسلامي في أصولية ضد الغرب. وهذا كله خطر يهدد الحياة.

وعند استمرار هذا الحال ينبغي أن نتساءل عما إذا كان التعصب يستبدل بالانعزال أو يمكن أن يكون الانفتاح بديلاً، هل يُتمسك بالتقاليد أم يُسمح بالتجديد؟ وهو سماحة وعطاء أيضًا، قائم على الأصول المبنية على الثقة بالنفس بوجود ذاتي متأصل يرفض الغريب، ويتقبل الانفتاح والتطور والاندماج مع تطور العالم الحديث، مع التمسك بالروح الذاتية الخلاقة، والنفخ فيها ليبعثوها عربية أصلية.

وتقدم المملكة العربية السعودية التي تعد قلب الدول العربية مثالاً يمكن أن يذكر هنا من بين أمثلة كثيرة.

٤ - الأمير الشاب والعالَم

التفت السفير عباس فايق غزاوى- سفير المملكة العربية السعودية في بون- إلى المزاعم المتحجرة التي وجهت إليه من أوربيين مغمضي العيون عن شعبه وبلده، فيقول:

«ما زال البعض يرى أن السعودية بلد صحراوي ظهر بها البترول. وأنها مجرد واحة لا يوجد بها غير البدو والجمال والخيام. والحق أن العرب قاموا ببناء الشوارع والمساكن والمستشفيات، والمساجد والجامعات، والمواني، ومدوا أنابيب المياه، وقدموا الإعانات الاجتماعية، وتقدموا في الأبحاث والمعارف المتقدمة. وأصبحوا على مستوى رفيع. فالمملكة العربية السعودية تضطلع الآن بالدور الذي تساندها فيه الجمهورية الألمانية أيضًا، مما يَعِدُ بمستقبل جديد واعد».

ولم يُتَحْ لأي شعب في قديم الزمن أن يسترشد بمراقبة النجوم[١٨] مثل العرب الرُّحَّل الذين كانوا يتجولون في الصحراء الواسعة. فإذا ما غُمَّ عليهم النهار، وأصبحت السماء خيمة حالكة الظلام فوقهم، استدلوا بنقاط النور على مساراتهم، وعلى مربط ماشيتهم إلى أن تنصرم ساعات الليل، ويطلع النهار؛ إذ إن البدو في ظلام الليل البهيم حين يلفحهم هواء الصحراء الجاف يستدلون بالنجوم المتلألئة، ومن ثم أطلقوا عليها أسماء - بخيالهم البدوي - ما زالت تستخدم إلى اليوم مثل:

رجل الجوزاء Rigel، النسر الواقع Wega، الدبران Aldebaran، بيت الجوزاء أو إبط الجوزاء Beteigeuse، الطير Atair. وهكذا وجد علم الفلك ليُهتدى بالنجوم الثابتة.

وبينما كانت الشعوب الأخرى تُعنى بتعرف دلالات النجوم، كان العرب أول من استخدموها في أبحاثهم الفلكية، وأقاموا مراصد كبيرة لقياس النجوم.

وقد بنوا بخطة ذكية مرصدًا[١٩] دقيقًا لم يسبق له مثيل في نوعه بأعلى جزء بمدينة بغداد عند برج الشماسيّة حوالي عام ٨٣٠ م أيام الخليفة المأمون المعاصر للقيصر لودفيج التقي[٢٠] الصالح، وأقاموا مرصدًا ثانيًا على جسر الفرات عند بوابة التاج، وليس بعيدًا عن بغداد في سامراء مقر الخلافة الصيفية. وتوالت المراصد بعد ذلك، فأقيم مرصد بدمشق ثم بالقاهرة أيام الفاطميين. ولم يكن هذا كله إلا بداية لإقامة المراصد الأحدث والأدق صنعة واستعمالاً. وفضلاً عن ذلك كله فإن المؤذن الذي ينادي للصلوات اليومية الخمس المفروضة على كل مسلم ينبغي أن يكون هو نفسه فلكيًا صغيرًا ليتعرف اتجاه قبلة الصلاة دون أي مساعدة من المرصد وكأنه مثل ساعة جيب عن الزمن واتجاه القبلة.

فكيف وجب على الأمير الصغير سلطان بن سلمان[٢١] بالرياض في المملكة العربية السعودية الذي لم يتعرف طرق المعيشة في العالم في صغره أن يتمكن من معرفتها بعد ذلك. في عام ١٩٨٥ اكتمل حلمه، طار باعتباره أول قاهر للفضاء بسفينة الفضاء الأمريكية ديسكفرى Discovery ووضع قمرًا صناعيًا للأخبار لنظام التواصل في المجال العلمي العربي ARABSAT في المسار الفلكي بعد أن أطلق عرب سات الأول في المجال الجوى من القذيفة الأوربية أريان Ariane-Rakete، التي تربط الآن اثنين وعشرين دولة تابعة لجامعة الدول العربية تليفونيًا وبطريق التلفاز و الكمبيوتر. وقد ساعدت هذه الرحلة الأمير في تصوير مواقع المياه والمواد الخام بالصحراء.

تجسدت في شخص هذا الأمير سلطان بن سلمان فاعلية المملكة العربية السعودية النشيطة نشاطًا غير عادي يتمثل في قدرته على الأبحاث الفلكية ذات الصلة بالأرض. وكذلك في عالم الفضاء بالجامعات والمؤسسات العلمية البحثية التي تقوِّم الأبحاث، وبزيارته لجميع المؤتمرات المنعقدة لبحث ميزات عالم الفضاء التي تخدم ضمان السلام للإنسانية، وتقدم لبلده فوائد مباشرة بإنشاء محطات فضائية بالتعاون مع هيئات أخرى مختصة بدراسات المجال الفضائي. ففي هذا الأمير السعودي تتشابك بصورة مثالية التقاليد مع التقدم. وتبين هذا التشابك إحدى الصور التي التقطت له قبل القيام برحلة Shuttle-Flug بين علم المملكة العربية السعودية الذي كتب عليه «لا إله إلا الله» والعلم الأمريكي بالنجوم والخطوط Stars and Stripes.

٥ - عدم الشعور بالثقة في النفس يُنفّر من الغرب

في هذه الأيام التي تُنقل فيها كتائب حربية من الولايات المتحدة إلى الصحراء العربية حماية للمملكة العربية السعودية ودول الخليج بعد مباغتة صدام حسين للكويت، انقسمت الدول العربية قسمين: قسم ضد وجود الجيش الأمريكي، والقسم الآخر كان متحفظًا، ليس لأن وجود الغرب تسبب في صدمة عنيفة لهم، وإنما لأن العالم العربي أصيب بصدمة نفسية لما عاناه من الاستعمار الأوربي من قبل.

لقد كان الغرب (في القرون الوسطى) يخجل من هزيمته - بالرغم من التأكيد البابوي بأنه «المختار» - لأنه لم يتمكن من تعويض فهمه المخجل لتأخر حالته الثقافية، وأرجعه لأسباب غير حقيقية، ولا أساس لها في مواجهة العقلية العربية بثقافتها وقدرتها التقنية وتأملاتها المتمدنة.

وبعد أن كان العرب يعانون (في عصور الاستعمار) من الشعور بأنهم منبوذون في أوطانهم بسبب السيادة الأجنبية، تمكنوا من إحياء تعاليم الإسلام، واستعادة اللغة العربية، كما حدث بالجزائر، واسترداد الهوية الذاتية، بسبب زهوهم بسطوع شمس الله التي أغفلوها من قبل، فازدادت ثقتهم في أنفسهم وتقدموا بخطوات واسعة في ميادين الدراسات العلمية الحديثة والتقنية، على الرغم من صعوبتها، فأثبتوا وجودهم في العالم.

وقد أثرت دعاية الخوميني – بسبب عدم الشعور بالثقة في النفس – في

إزكاء كراهية المسلمين للغرب الذي يتمثل عندهم في أوربا كلها والولايات المتحدة، وأحيانًا روسيا أيضًا. ومن الممكن أن يكون هذا هو السبب في أن صدام حسين على الرغم من عدم تقديره للعواقب كان يتبين بجلاء أن هجوم الغرب على العالم الإسلامي اعتداء على أمة الإسلام. فاحتلال الكويت كان عنده أمرًا عربيًا صرفًا، لا يحق لأي أجنبي أن يتدخل فيه، ومن ثم أمكنه أن يعلن عن الحرب المقدسة، ولكن ما شأن هذا بأسر النساء الأجنبيات والأطفال، واتخاذ رجالهم دروعًا بشرية ضد الهجوم الحربي؟ وقد كان في عمله هذا يبدو كأنه يسخر من الفروسية العربية أيام صلاح الدين والملك الكامل، التي تجسدت في مواقف الفروسية العديدة الأخرى، في مقابل ما قام به الألمان القادمون من كولونيا مع الحملة الصليبية من تقتيل للنساء والأطفال والشيوخ، وما قام به الفرسان الصليبيون بقيادة مبعوثي البابا فى دمياط، وعلى الرغم من ذلك أنقذهم الملك الكامل من الأسر والجوع، فحمدوا له ذلك وشكروه بقولهم «لم تكن بالنسبة لنا طاغية، وإنما والدًا رحيمًا، وجدنا فيه معاونًا لنا، على الرغم من أننا كنا تحت سطوتك وفى أسرك»(*).

(*) Ali Schariâti, Fatima ist Fatima, 1981, S. 36.

٦ - الصدمة النفسية ضد العروبة
تبعث فى الغرب من جديد

هذه الصدمة النفسية التى أصيب بها الغرب المسيحي منذ ألف سنة ضد العرب صارت اليوم تنصب على الأتراك بلا رحمة. وعلى الرغم من أن العمال الأتراك حصلوا على تراخيص للعمل ضيوفًا أو لاجئين، فقد أثارت تجمعاتهم ردود فعل لدى الدول الأوربية المُضِيفة لهم، فطالبت هذه الجماعات التي استضافتها بأن تندمج في مجتمعاتهم، وأن يحرصوا تدريجيًا على تعلم لغاتهم، ويقتدوا بهم في العادات، وأن يربوا أبناءهم على ذلك، وأن يرتدوا زيهم، ويتبعوا طرائق حياتهم ليتم اندماجهم تمامًا في البلد المضيف. ولم يوافق على ذلك إلا نفر قليل من الأتراك، على حين صمم الآخرون- وهم الأغلبية- على الاحتفاظ بحضارتهم وتعاليم دينهم حتى يظلوا هم وأبناؤهم أتراكًا «يستطيعون البقاء» أوفياء لهويتهم في البلد المضيف، يختلفون إلى مساجدهم المتواضعة للدراسة والصلاة، وتبادل أطراف الحديث. وينتظرون من البلد المضيف أن يعاملهم- كأقلية تخالفهم في العقيدة- معاملة الند للند. وأن يتركوا لهم الحرية في أن يعيشوا كما يريدون، وأن يسمح لهم بتنظيم حزب تركي إن أمكن ذلك.

وقد وجد قرارهم هذا بين المواطنين الأوربيين معارضة ترفض الاستجابة للأجانب الغرباء رفضًا باتًا، ولكن لكي لا يُتهموا في الجدال السياسي بأنهم أعداء للأجانب، اتجهوا إلى مهاجمة الإسلام بدلاً من مهاجمة الأتراك مباشرة، مستخدمين كل المزاعم المتيسرة لهم في مهاجمته، والدعاية المغرضة القبيحة ضد

الأتراك بوصفهم ممثلين للإسلام. وبذلك شنوا حربًا صليبية ضد الدين «العربي المحارب» الذي ما زال بالنسبة لهم محاربًا، وضد النبي العربي محمد الذي «دعا إلى إبادة الكفار بالسيف». واشتعلت نيران حرب صليبية كان السلاح فيها داخل القاعات. فأيقظوا بذلك الكراهية للعرب، والتهجم عليهم في غضب غير مفهوم ولا معقول بعد أن كان الجميع يظن أن هذا الهجوم على العرب أصبح يغط في النوم، ولم يثر منذ زمن طويل. ومن ثم أعيد صقل كل الصيغ التي علاها الصدأ منذ زمن، وتمادت البلبلة التي تسببت في العداء القديم للإسلام، حتى إن الغرب «دعا للدفاع عن نفسه، وتحصينها ضد الخطر الذي يهدده». وعاد الاعتقاد بمثل ما كان بكليرمون Clermont عندما دعا البابا أوربان الثاني Urban II. إلى حرب صليبية ضد الخطر التركي؛ إذ وجد الغرب نفسه محرضًا تحريضًا عدائيًا ضد كل ما هو غريب عن البلد، وضد ما يمارسونه من «تأثير على غير المؤمنين» على الرغم من أنهم لم يكونوا مهددين في أجسامهم أو أرواحهم.ولم يحدث إطلاقًا أن رغب مسلم في ممارسة نشاط الدعوة للإسلام.

ويوضح ذلك رئيس المركز الإسلامي بمدينة آخن Aachen الطبيب المصري دكتور نديم إلياس[٢٢] بما لا يدع مجالاً للشك، مستشهدًا بالآية الكريمة ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ سورة البقرة (٢:٢٥٦). ويقول إن الإسلام لا يعرف التبشير، ولا يسمح بأن يضار الناس ماديًا أو معنويًا أو يكرهوا على أن يدخلوا الإسلام دون اقتناع، وأن مسئولية كل مسلم أن يجسد الإسلام بالقول والعمل، وأن يعرّف به من خلال ذلك. ويدافع فقط عن الإسلام بتفنيد المزاعم الخاطئة.

فإذا كنا اليوم نعيد النظر في النداء بالحروب الصليبية مثلما حدث في

كليرمون Clermont جاعلين العرب بدلاً من الأتراك هدفًا لنا، فنصفهم بأن بهم مسًّا من الجن، وأنهم معتدون؛ ونسلط الضوء على هذه الصورة- إن كان هذا قد حدث- فإن الوقت قد حان بلا شك كي يطرح الغرب أخيرًا ونهائيًا كبرياءه وتعصبه، وأن يزيل الجدار الشنيع الذي أقامته الصدمة النفسية نتيجة التكبر والعصبية اللذين داما تسعمائة سنة بعد النداء البابوي المشئوم إلى «شعب الله المختار» (أي إلى المسيحيين الأوربيين).

فالإسلام هو أكثر الأديان التي ظهرت على الأرض تسامحًا، هذا ما ينبغي أن نقوله بلا تحيز أو تشويه له بادعاءات ظالمة، ومغالطات تاريخية تعكس جهلاً فادحًا. وعلينا أن نتقبل المسلمين شركاء وأصدقاء، وأن نعترف بأن من حقهم أن يظلوا كما يريدون هم أنفسهم.



تعليقات الفصل السادس

١) هذه آراء المؤلفة ووجهات نظرها.

٢) المغول: إمبراطورية إسلامية حكمت أجزاء واسعة من الهند (١٥٢٦-١٨٥٨). وصلت الإمبراطورية في عهد شاه جيهان وأوربخزيت إلى أقصى اتساعها وأوج عظمتها. وقد فتح المغول أكثر أقاليم آسيا وأوربا، وتوغلوا في الداخل حتى المجر وألمانيا، وكانت جيوشهم تضم عناصر كبيرة من الأتراك وغيرهم من الشعوب. وتفككت الإمبراطورية في أواخر القرن التاسع عشر.

٣) الترك: اصطلاح يطلق على الشعوب التي تتكلم اللغة التركية في تركيا وروسيا السوفييتية وتركستان الصينية وشرقي إيران، ويربطهم جميعًا الإسلام واللغة. وقد أقاموا إمبراطوريات عدة في آسيا، وأقام الأتراك العثمانيون بقيادة عثمان الأول سنة ١٢٨٠م الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف. هزموا الجيش اليوناني عام ١٤٣٠، واستولوا على إزمير، واحتلوا القسطنطينية ١٤٥٣، وفي ١٤٥٦ قضى السلطان محمد الفاتح على آخر السلالات اليونانية (الرومية) في آسيا الصغرى، وفي عام ١٤٧٩ تدفقت الجيوش التركية العثمانية في أوربا وحطمت مقاومة الألبانيين من البوسنة إلى حدود البندقية، وحاربوا السوريين واستولوا على دمشق عام ١٥١٦، وفتحوا مصر أيام سليم الأول عام ١٥١٧. وفي سنة ١٥٢١ احتل السلطان سليمان القانوني بلجراد، واستولوا على رودس عام ١٥٢٢، وقتلوا ملك المجر عام ١٥٢٦ واحتلوا مدينة بودابست. ولما نشبت الحرب بين فريدريك ملك النمسا وجان زابوليا أمير ترانسلفانيا بسبب النزاع على تاج المجر، ناصر السلطان سليمان زابوليا

على فريدريك وتقدم إلى فيينا فحاصرهم، ولكنه اضطر لرفع الحصار لقلة المؤن.

٤) المماليك: كانوا في الأصل أرقاء، جلبهم الفاطميون إلى مصر في القرن العاشر، ثم اتبع هذه السياسة أيضًا السلاطين الأيوبيون المتأخرون كي يدرَّبوا على الجندية وخدمة السلطان، وكان الكثيرون منهم يعتقون، وشغل بعضهم أرفع المناصب في الدولة. وقد أنشأ المملوك أيبك دولة المماليك بعد أن قتل توران شاه آخر سلاطين الأيوبيين عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م.

وقد شن هؤلاء السلاطين المماليك حروبًا حامية ضد الصليبيين في أواخر عهدهم بسورية، وضد المغول في سورية وآسيا الصغرى. وسيطر بعضهم على سورية وأكثر جهات آسيا الصغرى حتى حدود أرمينية. وأقام المماليك الذين حكموا مصر دولتين: دولة المماليك البحرية (٦٤٨ – ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠ – ١٣٨٢م) ودولة المماليك البرجية (٧٨٤ – ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢ – ١٥١٧م).

٥) الوهابية مذهب إسلامي ذو نزعة سلفية يرمي إلى تخليص الشريعة من الشوائب والرجوع بالإسلام إلى ما كان عليه في القرن الأول الهجري. دعا إليها محمد بن عبد الوهاب ويستند إلى تعاليم ابن حنبل وابن تيمية. ساعد محمد بن سعود على انتشاره في الجزيرة العربية.

٦) الحسن الثاني (١٩٢٩: ١٩٩٩)

ملك المملكة المغربية، ولد بالرباط، وهو ابن محمد الخامس. درس القانون، ونفي مع والده إلى جزيرة كورسيكا عام ١٩٥٣، ثم إلى مدغشقر، وأفرج عنه عام ١٩٥٥، وعاد مع أبيه إلى المغرب. شارك مع والده في مفاوضات استقلال المغرب عام ١٩٥٦، ونُصب وليًا للعهد وعُين قائدًا عامًا للجيش المغربي

١٩٥٧، فأعاد تنظيمه. وشارك والده في الإشراف على أهوال البلاد السياسية. وعين قائمًا بأعمال الحكومة عام ١٩٦٠، اعتلى العرش بعد وفاة والده عام ١٩٦١.

تقرر عام ١٩٨٣ وضع نظام رسمي للكنيسة المسيحية بالمغرب في الرسالة التي وجهها يوم ٣٠ من ديسمبر ١٩٨٣ إلى البابا يوحنا بولس الثاني.
توفى الملك الحسن في الرباط يوم الجمعة ٢٣ من يوليو ١٩٩٩ إثر نوبة قلبية حادة.

٧) البابا يوحنا بولس الثاني والإسلام.

ولد في بولونيا ١٩٢٠ واعتلى كرسي البابوية ١٩٧٨. زار عدة دول إسلامية وألقى خطبًا عن الحوار والتفاهم والعيش المشترك. زار تركيا عام ١٩٧٩، وزار الدار البيضاء ١٩٨٥ تلبية لدعوة الملك الحسن. ومن خطابه هناك: «إن الحوار بين المسيحيين والمسلمين ضروري اليوم أكثر منه في أي وقت مضى. وإن الكنيسة الكاثوليكية لتنظر إلى سعيكم الديني، وإلى تراثكم الروحي بعين الاحترام والتقدير. وأعتقد أنه علينا مسيحيين ومسلمين على السواء أن نقر بفرح جمّ بما لدينا من القيم الدينية المشتركة، وأن نشكر الله عليها، فإننا معًا نؤمن بالله الأحد الكلي العدالة والرحمة. وإننا نؤمن بأهمية الصلاة والصوم والصدق والتوبة والغفران. ونؤمن أن الله سيكون ديّاننا الرحيم في آخر الأزمنة، وإنما رجاؤنا أن تكون كل نفس بشرية عند القيامة راضية مرضية لدى الله».

«إننا – مسيحيين ومسلمين – غالبًا ما أسأنا تفاهمنا المتبادل، وأحيانًا في الماضي تعارفنا مع بعضنا، حتى في العديد من المجالات والحروب. وإنني أعتقد أن الله يدعونا اليوم إلى تغيير عاداتنا القديمة، فعلينا أن يحترم بعضنا بعضًا. وأن

يحث بعضنا على أعمال الخير في سبيل الله».

٨) ولعل الكاتبة تقصد الآية الكريمة من سورة (المائدة: ٨٢) ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٩) مصطفى كمال أتاتورك (١٢٩٨ – ١٣٥٧هـ/ ١٨٨٠ – ١٩٣٨م):

مؤسس تركيا الحديثة. اتخذ اسم أتاتورك عام ١٩٣٤ بدلاً من اسمه الذي كان معروفًا به، وهو مصطفى كمال. ومعنى كلمة «أتاتورك» أبو الأتراك. التحق بالكلية الحربية، حين أكسبه تفوقه في الرياضة اسم كمال، واشترك ضابطًا سنة ١٩٠٨ في الثورة التي قام بها حزب تركيا الفتاة. خدم في ليبيا (١٩١١ - ١٩١٢)، وفي حرب البلقان ١٩١٣، وفي الحرب العالمية الأولى في الدردنيل، وفي جبهة أرمينيا، وفي فلسطين. نظم الحزب الوطني التركي ١٩١٩، وهو في بعثة إلى شرق الأناضول، واشترك في تكوين جيش لمحاربة الجيش اليوناني الذي كان محتلاً لأزمير، وشرع بعد ذلك في الاستيلاء على الأناضول.

أخذ يعقد المؤتمرات، ويثير همم المواطنين لرد العدوان على بلادهم، وأقام حكومة منافسة للسلطان محمد السادس في أنقرة، وفي ١٩٢٠ بدأ حرب الاستقلال والتحرير وطرد اليونانيين، وفي العام التالي هزم اليونانيين عند نهر سقاريا وطردهم من الأناضول.

أعلن إلغاء السلطنة في تركيا سنة ١٩٢٢ ونفى الأسرة السلطانية، وأعلن جمهورية تركيا ١٩٢٣، وانتخب رئيسًا لها وعاصمتها أنقرة، وأعيد انتخابه في ١٩٢٧، ١٩٣١، ١٩٣٥ بالإجماع في كل مرة.

قام بتنفيذ مخطط جديد من الإصلاح الداخلي، مقتبسًا فيه النظم الغربية، فغير

معالم تركيا تغييرًا كليًا دون أي معارضة: ألغى الخلافة ١٩٢٤، وفصل بين الدين والدولة، وألغى الامتيازات الأجنبية، واستعمال الطربوش والعمامة والحجاب. وجعل القانون المدني يقوم على أصول التشريعات الأوروبية بدلاً من الشريعة الإسلامية. حرر تركيا من كل سيطرة أوربية. مات في سن الثامنة والخمسين.

١٠) الحسن بن الصبَّاح (ت ٥١٨هـ/ ١١٢٤م)

مؤسس فرقة الحشاشين. اقترن اسمه في شبابه الأول بالوزير نظام الملك والرياضي الكبير عمر الخيام؛ إذ كانوا أصدقاء بزعامته لفرقة الفدائيين التي أقامها في قلعة الموت. وكان الصباح من دعاة الفاطميين إلا أنه استقل بفرقة تحمل اسمه. وظلت فرقته تزاول نشاطها، وتلقي الرعب في قلوب الحكام المسلمين حتى قضى عليها هولاكو حين غزا المغول قلعة الموت قبل دخولهم بغداد ١٢٥٦. وكان رجال هذه الفرقة يتبعون تعاليم مأخوذة عن تقاليد وكتب غير معروفة، ويقوم الفكر الديني لديهم على التأويل، وإمامة نزار بن المستنصر لدين الله الفاطمي. وقد اتهم الصباح بالتحريض على قتل نظام الملك. وما زال الأغاخانية يزعمون أنهم من نسل الحسن بن الصبّاح.

١١) شيخ الجبل ويسمى أيضًا داعي الدعاة. احتل الحشاشون قلعة مصياد بعد وفاة الحسن بن الصباح وهي على السطح الشرقي من جبل النصيرية سنة ١١٤٠، وكانت قبل ذلك مقرًا لنائب زعيمهم الأكبر (داعي الدعاة) في جبل الموت، ويوصف بشيخ الجبل، واشتركوا في النضال ضد الصليبيين مرات عديدة[1].

---

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٥، ص٢٨٤.

١٢) الصفويون:

أسرة إيرانية حاكمة من سنة ١٥٠١ إلى سنة ١٧٣٦ أسسها إسماعيل الصفوي الذي مدّ سلطانه على شيروان وآذربيجان والعراق وسائر بلاد الفرس. قضى على المذهب السني، وجعل مذهب الشيعة هو المذهب الرسمي في فارس. توفى ١٥٢٤.

خلفه ابنه طهماسب الأول الذي حارب الأتراك. وتولى بعده ابنه إسماعيل ثم خلفه ابنه عباس (١٥٨٥ - ١٦٢٨) الذي أعاد إلى فارس مركزها السامي في العالم الإسلامي، وأوقع بالترك الهزيمة وطرد الأوزبكية والتركمان من خراسان. وكان آخر السلاطين عباس الثالث، وقد قُضي على هذه الأسرة سنة ١٧٣٦م.

كان لنادر شاه نشاط حربي كبير، نجح في إنشاء الإمبراطورية الفارسية بالحدود التي كانت عليها أيام الصفويين القدامى. امتدت حروبه إلى الحدود الشرقية من الإمبراطورية ابتغاء إخضاع الأوزبك في بخارى وخُوارزم، وكان الهجوم على خراسان دأبهم، ووفق إلى ذلك دون إراقة للدماء، وأعاد إلى زعيمهم (ويلقب بالخان) سلطته على أن يكون تابعًا إقطاعيًا له، وأكرهه على الاعتراف بأن حدوده أصبحت على نهر جيحون.

نادى في فارس بمذهب خامس جديد، ولكن الباب العالي أبى أن يعترف به. ثم حصل على اعتراف رسمي جديد من مؤتمر للعلماء عُقد في النجف، بشرعية المذهب الذي أقامه.

١٣) الآية الكريمة ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ البقرة (٢: ٢٥٦).

١٤) سيد علي محمد (ميرزا علي محمد الشيرازي / الباب):

مؤسس حركة «البابية» الدينية سيد علي محمد، ولد في بوشهر سنة ١٨٢١، وتدرب على التجارة ولكنه ما لبث أن عكف في صغر سن على النظر في المسائل الدينية، وعندما حج إلى كربلاء وقف على عقيدة الشيخية الباطنية، ولما عاد إلى بلاده هاجم التعاليم الشيعية الغالبة على البلاد. وبعد وفاة رئيس مذهب الشيخية سيد كاظم الرَّشي، انتخبه رجال المذهب خليفة له. ووضع سيد علي محمد، أثناء حجه إلى مكة، مجموعة من الرسائل اعتبرها أتباعه وحيًا إلهيًا. ثم استشعر سيد علي أنه مدعو إلى أن يكون الباب الذي يستطيع البشر الاتحاد بواسطته مع الإمام منفذ الإرادة الإلهية، ثم سمى نفسه فيما بعد «بالنقطة العليا» أو نقطة البيان أي الوحي، ودعا نفسه القائم (أي الرجل الذي سيقوم من آل الرسول في آخر الزمان). وكان آخر ما ذهب إليه أنه تجسّد للوحي الإلهي ذاته. كان للعدد ١٩ قدسية خاصة عنده، وقسم السنة إلى ١٩ شهرًا، وكل شهر منها ١٩ يومًا وعين مجلسًا يتألف من ١٩ زعيمًا من زعماء الطائفة. واستند في تعاليمه إلى العقائد الوطنية القديمة الخاصة بالدين الزرادشتي.

وفي سنة ١٨٤٥ حظر عليه حاكم مقاطعة فارس القيام بأي نشاط تبشيري جديد، ولكنه لم يكف عن ذلك، فبعث إليه الحاكم فرسانه فألقى القبض عليه، ونقل إلى شيراز حيث حوكم، وألقي في السجن، ولكنه فر، ورحل إلى أصفهان ورحب به حاكمها.

ولما توفى الحاكم سنة ١٨٤٧ اقتيد إلى ماكو في آذربيجان وسجن ثلاث سنوات، واشتد نشاط البابية وهو في السجن. وزاول نشاطه مع أتباعه بعد خروجه من السجن وتمكن من صد هجوم جيش الشاه ناصر الدين، ولكنه

اضطر مع أتباعه إلى الاستسلام عام ١٨٤٩ بعد أن نالوا وعدًا بالعفو. وفي ١٨٥٠ أُعدم الباب مع أحد مريديه في تبريز.

١٥) بهاء الله (تلميذ الباب):

بعد وفاة الباب قام أتباعه بثورة، فشنت عليهم الدولة حملة، وفزع زعماء الطائفة إلى بغداد، فرارًا من الاضطهاد، وكان كبيرهم صبح أزل (صبح الأزل)، وكان أخوه الصغير الذي سُمي بهاء الله، يتمتع بشهرة أكثر منه. وصنع في سنة ١٨٦١ – ١٨٦٦ كتابه «إيفان» الذي ذاع بين أفراد الطائفة. وفي ١٨٦٤ أبعد الباب العالي - بناء على رغبة الحكومة الفارسية – الطائفة البابية إلى استانبول ثم نقلوا إلى أدرنة. وهناك ادعى بهاء الله أنه المظهر الأول للإرادة الإلهية التي بشر بها الباب، فنازعه أخوه الكبير صبح الأزل في ذلك، واضطر البابا على أن ينفي بهاء الدين وأتباعه إلى عكا، وأن ينفي أخاه صبح الأزل وأتباعه إلى قبرص حيث توفي عام ١٨٩٢، وخلفه ابنه عبد البهاء الذي ضحى شيئًا فشيئًا بالعناصر الإسلامية والصوفية في مذهبه ابتغاء جعله دينًا إنسانيًا عامًا. وقد وفق إلى اكتساب تأييد سيدة إنجليزية تدعى لورا كليفورد بارناري لمذهبه، فنشرت تعاليمه في ترجمات إنجليزية وفرنسية وأمدته بالأتباع. وفي سنة ١٨٩٣ ظهرت البهائية في أمريكا. وانتشرت في جميع المدن الأمريكية جاليات بهائية[1].

١٦) عود إلى النقاب:

لم يكن زي المرأة يشغل الناس مثلما يحدث اليوم في كل أنحاء العالم الإسلامي، كما نرى، ولم تحدث مثل هذه المشاحنات والجدل الذي يحدث اليوم. ولعل

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٦٦٥ – ٦٦٨.

السبب في جعل أمر هذا الزي يناقش بطريقة حادة، انتشار التيارات السياسية بالبلاد الإسلامية، وبخاصة قيام الجمهورية الإسلامية بإيران، ومناداة الخوميني بأن تلتزم المرأة بغطاء الرأس والنقاب، وهذا ما يعد من الرموز التي أحياها ذلك المد الثوري الإيراني، تعبيرًا عن رفض كل ما كان متبعًا أيام الشاه. ومن ثم اشتط الكثيرون من رجال الدين وغيرهم في تحديد مواصفات الزي الإسلامي للمرأة تحديدًا أشبه بما يحدده خبراء الأزياء، واختلفوا في تأويل ما ورد بالقرآن الكريم في سورة النور عن الزينة والعورة، وما المقصود بهذه الآيات لتحديد ما يجب أن تستره المرأة وما يجوز لها كشفه. بل لقد أصبحت هذه المسألة من الأمور التي تناقشها الصحافة أيضًا عندما تطرح السؤال عن جسد المرأة: هل هو عورة؟

وقد خرج من هذه المناقشات والجدل والتأويل لآيات القرآن الكريم وجهات نظر أربع:

أولاً: جسد المرأة كله عورة ما عدا الوجه والكفين.

ثانيًا: جسد المرأة كله عورة عدا الوجه والكفين والقدمين.

ثالثًا: جسد المرأة كله عورة.

رابعًا: انتهى بعض الرجال إلى أن عورة المرأة ليس إلا السوأتين فقط، كما قال الله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ** ﴾ (سورة الأعراف ٢٢).

﴿**فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ**﴾ (سورة طه: ١٢١) فسوى الله بين آدم وحواء في ستر عورتيهما وهما السوأتان.

وحينما نتعرض لهذه الآراء تفصيلاً نجد ما يلي:

يرى الدكتور محيي الدين الصافي، عميد كلية أصول الدين الأسبق، جامعة الأزهر أن «الفتوى تخالف القول السائد بأن عورة المرأة هي جسدها كله ما عدا الوجه والكفين، إذا كانت حرة، أما الجارية أي المملوكة فعورتها مثل الرجل من فوق الركبة إلى تحت السرة».

ويرى الدكتور علي مرعي، عميد كلية الشريعة والقانون الأسبق، جامعة الأزهر أن السوأة لا تعني العورة في الآيات التي استند إليها ابن عربي[1]... فمعيار فرض الحجاب هو أنوثة المرأة وضرورة منع مفاتن الأنثى عن إثارة شهوات الرجال. ويضيف سيادته: «ومفهوم العورة يقترن بالحجاب الذي يختلط في أذهان الكثيرين بغطاء الرأس أو النقاب، وإن كان يعني الفصل التام بين الرجال والنساء، وهو الفصل الذي يبلغ الحرص عليه حد المطالبة بحبس المرأة حبسًا تامًا بين الجدارن المغلقة؛ فتتحدد حركتها في الحياة من رحم الأم إلى بيت الزوج. ومن هذا الأخير إلى القبر».

أما الشيخ الإمام محمد عبده فيقول «والحق أن الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الإسلامية لا لله ولا للأدب، بل هما من العادات القديمة السابقة على الإسلام والباقية بعده.

ويدلنا على ذلك أن هذه العادة ليست معروفة في كثير من البلاد الإسلامية، وأنها لم تزل معروفة عند أغلب الأمم الشرقية التي لم تتدين بدين الإسلام. إنما

---

(١) كان ابن عربي ينفي المنظور الفقهي لجسد المرأة بوصفه عورة. وما أقدِّمه هنا هو تلخيص لما ورد في دراسة «قضية المرأة بين سندان الحداثة ومطرقة التقاليد/ دراسة في تاريخ النصوص للدكتور نصر حامد أبو زيد. وقد نقل الرأيين عن محمد شحرور «الكتاب والقرآن».

من مشروعات الإسلام ضرب الخمر على الجيوب. كما هو صريح الآية (النور: ٣٠، ٣١). وليس في ذلك شيء من التبرقع والانتقاب»[1].

كما يرى فضيلته أن أمر الحجاب بمعنى الاحتجاب عن الاختلاط بالرجال أمر خاص بنساء النبي ﷺ دون عامة النساء، بدليل قوله تعالى ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾.

ويرى المستشار محمد سعيد العشماوي في كتابه «حقيقة الحجاب وحجية الحديث» أن ما يسمى بالحجاب حاليًا، وهو وضع غطاء على الرأس – غالبًا مع وضع المساحيق والأصباغ – ليس فرضًا دينيًا، ولكنه عادة اجتماعية، لا يدعو الأخذ بها أو الكف عنها إلى إيمان أو تكفير، مادام الأصل القائم هو الاحتشام والعفة. (العشماوي: ص٤٣).

ويرى سيادته أنه ليس ثمة وجود حكم في القرآن الكريم على شرعية وضع المرأة غطاءً على الرأس، يسمى خطأً بالحجاب، وتعتبره جماعات الإسلام السياسي فريضة إسلامية، وشعارًا إسلاميًا. ويرى أن الحديثين عن النبي ﷺ: ما روي عن السيدة عائشة عن النبي أنه قال «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عَرَكت (أي بلغت) أن تُظهر إلا وجهها ويديها إلى ها هنا» وقبض على نصف الذراع. (العشماوي: ص٤٠).

وما رواه أبو داود عن عائشة أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ فقال لها «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى فيها إلا هذا» وأشار إلى وجهه وكفيه (سنن أبي داود، كتاب رقم ٣١ بند ٣١).

فالروايتان رواية آحاد لم يردا إلا في سنن أبي داود (ص٤٠).

---

(١) سبق ذكر هذا الرأي في تعليق سابق بالفصل الرابع.

وبالنسبة لشعر المرأة يورد المستشار العشماوي الحديث النبوي أنه قال «لا تقبل صلاة الحائض (المرأة البالغ) إلا بخمار» وهو حديث أخرجه أبو داود وابن حنبل وابن ماجة والترمذي (مفتاح كنوز السنة، ص١٦٨) ويعني ذلك ضرورة أن تضع المرأة البالغ غطاء على شعرها أثناء الصلاة، هو ما يعرف بالخمار أو الطرحة.. فلو أن الأصل أن تضع المرأة غطاء على رأسها عمومًا، لما كانت ثمة وصية ولا مناسبة لأن يُطلب منها وضع خمار على رأسها أثناء الصلاة.

فحديث الخمار يفيد أن المرأة لم تكن دائمًا وأصلاً تضع غطاء على رأسها، وأن الحديث يوصي بأن تضع خمارًا على رأسها (لتغطي شعرها) وقت الصلاة، ووقت الصلاة فقط. (العشماوي: ص٦٢).

ويفيد بأن تغطية الشعر عند الصلاة تعبير عن الضعف إلى الله، والعبودية له، والانصياع لعزته، والخضوع لحضرته. وأن هذه العادة وجدت أيضًا عند اليهود، وطالب بها بولس الرسول المرأة المسيحية. (العشماوي: ص٦٠، ٦١).

ويخلص من هذا كله إلى القول «فَعِلَّة الحكم في هذه الآية (آية الخمار) هي تعديل عرف كان قائمًا وقت نزولها، حيث كانت النساء تضعن أخمرة (أغطية) على رؤوسهن ثم يسدلن الخمار وراء ظهورهن فيبرز الصدر بذلك، ومن ثَمّ قصدت الآية تغطية الصدر بدلاً من كشفه، دون أن تقصد إلى وضع زي بعينه» (العشماوي: ص١٥، ١٦).

ويرى أن الجلباب هو الرداء الذي يستر جميع البدن (ص٢٨).

وهو في هذا كله يسوق رأي فضيلة الشيخ دكتور محمد سيد طنطاوي، الذي لا يبعد رأيه عن الرأي العام القائل بستر البدن كله عدا الوجه والكفين.

وخلافهم رحمة، فإن الدين يسر.

١٧) هواري بومدين (أغسطس ١٩٣٢ - ديسمبر ١٩٧٨) هو الرئيس الثاني للجمهورية الجزائرية. شغل المنصب منذ أول يونيو ١٩٦٥ إلى ٢٧ من ديسمبر ١٩٧٨ (سبقه أحمد بن بللا). اسمه الأصلي محمد إبراهيم بوخردبة. كان من أبرز رجالات السياسة بالجزائر والعالم العربي في النصف الثاني من القرن العشرين، وأحد رموز حركة عدم الانحياز. أدى دورًا مهمًا على الساحة الإفريقية والعربية، وهو أول رئيس من العالم الثالث تحدث في الأمم المتحدة عن نظام دولي جديد.

١٨) علم النجوم عند العرب:

كان الكلدان هم أساتذة العالم في علم النجوم، وقد وضعوا اسمه في القرن الخامس قبل الميلاد، بعد أن غزا بلادهم الفرس، فهاجر كثيرون منهم إلى ما جاورهم من البلاد، وخصوصًا بلاد العرب، لأنها كانت حِمى المهاجرين من العراق ومصر والشام، لامتناعها على الجنود بالصحراء الرمضاء ولسهولة إقامتهم هناك لقرب لسان العرب من لسانهم. وكان من جملة المهاجرين إلى بلاد العرب جماعة من الكهان وأصحاب النجوم. فتعلم العرب منهم أحكامها وأخذوا عنهم أسماءها، وعرفوا منهم مواقع الأبراج ومناطقها، ومنازل القمر والشمس، وربما كان لهم علم بشيء من أحكامها من عند أنفسهم، أو مما وصل إليهم من طريق الهند أو غيرها.

ومن أسماء الأبراج عند العرب:

الحمل أو الكبش - الثور - الجوزاء - السرطان - الأسد - السنبلة - العقرب - الميزان - القوس - الجدي - الدلو - الحوت أو السمكة.

ومعرفة العرب بالنجوم مشهورة، فقد عرفوا السيارات والأبراج، وعرفوا عددًا كبيرًا من الثوابت، ويدل قِدم أسماء النجوم في العربية على قدم معرفة

العرب بها وبمواقعها مثل:

بنات النعش الكبرى والصغرى – السُّها – الظباء – الربع الرابض – العوائذ – الفرقد – القدر – الراعي – الخباء – العيوق.

أما منازل القمر فقد قسموها إلى ثمانية وعشرين قسمًا، وأردوا منها معرفة أحوال الهواء والأزمنة وحوادث الجو في فصول السنة، وأسماء القمر الثمانية والعشرون في العربية هي: الثريا – الديوان – الهقعة – الجبهة – الزبرة – الصرفة – الإكليل – القلب – الشولة – سعد السعود – سعد الأخبية – الفرغ المقدم – الهنعة – الذراع – النثرة – الطرف – العواء – السماك – الغفر – الزبانيان – النعائم – البلدة – سعد الذابح – سعد بلع – الفرغ المؤخر – بطن الحوت – الشرطان – البطين.

وكانوا يستعينون بالكواكب، لأنهم كانوا – في معظمهم – أميين لا يتمكنون من معرفتها بالقراءة والتعلم. وقد أتقنوا معرفة النجوم، ومواقعها لأنها كانت دليلهم في أسفارهم وأكثر أحوالهم. وقد تعصب المؤرخون العرب والأدباء للعرب عند ذكر ذلك، ومنهم ابن قتيبة في كتابه تفضيل العرب على العجم، إذ ذكر أن العرب أعلم الأمم بالكواكب ومطالعها ومساقطها(١).

١٩) المرصد مبنى لرصد وتسجيل المعلومات عن الفلك، وطبقة الجو، والمغناطيسية والزلازل. وقد اهتم العرب بإنشاء المراصد وتزويدها بالأجهزة في عصر نهضتهم من القرن الثامن الميلادي إلى القرن الحادي عشر (أي من الثاني إلى الخامس الهجري) وأهمها مرصد دمشق بناه المأمون في أعلى جبل

---

(١) البيروني ص٢٣٨، نقلاً عن جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج٣ ص١٢ – ١٥ بتصرف.

قيسون، كما بنى مرصدًا في الشماسية ببغداد ومرصد بنى موسى في بغداد أيضًا على طرف الجسر، ومرصد شرف الدولة السلطان البويهي في بستان دار المملكة. وبنى الفاطميون مرصدًا على جبل المقطم (المرصد الحاكمي).

٢٠) لودفيج الأول (٧٧٨ – ٨٤٠م) ويسمى لودفيج التقى Ludwig I. der Fromme كان قيصرًا إلى جوار أبيه القيصر كارل الكبير Karl der Grosse (شارلمان). تأثر كثيرًا بمستشاره الكاهن، وأصبح قيصرًا بعد وفاة والده. وكان له ولد يتطلع إلى السلطة ومنصب القيصرية ثار عليه وعزله عن العرش، وكان في هذا بداية أفول الإمبراطورية الكارينجرية Karingerreich.

٢١) الأمير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود:

ولد في ٢٧ من يونيو ١٩٥٦. اهتم بمجال السياسة الدولية، بالإضافة إلى مؤهلات الطيران التي حاز على شهادة بها في بداية حياته المهنية، وحصل على درجة الماجستير في العلوم الاجتماعية والسياسية من جامعة سيراكيوز بالولايات المتحدة (١٩٩٩) بعنوان «التحول القبلي في التجربة السعودية» وهو أول رائد فضاء عربي (ديسكفري) في ١٩٨٥.

٢٢) نديم إلياس:

ولد في مكة المكرمة في أول سبتمبر ١٩٤٥، غادر دكتور نديم إلياس المملكة العربية السعودية عام ١٩٦٤. درس الطب والعلوم الإسلامية في ألمانيا ومارس طب النساء والولادة.

شغل منصب رئيس المجلس المركزي للمسلمين في ألمانيا بين ١٩٩٥ – ٢٠٠٦، وخلفه في المنصب أيوب أكسل كولر، وهو مسلم سني.

المراجـــــع

المراجع التي رجعت إليها مؤلفة الكتاب زيجريد هونكه من كتبها:

Sigrid Hunke:

- Am Anfang waren Mann und Frau, 1953 / 1987.
- Allahs Sonne über dem Abendland - Unser arabisches Erbe, Deutsche Verlagsanstalt, Stuttgart 1960 / 1989.
- Das Reich und das werdende Europa, 1965.
- Europas andere Religion, Düsseldorf 1969.
- Die Einheit europäischer Religion und Naturwissenschaft 1979.
- Kamele auf dem Kaisermantel – Deutsch – arabische Begegnungen seit Karl dem Grossen, Frankfurt 1976/ 1978.
- Glauben und Wissen - Die Einheit europäischer Religion und Naturwissenschaft, Düsseldorf 1979, 1987.
- Vom Untergang des Abendlandes zum Aufgang Europas Horizonte, 1989.
- Die Ungläubigen in der mittelalterlichen Literatur Diss., 1993.

المراجع التي رجعت إليها المؤلفة من كتب الآخرين:

1- **Ahmad Schmiede:**
Dschihad – nur «heiliger Krieg» ?in: Al-Islam 5/75.

2- **Asad, M. und Zbinden, H.:**
Islam u. Abendland, 1966.

3- **Azzam, Hamdy:**
Der Islam 1981.

4- **Bacon, Roger:**
Quaestiones naturalis 6.

5- **Boha ad – Din, Hanns Wollschläger:**
Die bewaffeneten Wallfahrten gen Jerusalem 1973.

6- **Brochhaus Enzyklopädie, I, 315:**
Alexandrinische Bibliothek.

7- **Burckhardt, Titus:**
Die maurische Kultur in Spanien, 1970.

8- **Falaturi, Abdoldjawad:**
Gott und Mensch aus islamischer Sicht, in: Islam und Christentum, Köln 1983.

9- Der Islam im Dialog, Köln 1979.

10- **Görlitz, Walter:**
Vor 1350 Jahren wurde die antike Bibliothek von Alexandrien zerstört, Griff in die Geschichte, 1989.

11- **Heller, Erdmute:**
Die Situation der Frau in der islamischen Gesellschaft in: Im Namen Allahs, hrsg v. Axel Buchholz und Martin Geiling, 1980.

12- **Koestler, Arthur:**
Die Nachtwandler - Entstehungsgeschichte unserer Welterkenntnis, 1959.

13- **Konzelmann, Gerhard:**
Allahs Schwert, Der Aufbruch der Schiiten 1989.

14- **Mazahéri, Aly:**
So lebten die Muselmanen im Mittelater, 1957.

15- **Mensching, Gustav:**
Zum Phänomen des Absoluheitsanspruches im Christentum und im Islam, in: Der Orient in der Forschung.
Festschrift für O. Spies, hg. v. W. Hoenerbach, 1967.

16- **Palm, Rolf:**
Die Sarazenen 1978.

17- **Sabet, Huschmand:**
Der gespaltene Himmel, Stuttgart, 1967.

18- **Samhaber, Ernst:**
Weltgeschichtliche Zusammenhänge, 1976.

19- **Schariati, Ali:**
Fatima ist Fatima, 1981.

20- **Stacke, Ludwig:**
Deutsche Geschichte, 1880

21- **Stein, Siegfried:**
Die Ungläubigen in der mittelalterlichen Literatur, Diss. 1993.

22- **Toynbee, Arnold J.:**
Studie zur Weltgeschichte, Hamburg 1949.

23- **Vitello, Anita und Rima Nabulsi:**
Die Frau in der Intifada in: Zschr. Palästina 3. Jg. Nr. 2, 1990.

24- **Waas, Adolf:**
Geschichte der Kreuzzüge, 1956.

25- **Winzer, G.:**
Kulturgeschichte Europas von der Antike bis zur Gegenwarta.

المراجع التي رجع إليها المترجم لكتابة التعليقات:

١- **ابن الأثير:**

الكامل في التاريخ، دار الصياد، بيروت، د.ت.

٢- **ابن تغري بردي الأتابكي:**

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٣.

٣- **ابن حزم الأندلسي:**

طوق الحمامة، تحقيق د. الطاهر مكي، دار الهلال، ١٩٩٤.

٤- **ابن زيدون:**

الديوان، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٦.

٥- **ابن النديم:**

كتاب الفهرست، تحقيق فليجل، الطبعة الثانية: عوني عبد الرءوف وإيمان السعيد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر (١٤٩، ١٥٠)، ٢٠٠٦.

٦- **ابن واصل:**

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق د. سعيد عاشور بالاشتراك مع د. حسنين ربيع، وزارة الثقافة والإعلام، القاهرة ١٩٧٢.

٧- **أحمد محمد الشرقاوي:**

المرأة في القصص القرآني، دار السلام، ٢٠٠٣.

٨- إرنست باركر:

الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠.

٩- إسماعيل بن محمد العجلوني:

كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، دار التراث د. ت.

١٠- أنا ماري شيمل:

الإسلام دين الإنسانية، ترجمة د. صلاح عبدالعزيز محجوب، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مارس ٢٠٠٣.

١١- بروكلمان، كارل:

تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥.

١٢- جرجي زيدان:

تاريخ التمدن الإسلامي، مؤسسة دار الهلال، ١٩٦٨.

١٣- جميل بن معمر:

ديوان جميل، جمع وتحقيق وشرح: دكتور حسين نصار، مكتبة مصر د.ت.

١٤- حامد أحمد أبو زيد:

قضية المرأة بين سندان الحداثة ومطرقة التقاليد: دراسة في تاريخ النصوص / مقال. مجلة ألف ١٩ (١٩٩٩).

١٥- د. حسين مؤنس:

فجر الأندلس، دار الرشاد، ٢٠٠٥.

١٦- **زيجريد هونكه:**

شمس الله على الغرب (أو تسطع على الغرب) ترجمة:

١- فؤاد حسنين علي، دار المعارف، ١٩٦٩.

٢- فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٩٣.

١٧- العقيدة والعلم (وحدة الدين الأوربي وعلم الطبيعة)، ترجمة وتقديم د. محمد أبو حطب خالد، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧.

١٨- **د. سعيد عبدالفتاح عاشور:**

المدينة الإسلامية، دار النهضة العربية، ١٩٦٣

١٩- الحركة الصليبية (صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى)، الأنجلو المصرية ١٩٩٧/ ٢٠٠٩.

٢٠- **السيوطي، جلال الدين:**

الجامع الصغير، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.

٢١- **الشهرستاني:**

الملل والنحل، تحقيق محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي، بالقاهرة.

٢٢- **د. الطاهر مكي:**

الفن العربي في إسبانيا وصقلية، ترجمة لكتاب شاك «الشعر والفن عند العرب في إسبانيا وصقلية» ط ثانية ١٩٨٥.

٢٣- **عباس محمود العقاد:**

أثر العرب في الحضارة الأوربية، دار المعارف، ١٩٦٩.

٢٤- الله - كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، دار المعارف، د.ت.
٢٥- **عبد الله عفيفي:**
المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، دار الرائد العربي، بيروت، ط. ثانية ١٩٨٢.
٢٦- **قدري طوقان:**
تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، دار الشروق، ١٩٦٣.
٢٧- **القفطي:**
إخبار العلماء بأخبار الحكماء. تحقيق ليبرت، وترجم الحواشي وأضاف إليها: عوني عبد الرءوف، مكتبة الآداب، ٢٠٠٨.
٢٨- **كارلو نللينو:**
علم الفلك، مكتبة الدار العربية للكتاب، ١٩٩٣.
٢٩- **محمد بن أحمد إسماعيل المقدم:**
المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية، دار ابن الجوزي، القاهرة ٢٠٠٥.
٣٠- **محمد أبو زهرة (الشيخ):**
تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الفكر العربي، ١٩٧٥.
٣١- **محمد سعيد العشماوي:**
حقيقة الحجاب، وحجية الحديث، مكتبة مدبولي الصغير، ١٩٩٥.
٣٢- **محمد عبدالله عنان:**
مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٢

٣٣- **محمد عبده (الشيخ):**

الأعمال الكاملة، دار الشروق، ٢٠٠٦.

٣٤- **محمد العروسي المطوي:**

الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الكتب الشرقية، تونس د. ت.

٣٥- **د. محمد عمارة:**

التحرير الإسلامي للمرأة (الرد على شُبْهات الغلاة)، دار الشروق، ٢٠٠٢.

٣٦- **د. محمد عوني عبد الرءوف:**

القافية والأصوات اللغوية، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤.

٣٧- بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف، مكتبة الآداب، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥.

٣٨- تاريخ الترجمة العربية بين الشرق العربي والغرب الأوربي، مكتبة الآداب، ٢٠٠٨.

٣٩- **محمد الغزالي (الشيخ):**

قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الشروق، ٢٠٠٥.

٤٠- **مراد هوفمان:**

الإسلام كبديل. ترجمة د. غريب محمد غريب، مؤسسة بافاريا – مؤسسة العلم الحديث، بيروت ١٩٩٣.

٤١- **المسعودي، أبو الحسن علي:**

كتاب التنبيه والإشراف، تحقيق بارون روزن، مكتبة خياط، بيروت ١٩٦٥.

٤٢- **مونتجومري وات:**

فضل الإسلام على الحضارة الغربية، نقله: حسين أحمد أمين، دار الشروق، ١٩٩٣.

٤٣- **ميكيلي أماري:**

تاريخ مسلمي صقلية، ترجمة وإعداد: د. محب سعد إبراهيم، فلورنسا لي مونييه ٢٠٠٣.

٤٤- **نجيب العقيقي:**

المستشرقون، دار المعارف، ١٩٦٥.

٤٥- **هيو كنيدي:**

الفتوح العربية الكبرى، ترجمة قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، العدد ١٢٨٧.

٤٦- **وليم الصوري:**

الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١.

دوائر المعارف والموسوعات، وما أمكن توثيقه من شبكة المعلومات:

- الموسوعة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة:
  • الفصل السابع عشر: تاريخ الطب عند العرب.
- الموسوعة الحرة ويكيبيديا The Free Encyclopedia, Wikipedia
  • الحاكم بأمر الله.
  • البابا أيجين الثالث .Pope Eugene III

- Encyclopedia Americana:
  Printed and manufactured in the U. S. A.
  By Crolier International 1972.
- De Moulina, D.
  A history of Surgery with emphasis of Netheland, published by Mortins Nijhoff Puplisers Dordreit, Bsoton and Lancetter 1988.
- Grosse Deutsche, von Karl dem Grossen bis Werner v. Braun Stuttgart, Hamburg bei Kindler Verlag 1982.
- http: // e books adelaide edu auls / Scott, Walter, Talisman / complete / htm.
  Appendix to Introduction of the Talisman by Walter Scott.
- http:// www.Islam on line. Net / Arabic / Doc / adress / 2006 /09/01 / shtd
  • نص محاضرة البابا بنديكت السادس عشر التي ألقيت بقاعة المحاضرات بجامعة بون في ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦
- http//www ahewr org /
  • البابا يوحنا الثاني والإسلام / لطفي حداد ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٥

- http// www. Medie valtymes. Com/ courtyard / bishop
  - الأسقف أدمار Bischop Ademar
- New World Encyclopedia
  - Al-Hakim bi – Amr Allah
- www. Alukah, net, articles II/4095. aspx
  - رسالة ملك المغرب إلى البابا يوحنا بولس الثاني.

ملحق الكتاب

أولاً : ما ورد لـدى سـير والـتر سـكوت Walter Scott بمقدمـة روايتـه الطلسم Talisman.

ثانيًا : نص محاضرة البابا بنديكت التي أثارت غضب المسلمين.

ثالثًا : نص خطاب أوباما Obama إلى العـالم الإسـلامي في ٤ مـن يونيـو ٢٠٠٩.

رابعًا : شركة «بلاك ووتر» تقود حملة صـليبية في العـراق، في القـرن الحـادي والعشرين.

أولاً: ما ورد لدى سير والتر سكوت Sir Walter Scott

جاء بمقدمة روايته الطلسم Talisman شيء عن سلوك ريتشارد قلب الأسد الملك الإنجليزي وأحد قادة الصليبيين، وهو ينقله عن كتاب «تاريخ الفروسية» History of Chivalry لجيمز James عن أشعار إليس Ellis بالشعر الإنجليزي القديم. ولا يدري أحد إن كان ما جاء عن هذا السلوك المنسوب لريتشارد حقيقة أم خيالاً.

وعلى كلٍّ فلم يرد عن صلاح الدين عند المؤرخين القدماء الأوربيين أو العرب ولم ينسب إليه مثل هذا السلوك، حتى ولو كان متخيلاً أو مشكوكًا في صحته، وإنما نجدهم جميعًا يتحدثون عن نبل أخلاق صلاح الدين وحسن معاملته للأسرى الصليبيين.

وقد آثرت أن تقوم الدكتورة سهير محفوظ الأستاذ المساعد بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الألسن بترجمة هذه المقدمة؛ لاطمئناني لدقة ترجمتها.

الطلسم

في غمار الحرب التي خاضها الملك ريتشارد في الأرض المقدسة، سقط مصابًا بحمى الملاريا، وعجز أبرع الأطباء في المعسكر عن إيجاد علاج ناجع له؛ لكن صلوات الجنود كانت أكثر قوة وأبلغ أثرًا، فلما تعافى ريتشارد من الحمى ودخل في طور النقاهة، كانت أولى أمارات الشفاء رغبة جارفة استبدت به لأكل لحم الخنزير. ولكن من أين لرجاله بذلك النوع من اللحوم في بلاد يشمئز أهلها من الخنزير ولحمه؟

«إن رجال الملك لا محالة قادمون»

فأنّى لهم في تلك البلاد، على وفرة الذهب والفضة والأموال،

العثور لمليكهم على لحم الخنزير

الذي لا يرضى عنه بديلاً

فلما علم أحد الفرسان القدماء برغبة الملك ريتشارد

وأدرك فداحة المعضلة،

أسرَّ إلى الخادم قائلاً:

«إن مولانا الملك في مرضه العضال

قد هفت نفسه إلى الخنزير

...

فخذ فتًى عربيًا مسلمًا مكتنزًا،

وعاجله بالسكين.. ذلك اللص،

وشق بطنه وأسلخ الجلد،

وطيّب لحمه بالتوابل والملح

والزعفران رائع الألوان،

قال له رجاله: «قد جلبنا لك لحم الخنزير يا مولاي،

فالتهم اللحم اللذيذ، واشرب ما طاب لك من الحساء،

ولينعم الرب عليك بالشفاء.

فانقض الملك ريتشارد على اللحم،

ولم يطق الانتظار على أن يقطعه له الفارس.

بل أخذ يلتهم اللحم التهامًا، ويقضم العظام قضمًا،

ويعب من الشراب عبًا دون وعي،

فلما اكتفى، أدار الحاضرون وجوههم ضاحكين.

آتوني رأس ذلك الخنزير اللذيذ،

فلن أستريح إلا إذا رأيت ما شفاني

وخرَّ الطاهي جاثيًا على ركبتيه وصاح...

انظر، هذه هي الرأس.. رحماك يا مولاي!»

لكم كان الطاهي خائفًا من أثر صدمة الملك حين يسترجع أحداث الوليمة المرعبة التي تناولها، والتي يدين لها بشفائه؛ لكن كل ذلك الخوف سرعان ما تبدد.

«صاح الملك مزمجرًا»

«يالك من شيطان!..»

ثم انفجر ضاحكًا، وقال:

ماذا! هل لحم العرب المسلمين شهي إلى هذه الدرجة؟

لن أخشى الجوع بعد اليوم!

فلتذبحوا العرب المسلمين،

ولتدفعوا بلحومهم للشواء اللذيذ...

فلسوف أهنأ بالتهامها مع الرفاق».

عَرَض العرب الواقعون تحت الحصار أن يستسلموا، بشرط أن يضمن ريتشارد لهم سلامة أهل البلاد؛ وقاموا بتسليم الجيوشِ الصليبية المنتصرة أموالَ الخزانة العامة، والأسلحةَ والمعدات الحربية، بالإضافة إلى فدية قدرت بمائة ألف

بيزنط. وما إن تم تنفيذ هذه المعاهدة حتى وقع هذا المشهد الشديد الغرابة الذي سوف نورده، كما عبر عنه الكاتب الساخر جورج إليس بكلماته اللطيفة، فهو الذي قام بجمع هذه الروايات وتحقيقها:

«على الرغم من أن الحامية العسكرية العربية أوفت بكل ما نصت عليه المعاهدة، فإنهم عجزوا عن استرداد الصليب الذي تم الاستيلاء عليه، فلقوا على يد المسيحيين أكثر الممارسات شراسة وقسوة وطارت الأنباء عن تعذيبهم إلى صلاح الدين. ولما كان عدد كبير من هؤلاء الأسرى من علية القوم، فقد استشار صلاح الدين خلصاءه، ثم قرر أن يبعث بسفرائه إلى الملك ريتشارد، وحمَّلهم بالهدايا الثمينة على سبيل الفدية للإفراج عن الأسرى. وحرص صلاح الدين عند اختيار من يرسلهم لهذه المهمة أن يكونوا ممن يحظون بالاحترام لكبر سنهم ومكانتهم وفصاحتهم. وكان أن قام هؤلاء السفراء بتسليم الرسالة التي حُمِّلوها بكل تواضع، حتى إنهم لم يناشدوا الملك الرأفة برجالهم أو الرحمة من المعاملة القاسية التي يلقونها، ووضعوا الهدايا تحت أقدامه، قاطعين على أنفسهم العهد بدفع أي أموال إضافية في مقابل الإفراج عن الأسرى.

«كان رد الملك، لدهشتهم، لطيفًا

إذ قال: حاشاي أن أقبل الذهب منكم!

بل أنتم بهديتكم تذهبون

وتقسمونها بينكم؛

فلقد أتيت بسفني بما لا قبل لكم

ولا لمليكم به من ذهب وفضة؛

لكنني أحب أن أدعوكم لاجتماع عندي،

نتشاور في الأمر،

وألبي لكم بعده ما شئتم.

فلتحملوا لقائدكم هذه الرسالة.

«وقبل المسلمون الدعوة شاكرين، وما إن علم ريتشارد بذلك حتى أرسل في طلب قائد الجنود، وأمره بأن يذهب من فوره إلى السجن، ويختار من بين الأسرى أعظمهم شأنًا، فيسجل أسماءهم في رقعة ويسلمها للسياف حتى يعاجلهم بقطع رؤوسهم، ثم أمر الطاهي بأن يتسلم الرؤوس فيزيل شعورها، ويقوم بغليها في مرجل ضخم، ثم يضع في طبق كل ضيف من الضيوف رأسًا منها، بعد أن يكون قد ثبت على جبهةِ كلِ رأسٍ الرقعةَ التي كتب عليها اسم الضحية وعائلته.

«آتوني رأسًا ساخنًا قبلهم،

ولسوف أسرع بالتهامه

وكأنه فرخ طري لذيذ،

ولنرَ كيف يتصرفون»

«تم تنفيذ الأوامر بكل دقة، وعند الظهر عزفت الموسيقى في دعوة للضيوف للاغتسال استعدادًا لتناول الطعام؛ وجلس الملك في مقعده على مائدة مرتفعة محاطًا برجال البلاط، بينما اصطف باقي الحاضرين على مائدة أخرى

طويلة في مستوى منخفض. لم يكن على الموائد سوى كميات من الملح تراصت على مسافات، فقد خلت من أي أنواع الخبز أو النبيذ أو الماء. وتعجب السفراء من ذلك التقصير، لكن لم يُداخلهم أي شك، وجلسوا ينتظرون الطعام في صمت.

دوت الطبول، ونقرت الدفوف، وأطلقت المزامير مؤذنة بوصول الطعام، ورُصت الأطباق أمام الضيوف، فما إن نظروا إليها حتى هالهم ما رأوا، وامتلأت نفوسهم بالرعب الممزوج بالاشمئزاز، وتشبثت أعينهم بالملك الذي لم يطرف له جفن، ولم تختلج له ساكنة، بل طفق يأكل ويبتلع كل ما يقطعه له الفارس الواقف بجواره.

«وأسرَّ كل منهم للآخر:

إنه شيطان مريد!

أيذبح رجالنا ويأكلهم؟!»

«ولم يجد الرجال بُدًا من النظر فيما وضع أمامهم، فلما أخذوا يتفرسون في تلك الرؤوس التي شاهت ملامحها وتورمت من جراء النيران، استطاعوا تبين الشبه بينها وبين أسراهم، وتيقنوا من الأسماء الواردة على الرقاع أن تلك ما هي إلا رؤوس الرجال الذين جاءوا لافتدائهم. وألقى في قلوبهم الرعب من أن يلاقوا نفس ذلك المصير لو بدرت منهم أي بادرة، فالتزموا الصمت.

...

قطوف من القصص الشعري الإنجليزي القديم لإليس

...

قد يثير فضول القارئ أن يعرف كيف تأتَّى لهذه الروايات المنسوبة إلى ريتشارد ملك إنجلترا، والتي تصوره وحشًا من أكلة لحوم البشر، أن تجد طريقها إلى تاريخه. يبدو أن مستر جيمز الذي أمدنا بالكثير من التفاصيل الغريبة هو الذي تتبع تلك الشائعات حتى أصولها.

يوضح المؤلف نفسه أن «طائفة من الرجال كانوا يصاحبون الجيش، وقد آلوا على أنفسهم ألا يتربحوا من ذلك العمل، فكانوا يمشون على الأقدام حفاة عزلاً من أي سلاح، حتى إنهم كانوا يسيرون في المقدمة أمام البغال التي تحمل العدة والعتاد، وكانوا يقتاتون على النباتات والأعشاب، ويثيرون في نفس من يراهم الشفقة والاشمئزاز بمنظرهم الرث».

«وفي يوم من الأيام، فقد أحد النبلاء النورمانديين فرسه، وكان كريم المحتد بحسب كل الروايات، فسار مع الجيش ضمن صفوف المشاة زمنًا؛ ثم اتخذ قرارًا غريبًا بأن ينصب نفسه على رأس هؤلاء الصعاليك الذين فرحوا بذلك ورفعوه ملكًا لهم. وقد اشتهرت هذه الطائفة بين العرب المسلمين باسم الثافور (وهو الذي ترجمه جوبيرت إلى اسم ترودنتس)، وكانوا ينظرون إليهم نظرة ملؤها الوجل والرعب، بسبب ما كان يُعرف عنهم من شائعات مفادها أنهم كانوا يتغذون على جثث القتلى من الأعداء. وكانت تلك الشائعات تتأكد أحيانًا، بل إن ملك هؤلاء الثافور كان يحرص على ترويجها. ومن بين ما أشيع عنهم أن ذلك الملك اعتاد على استدعاء أتباعه واحدًا واحدًا ليتم تفتيشهم تفتيشًا دقيقًا لئلا

يكون أحدهم قد أخفى في طيات أسماله البالية أي مبلغ ولو ضئيل من المال، فيتسبب بذلك في ضياع سمعتهم، ويصبحون غير جديرين بالاسم الذي أطلق عليهم. فإذا ضبط أحدهم متلبسًا بحيازة ولو درهمين اثنين، كان يتم طرده على الفور من تلك الجماعة، ويصدر الملك أوامره بأن يصير محتقرًا لا يكلف بحمل السلاح والمشاركة في القتال».

«لقد كان أفراد هذه الجماعة، لا يمثلون أي عبء على الجيش، بل كانوا ذوي نفع كبير ويتفانون في خدمته بلا كلل، فيحملون الأحمال الثقال، ويقومون بجلب الأعلاف، والمؤن والجزية؛ كانوا يقومون بتشغيل الآلات في أثناء الحصار؛ وكانوا فوق هذا وذاك ينشرون الرعب بين صفوف الأتراك الذين كانوا لا يخشون الموت برماح الفرسان بقدر ما ترعبهم فكرة الهلاك بين أسنان جماعة الثافور أكلة لحوم البشر» [«تاريخ الفروسية» لجيمز]

إنه ليس من المستغرب على شاعر كوميدي يعرف التاريخ، حين يرى أن الروايات التاريخية حول الحرب المقدسة قد خلدت مثل تلك الأهوال والفظاعات التي ثارت حول الثافور، أن ينسبها إلى ملك إنجلترا، فلقد كانت ضراوته ووحشيته، وكذا بسالته، مجالاً خصبًا لكثير من المبالغات التي كان لها ما يبررها.

ثانيًا: نص محاضرة البابا بنديكت التي أثارت غضب المسلمين[1]

وهي المحاضرة التي ألقاها البابا بنديكت السادس عشر بقاعة المحاضرات بجامعة بون في ١٢ من سبتمبر ٢٠٠٦ تحت عنوان «العقل والإيمان في التقاليد المسيحية والحاضر المسيحي»، والتي أثارت آراؤه بها عن الإسلام ردود فعل غاضبة في العالم الإسلامي، حيث أشار فيها – على لسان إمبراطور بيزنطي – إلى أن الرسول محمدًا ﷺ جاء بأشياء كلها شريرة، وأن انتشار الدين بالسيف مناقض لطبيعة الله، وهو ما وجد ردودًا احتجاجية عنيفة من المسلمين في أنحاء العالم.

وفيما يلي نص هذه المحاضرة:

«إن اللقاء بين الإيمان الإنجيلي والفلسفة الإغريقية كان على قدر كبير من الأهمية، ليس من جهة موقف تاريخ الأديان، بل ومن جهة التاريخ العالمي».

... تذكرتُ ذلك العهد (بالتدريس والنقاش) بين الزملاء قبل فترة، عندما كنت أقرأ نشرة البروفسور (عادل) تيودور خوري (من جامعة مونستر) لقسم من حوار (ربما جرى عام ١٣٩١ في الثكنات العسكرية الشتوية على مقربة من أنقرة) بين الإمبراطور (البيزنطي) العالم مانويل الثاني باليولوغوس، ومثقف فارسي (مسلم) في موضوع المسيحية والإسلام، والحقيقة المتضمنة في كل منهما. وربما كان الإمبراطور نفسه هو الذي سجل ذلك الحوار خلال حصار

---

(١) ألقاها بابا الفاتيكان بجامعة بون يوم ١٢ من سبتمبر ٢٠٠٦.

القسطنطينية بين العامين ١٣٩٤ و١٤٠٢، وهذا ربما يعلل سبب ذكر حججه بالتفصيل، دونما اهتمام لافت بإجابات العالم الفارسي. والحوار يتوسع إلى ما وراء حدود البنى العقدية في الإنجيل والقرآن، ليركز بخاصة على صورة الله والإنسان، راجعًا عندما يكون ذلك ضروريًا، إلى العلائق بين «الشرائع الثلاث»: العهد القديم والعهد الجديد والقرآن.

في هذه المحاضرة أريد أن أناقش نقطة واحدة – ربما كانت هامشية في الحوار المذكور نفسه – هي سياقات علاقة «الإيمان والعقل» وقد وجدت أنه من الممكن أن يكون ذلك السياق الحواري مفيدًا في تأملاتي حول المسألة.

في المحادثة السابعة (من الجدال...) والتي نشرها البروفسور خوري، يعالج الإمبراطور موضوع الجهاد (الحرب المقدسة). ومن المؤكد أن الإمبراطور كان يعرف الآية القرآنية (٢: ٢٥٦) والتي تقرر أنه «لا إكراه في الدين». وسورة البقرة هذه إحدى السور القرآنية المبكرة، عندما كان (النبي) محمد ما يزال بدون قوة ونفوذ، وواقعًا تحت التهديد، لكن من الطبيعي أن يكون الإمبراطور عارفًا بالتعاليم الإسلامية التي تطورت فيما بعد وسجلها القرآن، بشأن الحرب.. وبدون مقدمات تفصيلية حول الفروق في التعامل مع «أهل الكتاب» والآخرين «المشركين»، يلتفت الإمبراطور إلى محاوره بشكل مفاجئ وقاس طارحًا السؤال الأساسي في العلاقة بين الدين والعنف بشكل عام؛ يقول الإمبراطور: «أرني ما هو الجديد الذي أتى به محمد، وسوف تجد أشياء كلها شريرة وغير إنسانية، من مثل أمره بنشر الدين بالسيف».

ثم يمضي الإمبراطور شارحًا بالتفصيل الأسباب التي تجعل من نشر الإيمان بالعنف تصرفًا غير عقلاني، لا يتفق العنف مع الطبيعة الإلهية، ولا مع طبيعة الروح: «لا يحب الله سفك الدم، والتصرفُ غير العقلاني مناقضٌ لطبيعة الله». فالإيمان يبزغ من الروح وليس من الجسد، بيد أن الذين يريدون نشر الإيمان، «يحتاجون إلى قدرة على الحديث الجيد، والتأمل بعقل، وبدون عنف وتهديدات... ومن أجل إقناع روح عاقلة، لا يحتاج المرء إلى ذراع قوية، ولا إلى سلاح من أي نوع، كما لا يحتاج إلى تهديد أي شخص بالموت...».

إن الحجة البارزة في هذا الجدال ضد الإرغام على الإيمان أن الداعية الذي يتصرف بخلاف العقل، إنما يتصرف بخلاف طبيعة الله. ويلاحظ البروفسور خوري معلقًا: بالنسبة للإمبراطور البيزنطي ذي الثقافة الفلسفية الإغريقية؛ فإن هذا الأمر بديهي. أما في تعاليم الإسلام فإن الله سبحانه متعالٍ علوًا مطلقًا، كما أن إرادته ليست مقيدة أو متعلقة بأي مبدأ آخر بما في ذلك مقاييس العقل نفسه. وهنا عاد خوري للاقتباس من دارس فرنسي معروف للإسلاميات هو روجيه أرنالديز ذكر عن ابن حزم (الأندلسي) أن الأخير ذهب بعيدًا في (تنزيه) الله إلى حدود القول إن الله سبحانه ليس مقيدًا حتى بكلمته (أي بوعده ووعيده)، وليس هناك ما يوجب عليه حتى إنزال الوحي وإرسال النبيين، وهو عز وجل إن شاء، وبمقتضى الفهم، فقد تكون عبادة الأوثان داخلة ضمن المشيئة الإلهية.

إن التحدي الذي واجه اللاهوتيين القدامى، وهو ما يزال يواجهنا حتى اليوم: هل الاعتقاد بأن العمل غير العقلاني يناقض طبيعة الله هو مجرد فكرة إغريقية أو أنها حقًا وواقعًا صحيحة دائمًا، وأنا أرى أنه في هذه المسألة بالذات

يمكن الوصول إلى وجود تناغم بين القناعة الإغريقية والفهم الإنجيلي للإيمان بالله. وإذا عدنا إلى الجملة الأولى في سفر التكوين بحسب يوحنا نجد (في البدء كانت الكلمة «اللوغوس»، وكان الكلمة الله): فالله يعمل باللوغوس واللوغوس يعني العقل والكلمة.. وهو العقل القادر على التواصل، التواصل بذاته باعتباره عقلاً. وهكذا فإن يوحنا قال القول النهائي في الفهم الإنجيلي لله، وفي هذه المقولة تتلاقى كل خيوط وخطوط الإيمان الإنجيلي.

يقول يوحنا الرسول إنه في البدء كان اللوغوس، واللوغوس هو الله، وهذا اللقاء بين الرسالة الإنجيلية والفكر الإغريقي ما حدث بالمصادفة. ففي رؤيا بولس الرسول بعد أن وجد طرق آسيا مسدودة، أن إنسانًا مقدونيًا أتاه في المنام وقال له: «تعال إلى مقدونيا وساعدنا».

وقد عنت تلك الرؤيا أن هناك ضرورة للتقارب بين الإيمان الإنجيلي والتساؤل الإغريقي. وفي الواقع فإن ذلك التقارب كان جاريًا منذ بعض الوقت، فاسم الله، الذي تجلى من شجرة العليق المشتعلة، يفترق عن سائر التأليهات مهما اختلفت أساميها. إنه هو، هكذا ببساطة.

وهذا تحد لمصطلح الميث (الأسطورة) الذي حاول سقراط اختراقه، والتسامي فوقه في قياس مقارب. وفي العهد القديم اكتملت العملية التي بدأت في العليقة المشتعلة، خلال السبي، الذي عنى تجردًا عن الأرض والمعبودات، حيث هو الله رب السموات والأرض: أنا الله، وهذا الفهم الجديد الخالص لله ترافق مع قدر من التنوير، الذي وجد تعبيره الخاص والقوي بالتبرؤ من الآلهة

الأخرى، التي هي من صناعة البشر... وقد حدث بذلك التلاقي النهائي بين إله الإنجيل، والفكر الإغريقي الراقي؛ فكان ذلك الإثراء المتبادل في أدب الحكمة المتأخر...

(ويفصل البابا هنا في حيثيات اللقاء بل والتطابق في الترجمة الإسكندرانية للعهد القديم إلى الإغريقية.. وصولاً للإمبراطور مانويل الثاني وجدلياته، والذي صار قادرًا على القول: إن لم تعمل بحسب «اللوغوس» فإن ذلك مخالف لطبيعة الله عز وجل).

إن الذي أريد تقريره بكل أمانة هنا أننا نجد اتجاهات في لاهوت العصور الوسطى تتنكر لهذا الامتزاج أو التلاقي بين الروح الإغريقي والروح المسيحي. فبخلاف العقلانية التي عرفها أوغسطين وتوماس، ظهر أناس مثل دونز سكوتوس ينصرون إرادوية أي الذين بالإرادة البشرية) تقول إننا لا نستطيع معرفة الله إلا بالإدراك المباشر أو الغريزة. ذلك أن حرية الله تقع فيما وراء أو فوق ذلك، حيث قد تكون أفعال الله مناقضة لكل ما سبق أن فعله! وهذا التوجه يبلغ أفاقًا تشبه تلك التي تحدث عنها أو تصورها ابن حزم (يسميه البابا دائمًا خلال محاضرته: ابن حزن)، وهي صورة تجيز على الله سبحانه أن يفعل ما قد لا يتفق والخير والحقيقة. فتعالى الله وغيريته المطلقة هما من السموق، بحيث إن عقلنا أو إدراكنا للحق أو للخير لا يعودان مرآت لله، الذي يبقى جل وعلا غير مدرك خلف غاياته الفعلية. وبخلاف ذلك؛ فإن إيمان الكنيسة ظل يؤكد دائمًا أنه بين الله والإنسان، بين الخالق الأبدي وعقلنا المخلوق، هناك دائمًا قياس حقيقي. وبحسب هذا التوجه فإن الاختلاف أو الاشتراك يبقى قائمًا، ولكن

ليس إلى حدود إلغاء القياس ولغته. إن الله سبحانه لا يصير مقدسًا أكثر، إذا أبعدناه عنا في إرادوية مفرطة.

فالله هو الوجود الذي يفصح عن نفسه باعتباره لوغوس وهو باعتباره كذلك يتقبلنا بحب: ولا شك أن الحب «يتفوق» على المعرفة. ولذلك فهو قادر على التحقق أكثر من تفكيرنا نفسه. وهكذا فالإيمان المسيحي هو في تناغم مع الكلمة الأبدية ومع عقولنا.

إن هذا اللقاء بين الإيمان الإنجيلي والفلسفة الإغريقية، كان على قدر كبير من الأهمية ليس من جهة موقف تاريخ الأديان، بل ومن جهة التاريخ العالمي. وهو أمر ما يزال يهمنا حتى اليوم. وبالنظر لهذا المشيج فإن المسيحية بالرغم من أصولها وتطورها البارز في المشرق، اتخذت سيرها ومصيرها وطبيعتها في أوروبا. ونحن نستطيع أن نعبر عن ذلك بأن هذا المشيج، مضافًا إليه الميراث الروماني، صنع في أوروبا، وهو يبقى التأسيس الذي يعبر بالكامل عن الذات الأوروبية. وهذه المقولة التي تذهب إلى أن الميراث الإغريقي المصفى يشكل جزءًا جوهريًا من الإيمان المسيحي تصادمه عمليات «نزع الهلينية» عن المسيحية، وهي العملية التي سيطرت في النقاشات اللاهوتية منذ بدء الأزمنة الحديثة.

ويمكن تتبع العملية المذكورة وقسمتها إلى ثلاث مراحل، تترابط فيما بينها، لكنها تظل ممكنة التمييز والتمايز في الدوافع والأهداف.

بدأت المرحلة الأولى من عمليات «نزع الهلينية» في زمن الإصلاح بالقرن السادس عشر. وقد نظر الإصلاحيون في التقليد اللاهوتي السكولائي فوجدوه

مرتبطًا تمامًا بالفلسفة. ورأوا أن نظام الإيمان هذا ارتبط بمقولات فكرية غريبة عنه. وقد بحث هؤلاء عن الأصل الطهوري للإيمان المسيحي كما يوجد أو يدرك في الكلمة الإنجيلية. فالميتافيزيقا بحسب هذا الإدراك بدت فكرة مسبقة مأخوذة من مصدر آخر، ويكون على الإصلاح أن ينحيها عن المصدر الإلهي وكلمة الله بحيث تعبر الكلمة عن نفسها. وعندما قال عمانوئيل كانط إنه مضطر لوضع الفكر جانبًا ليفسح المجال للإيمان، فإنه كان يصنع برنامجًا راديكاليًا، ما رأى الإصلاحيون أنفسهم أفاقه الشاسعة.

لقد وضع الإيمان في العقل العملي، منكرًا علاقته بالواقع بشكل عام.

وجاءت المرحلة الثانية في القرنين التاسع عشر والعشرين. ومفكرها الأبرز هو أدولف فون هارناك وتلامذته الكبار. وعندما كنت طالبًا في سنوات الشباب كان هذا النوع من اللاهوت مؤثرًا أيضًا في الكاثوليكية. وقد اتخذت العملية في هذه المرحلة منطلقًا من كلام باسكال الذي أقام تمييز كبيرًا بين إله الفلاسفة، وإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وقد كانت محاضرتي الأولى بجامعة بون عام ١٩٥٩ عن هذا التطور. ولا أريد العودة هنا لتلك التفاصيل. لكنني أريد أن أنبه إلى ما هو الجديد في تلك المرحلة من «نزع الهلينية». كان قصد هارناك العودة إلى رسالة المسيح خالية من تعقيدات اللاهوت، ومن الهلينية: إن الرسالة الأولى للمسيح – بحسب هذا الإدراك – هي ذروة التطور الديني للبشرية. فقد وضع المسيح نهاية للاهوت العبادة لصالح الأخلاق. وفي المحصلة فإن المسيح هو أبو الرسالة الأخلاقية الإنسانية. لقد كان المراد التوفيق بين المسيحية المحررة من العناصر الفلسفية واللاهوتية ذات الطابع الفلسفي، لتقع في تناغم مع الإيمان

بالمسيح وألوهيته والثالوث الإلهي. وبذلك فإن الطريقة التفسيرية التاريخية النقدية للعهد الجديد أعادت للاهوت مكانته بالجامعة. فاللاهوت – عند هارناك – شديد الأهمية من الناحية التاريخية، ولذلك يجب أن يبقى «علميًا» ومن خلف هذا الإدراك أو هذا الفهم يبرز التحديد المحدث للعقل والعقلانية كما عبر كانط في نقداته. لكنه ازداد حدة بالتدريج بسبب تأثير العلوم الطبيعية. ذلك أن المفهوم الحديث للعقل يجمع بين عنصري: الأفلوطينية والتجريبية. وهي مقولة سادت في عصر التصنيع. وقد ترتبت على هذا التفسير نتيجتان: كل موضوع يخضع للرياضيات وللعناصر التجريبية هو موضوع علمي. والنتيجة الثانية أن هذا النزع للغطاء الفلسفي يتجاهل الله ويتجاهل الأخلاق، وما عادت العلوم الحديثة بناء على هذه النظرة ترتبط بذلك.

... ولننظر قبل الخاتمة في التطور الثالث وتطورات «نزع الهلينية» والذي يجري اليوم. في المرحلة الأولى قيل إن الهلينية هي مرحلة ينبغي تجاوزها، وفي المرحلة الثانية قيل بضرورة العودة للرسالة الصافية والبسيطة للمسيح وتجربته. وكلتا النقطتين تستحق نقاشا حاميا. فالعهد الجديد كتب باليونانية، ويحمل الروح اليونانية. والتصغير من هذا الأمر أو ذاك باسم العودة للعهدين من جانب المسيحيين يفقد المسيحية روحها الباحثة، وقدرتها حتى على اعتناق الحداثة.

ولنصل إلى الخاتمة. إن نقد العقل الحديث لا ينبغي أن يفهم باعتباره عودة إلى الوراء، إلى ما قبل عصر التنوير، ورفض منجزات الحداثة. فنحن نقر بمنجزات العلوم المتطورة وما جلبته للبشرية من خير وتقدم. وهكذا فلا ينبغي فهم دعوتنا باعتبارها أثرًا من الماضي، بل هي سبيل من سبل العقل وكيفية

وضعه موضع الحياة العملية. وفي الوقت الذي نقر فيه بإنجازات الحداثة ونقدر خدماتها للإنسانية، نرى الأخطار الصادرة عن المرجع ذاته، كما نرى أملاً كبيرًا في إمكانيات المراجعة والتفسير.

لابد أن نستشرف حماسًا أكبر في الخروج من التلقائيات والإرادويات، وإلا ضرب الدين، وضربت المعاني العميقة المرتبطة به. والذين كانوا يتجاوزون هم الذين عادوا يقرون بأن الدين ضروري اليوم. وقد رأى الغربيون من قبل أن العقل العملي والأشكال الفلسفية المبنية عليه هي الظاهرة العلمية من غير منازع. والذين يرون أن العقل ينبغي أن يعمى ويضعون الدين بمنزلة الثقافات الشعبية هؤلاء لا يستطيعون ممارسة حوار الثقافات. إن العقل العلمي الحديث يكون عليه أن يقبل البنى العقلانية الموضوعية للتربية بين العقل والإيمان، بين الروح والدين والله.

وأريد هنا أن أذكِّر بما قاله سقراط لفيدون، وكانت عدة مقولات خاطئة قد مرت في بداية حديثهما: سهل على أي أحد سمع مقولات فاسدة إلى هذا الحد، أن يبقى طيلة حياته لا داريًا ويسخر من الآخرين، لكنه يكون حينها قد حرم نفسه من سؤال حقيقة الوجود، وسيقاسي في حياته كثيرًا من وجوه سوء الفهم والتقصير. ولقد ظل الغرب طويلاً يتجنب فعلاً الكثير من الأسئلة الأساسية، تارة بحجة أنها ليست غربية، وطورا بأنها غربية أكثر من اللازم: وأن تتصرف بخلاف العقل بحسب مانويل الثاني – يعني أنك تتصرف بخلاف طبيعة الله. فلنقبل على الحوار وستظهر المشكلات تباعًا، ويمكن البحث عن علاجات رحبة ومشتركة لها، دونما إزعاج.

* هذه المحاضرة ألقاها الباب بنديكتوس السادس عشر بقاعة المحاضرات بجامعة بون في ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦، وقد اختصرت المقدمة وبعض التفاصيل بداخلها في الخاتمة لعدم تعلقها بالموضوع؛ وفيها يروي البابا بدء علاقته بجامعة بون (ألمانيا) عام ١٩٥٩ أستاذًا للاهوت الكاثوليكي.وفي الجامعة المذكورة كليتان إحداهما للاهوت الكاثوليكي والأخرى للاهوت البروتستانتي. وقد انشغل البابا في التمهيد للمحاضرة بالعلاقة مع الزملاء البروتستانت في ذلك الزمان.

** عادل تيودور خوري: من أصل لبناني، وهو أستاذ متقاعد بجامعة مونستر الآن. وقد بدأ حياته العلمية بعمل كبير عن «الجدالات البيزنطية ضد الإسلام في القرن التاسع الميلادي» وتابع نشراته للنصوص اللاهوتية اليونانية واللاتينية بشكل متقطع. وله أعمال كثيرة عن العلاقات الإسلامية – المسيحية، وعن الإسلام؛ منها عمل عن التسامح في الإسلام.

وقد كتب تفسيرًا للقرآن الكريم (بالألمانية) في اثنى عشر مجلدًا اختاره من أمهات كتب التفسير(*).

(*) نقلا عن جريدة المستقبل اللبنانية، السبت ١٦ سبتمبر ٢٠٠٦ – العدد ٢٣٨٨، الصفحة ١٩.

ثالثاً : نص خطاب أوباما إلى العالم الإسلامي

الخميس ٤ يونيو، ٢٠٠٩

فيما يلي نص الترجمة الرسمية المعدة سلفًا لخطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما إلى العالم الإسلامي، الذي ألقاه في الثانية ظهرًا من قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة.

إنه لمن دواعي شرفي أن أزور مدينة القاهرة الأزلية، حيث تستضيفني فيها مؤسستان مرموقتان للغاية إحداهما الأزهر الذي بقي لأكثر من ألف سنة منارة العلوم الإسلامية، بينما كانت جامعة القاهرة على مدى أكثر من قرن بمثابة منهل من مناهل التقدم في مصر. وهما معًا يمثلان حسن الاتساق والانسجام ما بين التقاليد والتقدم. وإنني ممتن لكم لحسن ضيافتكم ولحفاوة شعب مصر. كما أنني فخور بنقل أطيب مشاعر الشعب الأمريكي لكم مقرونة بتحية السلام من المجتمعات المحلية المسلمة في بلدي: «السلام عليكم».

إننا نلتقي في وقت يشوبه التوتر بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي وهو توتر تمتد جذوره إلى قوى تاريخية تتجاوز أي نقاش سياسي راهن. وتشمل العلاقة ما بين الإسلام والغرب قرونًا سادها حسن التعايش والتعاون كما تشمل هذه العلاقة صراعات وحروبًا دينية. وساهم الاستعمار خلال العصر الحديث في تغذية التوتر بسبب حرمان العديد من المسلمين من الحقوق والفرص، كما ساهمت في ذلك الحرب الباردة التي عوملت فيها كثير من البلدان ذات الأغلبية

المسلمة بلا حق، كأنها مجرد دول وكيلة لا يجب مراعاة تطلعاتها الخاصة. وعلاوة على ذلك حدا التغيير الكاسح الذي رافقته الحداثة والعولمة بالعديد من المسلمين إلى اعتبار الغرب معاديًا لتقاليد الإسلام،

لقد استغل المتطرفون الذين يمارسون العنف هذه التوترات في قطاع صغير من العالم الإسلامي بشكل فعال. ثم وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ واستمر هؤلاء المتطرفون في مساعيهم الرامية إلى ارتكاب أعمال العنف ضد المدنيين، الأمر الذي حدا بالبعض في بلدي إلى اعتبار الإسلام معاديًا لا محالة، ليس فقط لأمريكا وللبلدان الغربية وإنما أيضًا لحقوق الإنسان. ونتج عن ذلك مزيد من الخوف وعدم الثقة.هذا وما لم نتوقف عن تحديد مفهوم علاقاتنا المشتركة من خلال أوجه الاختلاف فيما بيننا فإننا سنساهم في تمكين أولئك الذين يزرعون الكراهية ويرجحونها على السلام ويروجون للصراعات ويرجحونها على التعاون الذي من شأنه أن يساعد شعوبنا على تحقيق الازدهار. هذه هي دائرة الارتياب والشقاق التي يجب علينا إنهاؤها.

لقد أتيتُ إلى هنا للبحث عن بداية جديدة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي، استنادًا إلى المصلحة المشتركة والاحترام المتبادل، وهي بداية مبنية على أساس حقيقة أن أمريكا والإسلام لا تعارضان ولا داعي أبدًا للتنافس فيما بينهما، بل أن لهما قواسم ومبادئ مشتركة يلتقيان عبرها، ألا وهي مبادئ العدالة والتقدم والتسامح وكرامة كل إنسان.

إنني أقوم بذلك إدراكًا مني بأن التغيير لا يحدث بين ليلة وضحاها. ولا

يمكن لخطاب واحد أن يلغي سنوات من عدم الثقة. كما لا يمكنني أن أقدم الإجابة عن كافة المسائل المعقدة التي أدت بنا إلى هذه النقطة. غير أنني على يقين من أنه يجب علينا - من أجل المضي قدمًا - أن نعبر بصراحة عما هو في قلوبنا، وعما لا يقال إلا وراء الأبواب المغلقة. كما يجب أن يتم بذل جهود مستديمة للاستماع إلى بعضنا البعض وللتعلم من بعضنا البعض والاحترام المتبادل والبحث عن أرضية مشتركة. وينص القرآن الكريم على ما يلي: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴾[1]. وهذا ما سوف أحاول بها في وسعي أن أفعله، وأن أقول الحقيقة بكل تواضع أمام المهمة التي نحن بصددها، اعتقادًا مني كل الاعتقاد أن المصالح المشتركة بيننا كبشر هي أقوى بكثير من القوى الفاصلة بيننا.

يعود جزء من اعتقادي هذا إلى تجربتي الشخصية. إنني مسيحي بينما كان والدي من أسرة كينية تشمل أجيالاً من المسلمين. ولما كنت صبيًا قضيت عدة سنوات في إندونيسيا، واستمعت إلى الأذان ساعات الفجر والمغرب. ولما كنت شابًا عملت في المجتمعات المحلية بمدينة شيكاغو حيث وجد الكثير من المسلمين في عقيدتهم روح الكرامة والسلام.

إنني أدرك بحكم دارستي للتاريخ أن الحضارة مدينة للإسلام الذي حمل معه في أماكن مثل جامعة الأزهر نورَ العلم عبر قرون عدة، الأمر الذي مهد الطريق أمام النهضة الأوروبية وعصر التنوير. ونجد أن روح الابتكار

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٧٠.

المجتمعات الإسلامية كانت وراء تطوير علم الجبر، وكذلك البوصلة المغناطيسية وأدوات الملاحة وفن الأقلام والطباعة بالإضافة إلى فهمنا لانتشار الأمراض وتوفير العلاج المناسب لها. حصلنا بفضل الثقافة الإسلامية على أروقة عظيمة وقمم مستدقة عالية الارتفاع، وكذلك على أشعار وموسيقى خالدة الذكر وفن الخط الراقي وأماكن التأمل السلمي. وأظهر الإسلام على مدى التاريخ قلبًا وقالبًا الفرص الكامنة في التسامح الديني والمساواة ما بين الأعراق.

أعلم كذلك أن الإسلام كان دائمًا جزءًا لا يتجزأ من قصة أمريكا حيث كان المغرب هو أول بلد اعترف بالولايات المتحدة الأمريكية. وبمناسبة قيام الرئيس الأمريكي الثاني جون أدامس عام ١٧٩٦ بالتوقيع على معاهدة طرابلس فقد كتب ذلك الرئيس أن «الولايات المتحدة لا تكنُّ أي نوع من العداوة تجاه قوانين أو ديانة المسلمين أو حتى راحتهم». منذ عصر تأسيس بلدنا ساهم المسلمون الأمريكان في إثراء الولايات المتحدة. لقد قاتلوا في حروبنا وخدموا في المناصب الحكومية ودافعوا عن الحقوق المدنية وأسسوا المؤسسات التجارية كما قاموا بالتدريس في جامعاتنا وتفوقوا في الملاعب الرياضية وفازوا بجوائز نوبل وبنوا أكثر عماراتنا ارتفاعًا وأشعلوا الشعلة الأولمبية. وعندما تم أخيرًا انتخاب أول مسلم أمريكي في الكونغرس قام ذلك النائب بأداء اليمين الدستورية مستخدمًا نفس النسخة من القرآن الكريم التي احتفظ بها أحد آبائنا المؤسسين توماس جيفرسون في مكتبته الخاصة.

إنني إذن تعرفت على الإسلام في قارات ثلاث قبل مجيئي إلى المنطقة التي

نشأ فيها الإسلام. ومن منطلق تجربتي الشخصية أستمدُّ اعتقادي بأن الشراكة بين أمريكا والإسلام يجب أن تستند إلى حقيقة الإسلام وليس إلى ما هو غير إسلامي، وأرى في ذلك جزءًا من مسؤوليتي كرئيس للولايات المتحدة حتى أتصدى للصور النمطية السلبية عن الإسلام أينما ظهرت.

لكن نفس المبدأ يجب أن ينطبق على صورة أمريكا لدى الآخرين، ومثلما لا تنطبق على المسلمين الصورة النمطية البدائية فإن الصورة النمطية البدائية للإمبراطورية التي لا تهتم إلا بمصالح نفسها لا تنطبق على أمريكا. كانت الولايات المتحدة أحد أكبر المناهل للتقدم عبر تاريخ العالم. وقمنا من ثورة ضد إحدى الإمبراطوريات، وأسست دولتنا على أساس مثال مفاده أن جميع البشر قد خلقوا سواسية كما سالت دماؤنا في الصراعات عبر القرون لإضفاء المعنى على هذه الكلمات بداخل حدودنا وفي مختلف أرجاء العالم. وقد ساهمت كافة الثقافات من كل أنحاء الكرة الأرضية في تكويننا، تكريسًا لمفهوم بالغ البساطة باللغة اللاتينية: من الكثير واحد.

لقد تم تعليق أهمية كبيرة على إمكانية انتخاب شخص من أصل أمريكي إفريقي يدعى باراك حسين أوباما إلى منصب الرئيس. ولكن قصتي الشخصية ليست فريدة إلى هذا الحد. ولم يتحقق حلم الفرص المتاحة للجميع بالنسبة لكل فرد في أمريكا، ولكن الوعد قائم بالنسبة لجميع من يصل إلى شواطئنا ويشمل ذلك ما يضاهي سبعة ملايين من المسلمين الأمريكان في بلدنا اليوم. ويحظى المسلمون الأمريكان بدخل ومستوى للتعليم يعتبران أعلى مما يحظى به معدل السكان.علاوة على ذلك لا يمكن فصل الحرية في أمريكا عن حرية إقامة

الشعائر الدينية. كما أن ذلك السبب وراء وجود مسجد في كل ولاية من الولايات المتحدة، ووجود أكثر من ١٢٠٠ مسجد داخل حدودنا. وأيضًا السبب وراء خوض الحكومة الأمريكية إجراءات المقاضاة من أجل صون حق النساء والفتيات في ارتداء الحجاب، ومعاقبة من يتجرأ على حرمانهن من ذلك الحق.

ليس هناك أي شك من أن الإسلام هو جزء لا يتجزأ من أمريكا. وأعتقد أن أمريكا تمثل التطلعات المشتركة بيننا جميعًا بغض النظر عن العرق أو الديانة أو المكانة الاجتماعية: ألا وهي تطلعات العيش في ظل السلام والأمن والحصول على التعليم والعمل بكرامة والتعبير عن المحبة التي نكنها لعائلاتنا ومجتمعاتنا وكذلك لربنا. هذه هي قواسمنا المشتركة وهي تمثل أيضًا آمال البشرية جمعاء.

يمثل إدراك أوجه الإنسانية المشتركة فيما بيننا بطبيعة الحال مجرد البداية لمهمتنا. إن الكلمات وحدها لا تستطيع سد احتياجات شعوبنا ولن نسد هذه الاحتياجات إلا إذا عملنا بشجاعة على مدى السنين القادمة وإذا أدركنا حقيقة أن التحديات التي نواجهها هي تحديات مشتركة وإذا أخفقنا في التصدي لها سوف يلحق ذلك الأذى بنا جميعًا. لقد تعلمنا من تجاربنا الأخيرة ما يحدث من إلحاق الضرر بالرفاهية في كل مكان إذا ضعف النظام المالي في بلد واحد. وإذا أصيب شخص واحد بالإنفلونزا فيعرض ذلك الجميع للخطر. وإذا سعى بلد واحد وراء امتلاك السلاح النووي فيزداد خطر وقوع هجوم نووي بالنسبة لكل الدول. وعندما يمارس المتطرفون العنف في منطقة جبلية واحدة يعرض ذلك الناس من وراء البحار للخطر. وعندما يُذبح الأبرياء في دارفور والبوسنة يسبب

ذلك وصمة في ضميرنا المشترك. هذا هو معنى التشارك في هذا العالم بالقرن الحادي والعشرين وهذه هي المسؤولية التي يتحملها كل منا تجاه الآخر كأبناء البشرية.

إنها مسؤولية تصعب مباشرتها، وكان تاريخ البشرية في كثير من الأحيان بمثابة سجل من الشعوب والقبائل التي قمعت بعضها البعض لخدمة تحقيق مصلحتها الخاصة. ولكن في عصرنا الحديث تؤدي مثل هذه التوجهات إلى إلحاق الهزيمة بالنفس. ونظرًا إلى الاعتماد الدولي المتبادل فأي نظام عالمي يعلي شعبًا أو مجموعة من البشر فوق غيرهم سوف يبوء بالفشل لا محالة. وبغض النظر عن أفكارنا حول أحداث الماضي فيجب ألا نصبح أبدًا سجناء لأحداث قد مضت. إنما يجب معالجة مشاكلنا بواسطة الشراكة كما يجب أن نحقق التقدم بصفة مشتركة. لا يعني ذلك بالنسبة لنا أن نفضل التغاضي عن مصادر التوتر، وفي الحقيقة فإن العكس هو الأرجح: يجب علينا مجابهة هذه التوترات بصفة مفتوحة. واسمحوا لي انطلاقًا من هذه الروح أن أتطرق بمنتهى الصراحة وأكبر قدر ممكن من البساطة إلى بعض الأمور المحددة التي أعتقد أنه يتعين علينا مواجهتها في نهاية المطاف بجهد مشترك.

إن **المسألة الأولى** التي يجب أن نجابهها هي التطرف العنيف بكافة أشكاله. وقد صرحت بمدينة أنقرة بكل وضوح أن أمريكا ليست ولن تكون أبدًا في حالة حرب مع الإسلام. وعلى أية حال سوف نتصدى لمتطرفي العنف الذين يشكلون تهديدًا جسيمًا لأمننا. والسبب هو أننا نرفض ما يرفضه أهل كافة المعتقدات: قتل الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال. ومن واجباتي كرئيس أن أتولى حماية الشعب الأمريكي.

يبين الوضع في أفغانستان أهداف أمريكا وحاجتنا إلى العمل المشترك. وقبل أكثر من سبع سنوات قامت الولايات المتحدة بملاحقة تنظيم القاعدة ونظام طالبان بدعم دولي واسع النطاق. لم نذهب إلى هناك باختيارنا وإنما بسبب الضرورة. إنني على وعي بالتساؤلات التي يطرحها البعض بالنسبة لأحداث ١١ سبتمبر، أو حتى تبريرهم لتلك الأحداث. ولكن دعونا نكون صرحاء: قام تنظيم القاعدة بقتل ما يضاهي ٣٠٠٠ شخص في ذلك اليوم. وكان الضحايا من الرجال والنساء والأطفال الأبرياء. ورغم ذلك اختارت القاعدة بلا ضمير قتل هؤلاء الأبرياء، وتباهت بالهجوم وتؤكد إلى الآن عزمها على ارتكاب القتل مجددًا وبأعداد ضخمة. إن هناك من ينتسبون للقاعدة في عدة بلدان وهم يسعون إلى توسعة نطاق أنشطتهم. وما أقوله ليس بآراء قابلة للنقاش، وإنما هي حقائق يجب معالجتها.

ولا بد أن تكونوا على علم بأننا لا نريد من جيشنا أن يبقى في أفغانستان ولا نسعى لإقامة قواعد عسكرية هناك. خسائرنا بين الشباب والشابات هناك تسبب لأمريكا بالغ الأذى. كما يسبب استمرار هذا النزاع تكاليف باهظة ومصاعب سياسية جمة. ونريد بكل سرور أن نرحب بكافة جنودنا وهم عائدون إلى الوطن، إذا استطعنا أن نكون واثقين من عدم وجود متطرفي العنف في كل من أفغانستان وباكستان الذين يحرصون على قتل أكبر عدد ممكن من الأمريكيين.ورغم ذلك كله لن تشهد أمريكا أي حالة من الضعف لإرادتها. ولاينبغي على أحد منا أن يتسامح مع أولئك المتطرفين. لقد مارسوا القتل في كثير من البلدان. لقد قتلوا أبناء مختلف العقائد ومعظم ضحاياهم من المسلمين.

إن أعمالهم غير متطابقة على الإطلاق مع كل من حقوق البشر وتقدم الأمم والإسلام. وينص القرآن الكريم على أن ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1] ولا شك أن العقيدة التي يتحلى بها أكثر من مليار مسلم تفوق عظمتها بشكل كبير الكراهية الضيقة التي يكنها البعض. إن الإسلام ليس جزءًا من المشكلة المتلخصة في مكافحة التطرف العنيف وإنما يجب أن يكون الإسلام جزءًا من حل هذه المشكلة.

علاوة على ذلك نعلم أن القوة العسكرية وحدها لن تكفي لحل المشاكل في كل من أفغانستان وباكستان. ولذلك وضعنا خطة لاستثمار ١.٥ مليار دولار سنويًا على مدى السنوات الخمس القادمة، لإقامة شراكة مع الباكستانيين لبناء المدارس والمستشفيات والطرق والمؤسسات التجارية، وكذلك توفير مئات الملايين لمساعدة النازحين. وهذا أيضًا السبب وراء قيامنا بتخصيص ما يربو على ٢.٨ مليار دولار لمساعدة الأفغان على تنمية اقتصادهم وتوفير خدمات يعتمد عليها الشعب.

اسمحوا لي أيضًا أن أتطرق إلى موضوع العراق. لقد اختلف الوضع هناك عن الوضع في أفغانستان، حيث وقع القرار بحرب العراق بصفة اختيارية مما أثار خلافات شديدة، سواء في بلدي أو في الخارج. ورغم اعتقادي بأن الشعب العراقي في نهاية المطاف هو الطرف الكاسب في معادلة التخلص من الطاغية

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

صدام حسين، إلا أنني أعتقد أيضًا أن أحداث العراق قد ذَكّرت أمريكا بضرورة استخدام الدبلوماسية لتسوية مشاكلنا كلما كان ذلك ممكنًا. وفي الحقيقة فإننا نستذكر كلمات أحد كبار رؤسائنا توماس جيفرسون الذي قال «إنني أتمنى أن تنمو حكمتنا بقدر ما تنمو قوتنا، وأن تعلمنا هذه الحكمة درسًا مفاده أن القوة ستزداد عظمة كلما قل استخدامها».

تتحمل أمريكا اليوم مسؤولية مزدوجة تتلخص في مساعدة العراق على بناء مستقبل أفضل وترك العراق للعراقيين. إنني أوضحت للشعب العراقي أننا لا نسعى لإقامة أية قواعد في العراق، أو لمطالبة العراق بأي من أراضيه أو موارده. يتمتع العراق بسيادته الخاصة به بمفرده. لذا أصدرت الأوامر بسحب الوحدات القتالية مع حلول شهر أغسطس القادم، ولذا سوف نحترم الاتفاق المبرم مع الحكومة العراقية المنتخبة بأسلوب ديمقراطي والذي يقتضي سحب القوات القتالية من المدن العراقية بحلول شهر يوليو، وكذلك سحب جميع قواتنا بحلول عام ٢٠١٢. سوف نساعد العراق على تدريب قواته الأمنية وتنمية اقتصاده. ولكننا سنقدم الدعم للعراق الآمن والموحد بصفتنا شريكًا له وليس بصفة الراعي.

وأخيرًا مثلما لا يمكن لأمريكا أن تتسامح مع عنف المتطرفين فلا يجب علينا أن نقوم بتغيير مبادئنا أبدًا. لقد ألحقت أحداث ١١ سبتمبر إصابة ضخمة ببلدنا حيث يمكن تفهم مدى الخوف والغضب الذي خلفته تلك الأحداث، ولكن في بعض الحالات أدى ذلك إلى القيام بأعمال تخالف مبادئنا. إننا نتخذ إجراءات محددة لتغيير الاتجاه. وقد قمت بمنع استخدام أساليب التعذيب من قِبل

الولايات المتحدة منعًا باتًا كما أصدرت الأوامر بإغلاق السجن في خليج جوانتانامو مع حلول مطلع العام القادم.

نحن في أمريكا سوف ندافع عن أنفسنا، محترمين في ذلك سيادة الدول وحكم القانون. وسوف نقوم بذلك في إطار الشراكة بيننا وبين المجتمعات الإسلامية التي يحدق بها الخطر أيضًا، لأننا سنحقق مستوى أعلى من الأمن في وقت أقرب إذا نجحنا بصفة سريعة في عزل المتطرفين مع عدم التسامح معهم داخل المجتمعات الإسلامية.

أما المصدر الرئيسي الثاني للتوتر الذي أود مناقشته فهو الوضع ما بين الإسرائيليين والفلسطينيين والعالم العربي. إن متانة الأواصر الرابطة بين أمريكا وإسرائيل معروفة على نطاق واسع. ولا يمكن قطع هذه الأواصر أبدًا، وهي تستند إلى علاقات ثقافية وتاريخية، وكذلك الاعتراف بأن رغبة اليهود في وجود وطن خاص لهم هي رغبة متأصلة في تاريخ مأساوي لا يمكن لأحد نفيه.

لقد تعرض اليهود على مر القرون للاضطهاد، وتفاقمت أحوال معاداة السامية في وقوع المحرقة التي لم يسبق لها عبر التاريخ أي مثيل. وإنني سوف أقوم غدًا بزيارة معسكر بوخنفالد الذي كان جزءًا من شبكة معسكرات الموت التي استخدمت لاسترقاق وتعذيب وقتل اليهود رميًا بالأسلحة النارية وتسميمًا بالغازات. لقد تم قتل ٦ ملايين من اليهود، يعني أكثر من إجمالي عدد اليهود بين سكان إسرائيل اليوم. إن نفي هذه الحقيقة هو أمر لا أساس له، وينم عن الجهل وبالغ الكراهية. كما أن تهديد إسرائيل بتدميرها أو تكرار الصور النمطية الحقيرة

عن اليهود هما أمران ظالمان للغاية ولا يخدمان إلا غرض استحضار تلك الأحدث الأكثر إيذاءً إلى أذهان الإسرائيليين، وكذلك منع حلول السلام الذي يستحقه سكان هذه المنطقة.

أما من ناحية أخرى فلا يمكن نفي أن الشعب الفلسطيني مسلمين ومسيحيين قد عانوا أيضًا في سعيهم إلى إقامة وطن خاص لهم. وقد تحمل الفلسطينيون آلام النزوح على مدى أكثر من ٦٠ سنة حيث ينتظر العديد منهم في الضفة الغربية وغزة والبلدان المجاورة لكي يعيشوا حياة يسودها السلام والأمن، هذه الحياة التي لم يستطيعوا عيشها حتى الآن. يتحمل الفلسطينيون الإهانات اليومية، صغيرة كانت أم كبيرة والتي هي ناتجة عن الاحتلال. وليس هناك أي شك من أن وضع الفلسطينيين لا يطاق. ولن تدير أمريكا ظهرها عن التطلعات المشروعة للفلسطينيين، ألا وهي تطلعات الكرامة ووجود الفرص ودولة خاصة بهم.لقد استمرت حالة الجمود لعشرات السنوات: شعبان لكل منهما طموحاته المشروعة، ولكل منهما تاريخ مؤلم يجعل من التراضي أمرًا صعب المنال. إن توجيه اللوم أمر سهل؛ إذ يشير الفلسطينيون إلى تأسيس دولة إسرائيل وما أدت إليه من تشريد للفلسطينيين، ويشير الإسرائيليون إلى العداء المستمر والاعتداءات التي يتعرضون لها داخل حدود إسرائيل وخارج هذه الحدود على مدى التاريخ. ولكننا إذا نظرنا إلى هذا الصراع من هذا الجانب أو من الجانب الآخر فإننا لن نتمكن من رؤية الحقيقة: لأن السبيل الوحيد للتوصل إلى تحقيق طموحات الطرفين يكون من خلال دولتين يستطيع فيهما الإسرائيليون والفلسطينيون أن يعيشوا في سلام وأمن.

إن هذا السبيل يخدم مصلحة إسرائيل ومصلحة فلسطين ومصلحة أمريكا، ولذلك سوف أسعى شخصيًا للوصول إلى هذه النتيجة، متحليًا بالقدر اللازم من الصبر الذي تقتضيه هذه المهمة. إن الالتزامات التي وافق عليها الطرفان بموجب خريطة الطريق هي التزامات واضحة. لقد آن الأوان من أجل إحلال السلام لكي يتحمل الجانبان مسؤولياتهما، ولكي نتحمل جميعنا مسؤولياتنا كذلك. يجب على الفلسطينيين أن يتخلوا عن العنف، إن المقاومة عن طريق العنف والقتل أسلوب خاطئ ولا يؤدي إلى النجاح. لقد عانى السود في أمريكا طوال قرون من الزمن من سوط العبودية ومن مهانة التفرقة والفصل بين البيض والسود، ولكن العنف لم يكن السبيل الذي مكنهم من الحصول على حقوقهم الكاملة والمتساوية، بل كان السبيل إلى ذلك إصرارهم وعزمهم السلمي على الالتزام بالمثل التي كانت بمثابة الركيزة التي اعتمد عليها مؤسسو أمريكا، وهذا هو ذات التاريخ الذي شاهدته شعوب كثيرة تشمل شعب جنوب أفريقيا وجنوب آسيا وأوروبا الشرقية وإندونيسيا.

وينطوي هذا التاريخ على حقيقة بسيطة ألا وهي أن طريق العنف طريق مسدود وأن إطلاق الصواريخ على الأطفال الإسرائيليين في مضاجعهم أو تفجير حافلة على متنها سيدات مسنات لا يعبر عن الشجاعة أو عن القوة ولا يمكن اكتساب سلطة التأثير المعنوي عن طريق مثل هذه الأعمال؛ إذ يؤدي هذا الأسلوب إلى التنازل عن هذه السلطة.

والآن على الفلسطينيين تركيز اهتمامهم على الأشياء التي يستطيعون إنجازها، ويجب على السلطة الفلسطينية تنمية قدرتها على ممارسة الحكم من

خلال مؤسسات تقدم خدمات للشعب وتلبي احتياجاته. إن تنظيم حماس يحظى بالدعم من قبل بعض الفلسطينيين، ولكنه يتحمل مسؤوليات كذلك، ويتعين على تنظيم حماس حتى يؤدي دوره في تلبية طموحات الفلسطينيين وتوحيد الشعب الفلسطيني أن يضع حدًا للعنف، وأن يعترف بالاتفاقات السابقة وأن يعترف بحق إسرائيل في البقاء.

وفي نفس الوقت يجب على الإسرائيليين الإقرار بأن حق فلسطين في البقاء هو حق لا يمكن إنكاره مثلما لا يمكن إنكار حق إسرائيل في البقاء. إن الولايات المتحدة لا تقبل مشروعية من يتحدثون عن إلقاء إسرائيل في البحر، كما أننا لا نقبل مشروعية استمرار المستوطنات الإسرائيلية. إن عمليات البناء هذه تنتهك الاتفاقات السابقة، وتقوض الجهود المبذولة لتحقيق السلام. لقد آن الأوان لكي تتوقف هذه المستوطنات.

كما يجب على إسرائيل أن تفي بالتزاماتها لتأمين تمكين الفلسطينيين من أن يعيشوا ويعملوا ويطوروا مجتمعهم. لأن أمن إسرائيل لا يتوفر عن طريق الأزمة الإنسانية في غزة التي تصيب الأسر الفلسطينية بالهلاك أو عن طريق انعدام الفرص في الضفة الغربية. إن التقدم في الحياة اليومية التي يعيشها الشعب الفلسطيني يجب أن يكون جزءًا من الطريق المؤدي للسلام، ويجب على إسرائيل أن تتخذ خطوات ملموسة لتحقيق مثل هذا التقدم.

وأخيرًا يجب على الدول العربية أن تعترف بأن مبادرة السلام العربية كانت بداية مهمة وأن مسؤولياتها لا تنتهي بهذه المبادرة، كما ينبغي عليها أن لا تستخدم الصراع بين العرب وإسرائيل لإلهاء الشعوب العربية عن مشاكلها

الأخرى، بل يجب أن تكون هذه المبادرة سببًا لحثهم على العمل لمساعدة الشعب الفلسطيني على تطوير مؤسساته التي سوف تعمل على مساندة الدولة الفلسطينية ومساعدة الشعب الفلسطيني على الاعتراف بشرعية إسرائيل واختيار سبيل التقدم بدلاً من السبيل الانهزامي الذي يركز الاهتمام على الماضي

سوف تنسق أمريكا سياساتنا مع سياسات أولئك الذين يسعون من أجل السلام، وسوف تكون تصريحاتنا التي تصدر علنًا هي ذات التصريحات التي نعبر عنها في اجتماعاتنا الخاصة مع الإسرائيليين والفلسطينيين والعرب إننا لا نستطيع أن نفرض السلام ويدرك كثيرون من المسلمين في قرارة أنفسهم أن إسرائيل لن تختفي، وبالمثل يدرك الكثيرون من الإسرائيليين أن دولة فلسطينية أمر ضروري. لقد آن الأوان للقيام بعمل يعتمد على الحقيقة التي يدركها الجميع.لقد تدفقت دموع الكثيرين وسالت دماء الكثيرين وعلينا جميعًا تقع مسئولية العمل من أجل ذلك اليوم الذي تستطيع فيه أمهات الإسرائيليين والفلسطينيين مشاهدة أبنائهم يتقدمون في حياتهم دون خوف وعندما تصبح الأرض المقدسة التي نشأت فيها الأديان الثلاثة العظيمة مكانًا للسلام الذي أراده الله لها، وعندما تصبح مدينة القدس وطنًا دائمًا لليهود والمسيحيين والمسلمين المكان الذي يستطيع فيه أبناء سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يتعايشوا في سلام، تمامًا كما ورد في قصة الإسراء عندما أقام الأنبياء موسى وعيسى ومحمد سلام الله عليهم الصلاة معًا.

إن المصدر الثالث للتوتر يتعلق باهتمامنا المشترك بحقوق الدول ومسئولياتها بشأن الأسلحة النووية. لقد كان هذا الموضوع مصدرًا للتوتر الذي

طرأ مؤخرًا على العلاقات بين الولايات المتحدة وجمهورية إيران الإسلامية التي ظلت لسنوات كثيرة تعبر عن هويتها من خلال موقفها المناهض لبلدي. والتاريخ بين بلدينا تاريخ عاصف بالفعل؛ إذ لعبت الولايات المتحدة في إبان فترة الحرب الباردة دورًا في الإطاحة بالحكومة الإيرانية المنتخبة بأسلوب ديمقراطي. أما إيران فإنها لعبت دورًا منذ قيام الثورة الإسلامية في أعمال اختطاف الرهائن وأعمال العنف ضد القوات والمدنيين الأمريكيين. هذا التاريخ تاريخ معروف. لقد أعلنت بوضوح لقادة إيران وشعب إيران أن بلدي بدلاً من أن يتقيد بالماضي يقف مستعدًا للمضي قدمًا. والسؤال المطروح الآن لا يتعلق بالأمور التي تناهضها إيران ولكنه يرتبط بالمستقبل الذي تريد إيران أن تبنيه

إن التغلب على فقدان الثقة الذي استمر لعشرات السنوات سوف يكون صعبًا ولكننا سوف نمضي قدمًا مسلحين بالشجاعة واستقامة النوايا والعزم. سيكون هناك الكثير من القضايا التي سيناقشها البلدان ونحن مستعدون للمضي قدمًا دون شروط مسبقة على أساس الاحترام المتبادل. إن الأمر الواضح لجميع المعنيين بموضوع الأسلحة النووية أننا قد وصلنا إلى نقطة تتطلب الحسم، وهي ببساطة لا ترتبط بمصالح أمريكا، ولكنها ترتبط بمنع سباق للتسلح النووي قد يدفع بالمنطقة إلى طريق محفوف بالمخاطر ويدمر النظام العالمي لمنع انتشار الأسلحة النووية.

إنني مدرك أن البعض يعترض على حيازة بعض الدول لأسلحة لا توجد مثلها لدى دول أخرى، ولا ينبغي على أية دولة أن تختار الدول التي تملك أسلحة نووية، وهذا هو سبب قيامي بالتأكيد مجددًا وبشدة على التزام أمريكا

بالسعي من أجل عدم امتلاك أي من الدول للأسلحة النووية وينبغي على أية دولة بما في ذلك إيران أن يكون لها حق الوصول إلى الطاقة النووية السلمية إذا امتثلت لمسؤولياتها بموجب معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية وهذا الالتزام هو التزام جوهري في المعاهدة ويجب الحفاظ عليه من أجل جميع الملتزمين به

إن الموضوع الرابع الذي أريد أن أتطرق إليه هو الديمقراطية، إن نظام الحكم الذي يسمع صوت الشعب ويحترم حكم القانون وحقوق جميع البشر هو النظام الذي أؤمن به. وأعلم أن جدلاً حول تعزيز الديمقراطية وحقوق جميع البشر كان يدور خلال السنوات الأخيرة، وأن جزءًا كبيرًا من هذا الجدل كان متصلاً بالحرب في العراق. اسمحوا لي أن أتحدث بوضوح وأقول ما يلي: لا يمكن لأية دولة ولا ينبغي على أية دولة أن تفرض نظامًا للحكم على أية دولة أخرى.ومع ذلك لن يقلل ذلك من التزامي تجاه الحكومات التي تعبر عن إرادة الشعب، حيث يتم التعبير عن هذا المبدأ في كل دولة وفقًا لتقاليد شعبها. إن أمريكا لا تفترض أنها تعلم ما هو أفضل شيء بالنسبة للجميع، كما أننا لا نفترض أن تكون نتائج الانتخابات السلمية هي النتائج التي نختارها، ومع ذلك يلازمني اعتقاد راسخ أن جميع البشر يتطلعون لامتلاك قدرة التعبير عن أفكارهم وآرائهم في أسلوب الحكم المتبع في بلدهم ويتطلعون للشعور بالثقة في حكم القانون وفي الالتزام بالعدالة والمساواة في تطبيقه، ويتطلعون كذلك لشفافية الحكومة وامتناعها عن نهب أموال الشعب ويتطلعون لحرية اختيار طريقهم في الحياة. إن هذه الأفكار ليست أفكارًا أمريكية فحسب، بل هي حقوق إنسانية وهي لذلك الحقوق التي سوف ندعمها في كل مكان.

لا يوجد طريق سهل ومستقيم لتلبية هذا الوعد، ولكن الأمر الواضح بالتأكيد هو أن الحكومات التي تحمي هذه الحقوق هي في نهاية المطاف الحكومات التي تتمتع بقدر أكبر من الاستقرار والنجاح والأمن. إن قمع الأفكار لا ينجح أبدًا في القضاء عليها. إن أمريكا تحترم حق جميع من يرفعون أصواتهم حول العالم للتعبير عن آرائهم بأسلوب سلمي يراعي القانون، حتى لو كانت آراؤهم مخالفة لآرائنا وسوف نرحب بجميع الحكومات السلمية المنتخبة، شرط أن تحترم جميع أفراد الشعب في ممارستها للحكم. هذه النقطة لها أهميتها لأن البعض لا ينادون بالديمقراطية إلا عندما يكونون خارج مراكز السلطة ولا يرحمون الغير في ممارساتهم القمعية لحقوق الآخرين عند وصولهم إلى السلطة. إن الحكومة التي تتكون من أفراد الشعب وتدار بواسطة الشعب هي المعيار الوحيد لجميع من يشغلون مراكز السلطة بغض النظر عن المكان الذي تتولى فيه مثل هذه الحكومة ممارسة مهامها؛ إذ يجب على الحكام أن يمارسوا سلطاتهم من خلال الاتفاق في الرأي وليس عن طريق الإكراه ويجب على الحكام أن يحترموا حقوق الأقليات وأن يعطوا مصالح الشعب الأولوية على مصالح الحزب الذي ينتمون إليه.

أما الموضوع الخامس الذي يجب علينا الوقوف أمامه معًا فهو موضوع الحرية الدينية.

إن التسامح تقليد عريق يفخر به الإسلام. لقد شاهدت بنفسي هذا التسامح عندما كنت طفلاً في إندونيسيا؛ إذ كان المسيحيون في ذلك البلد الذي يشكل فيه المسلمون الغالبية يمارسون طقوسهم الدينية بحرية. إن روح التسامح

التي شاهدتها هناك هي ما نحتاجه اليوم؛ إذ يجب أن تتمتع الشعوب في جميع البلدان بحرية اختيار العقيدة وأسلوب الحياة القائم على ما تمليه عليهم عقولهم وقلوبهم وأرواحهم بغض النظر عن العقيدة التي يختارونها لأنفسهم لأن روح التسامح هذه ضرورية لازدهار الدين. ومع ذلك تواجه روح التسامح هذه تحديات مختلفة. ثمة توجه في بعض أماكن العالم الإسلامي ينزع إلى تحديد قوة عقيدة الشخص وفقًا لموقفه الرافض لعقيدة الآخر. إن التعددية الدينية هي ثروة يجب الحفاظ عليها ويجب أن يشمل ذلك الموارنة في لبنان أو الأقباط في مصر ويجب إصلاح خطوط الانفصال في أوساط المسلمين كذلك، لأن الانقسام بين السنيين والشيعيين قد أدى إلى عنف مأساوي ولا سيما في العراق.

إن الحرية الدينية هي الحرية الأساسية التي تمكن الشعوب من التعايش. ويجب علينا دائما أن نفحص الأساليب التي نتبعها لحماية هذه الحرية، فالقواعد التي تنظم التبرعات الخيرية في الولايات المتحدة - على سبيل المثال - أدت إلى تصعيب تأدية فريضة الزكاة بالنسبة للمسلمين، وهذا هو سبب التزامي بالعمل مع الأمريكيين المسلمين لضمان تمكينهم من تأدية فريضة الزكاة. وبالمثل من الأهمية بمكان أن تمتنع البلدان الغربية عن وضع العقبات أمام المواطنين المسلمين لمنعهم من التعبير عن دينهم على النحو الذي يعتبرونه مناسبًا، فعلى سبيل المثال عن طريق فرض الثياب التي ينبغي على المرأة المسلمة أن ترتديها. إننا ببساطة لا نستطيع التظاهر بالليبرالية عن طريق التستر على معاداة أي دين. ينبغي أن يكون الإيمان عاملاً للتقارب فيما بيننا، ولذلك نعمل الآن على تأسيس مشاريع جديدة تطوعية في أمريكا من شأنها التقريب فيما بين المسيحيين

والمسلمين واليهود. إننا لذلك نرحب بالجهود المماثلة لمبادرة جلالة الملك عبد الله المتمثلة في حوار الأديان، كما نرحب بالموقف الريادي الذي اتخذته تركيا في تحالف الحضارات. إننا نستطيع أن نقوم بجهود حول العالم لتحويل حوار الأديان إلى خدمات تقدمها الأديان يكون من شأنها بناء الجسور التي تربط بين الشعوب وتؤدي بهم إلى تأدية أعمال تدفع إلى الأمام عجلة التقدم لجهودنا الإنسانية المشتركة، سواء كان ذلك في مجال مكافحة الملاريا في أفريقيا أو توفير الإغاثة في أعقاب كارثة طبيعية.

إن **الموضوع السادس** الذي أريد التطرق إليه هو موضوع حقوق المرأة. أعلم أن الجدل يدور حول هذا الموضوع وأرفض الرأي الذي يعبر عنه البعض في الغرب ويعتبر المرأة التي تختار غطاءً لشعرها أقل شأنا من غيرها، ولكنني أعتقد أن المرأة التي تحرم من التعليم تحرم كذلك من المساواة. إن البلدان التي تحصل فيها المرأة على تعليم جيد هي غالبًا بلدان تتمتع بقدر أكبر من الرفاهية، وهذا ليس من باب الصدفة. اسمحوا لي أن أتحدث بوضوح: إن قضايا مساواة المرأة ليست ببساطة قضايا للإسلام وحده، لقد شاهدنا بلدانًا غالبية سكانها من المسلمين مثل تركيا وباكستان وبنجلادش وإندونيسيا تنتخب المرأة لتولي قيادة البلد. وفي نفس الوقت يستمر الكفاح من أجل تحقيق المساواة للمرأة في بعض جوانب الحياة الأمريكية وفي بلدان العالم. ولذلك سوف تعمل الولايات المتحدة مع أي بلد غالبية سكانه من المسلمين من خلال شراكة لدعم توسيع برامج محو الأمية للفتيات ومساعدتهن على السعي في سبيل العمل عن طريق توفير التمويل الأصغر الذي يساعد الناس على تحقيق أحلامهم.

باستطاعة بناتنا تقديم مساهمات إلى مجتمعاتنا تتساوى مع ما يقدمه لها أبناؤنا، وسوف يتم تحقيق التقدم في رفاهيتنا المشتركة من خلال إتاحة الفرصة لجميع الرجال والنساء لتحقيق كل ما يستطيعون تحقيقه من إنجازات. أنا لا أعتقد أن على المرأة أن تسلك ذات الطريق الذي يختاره الرجل لكي تحقق المساواة معه، كما أحترم كل امرأة تختار ممارسة دور تقليدي في حياتها ولكن هذا الخيار ينبغي أن يكون للمرأة نفسها.

وأخيرًا أريد أن أتحدث عن التنمية الاقتصادية وتنمية الفرص.أعلم أن الكثيرين يشاهدون تناقضات في مظاهر العولمة لأن شبكة الإنترنت وقنوات التليفزيون لديها قدرات لنقل المعرفة والمعلومات، ولديها كذلك قدرات لبث مشاهد جنسية منفرة وفظة وعنف غير عقلاني، وباستطاعة التجارة أن تأتي بثروات وفرص جديدة ولكنها في ذات الوقت تحدث في المجتمعات اختلالات وتغييرات كبيرة، وتأتي مشاعر الخوف في جميع البلدان حتى في بلدي مع هذه التغييرات. وهذا الخوف هو خوف من أن تؤدي الحداثة إلى فقدان السيطرة على خياراتنا الاقتصادية وسياساتنا، والأهم من ذلك على هوياتنا، وهي الأشياء التي نعتز بها في مجتمعاتنا وفي أسرنا وفي تقاليدنا وفي عقيدتنا.

ولكني أعلم أيضًا أن التقدم البشري لا يمكن إنكاره، فالتناقض بين التطور والتقاليد ليس أمرًا ضروريًا؛ إذ تمكنت بلدان مثل اليابان وكوريا الجنوبية من تنمية أنظمتها الاقتصادية والحفاظ على ثقافتها المتميزة في ذات الوقت. وينطبق ذلك على التقدم الباهر الذي شاهده العالم الإسلامي من كوالالمبور إلى دبي. لقد أثبتت المجتمعات الإسلامية منذ قديم الزمان وفي عصرنا الحالي أنها تستطيع أن

تتبوأ مركز الطليعة في الابتكار والتعليم.وهذا أمر مهم؛ إذ لا يمكن أن تعتمد أية إستراتيجية للتنمية على الثروات المستخرجة من تحت الأرض، ولا يمكن إدامة التنمية مع وجود البطالة في أوساط الشباب. لقد استمتع عدد كبير من دول الخليج بالثراء المتولد عن النفط، وتبدأ بعض هذه الدول الآن بالتركيز على قدر أعرض من التنمية، ولكن علينا جميعًا أن ندرك أن التعليم والابتكار سيكونان مفتاحًا للثروة في القرن الواحد والعشرين. إنني أؤكد على ذلك في بلدي، كانت أمريكا في الماضي تركز اهتمامها على النفط والغاز في هذا الجزء من العالم، ولكننا نسعى الآن للتعامل مع أمور تشمل أكثر من ذلك.

فيما يتعلق بالتعليم سوف نتوسع في برامج التبادل ونرفع من عدد المنح الدراسية مثل تلك التي أتت بوالدي إلى أمريكا، وسوف نقوم في نفس الوقت بتشجيع عدد أكبر من الأمريكيين على الدراسة في المجتمعات الإسلامية وسوف نوفر للطلاب المسلمين الواعدين فرصًا للتدريب في أمريكا، وسوف نستثمر في سبل التعليم الافتراضي للمعلمين والتلاميذ في جميع أنحاء العالم عبر الفضاء الإلكتروني، وسوف نستحدث شبكة إلكترونية جديدة لتمكين المراهقين والمراهقات في ولاية كنساس من الاتصال المباشر مع نظرائهم في القاهرة.

وفيما يتعلق بالتنمية الاقتصادية سوف نستحدث هيئة جديدة من رجال الأعمال المتطوعين لتكوين شراكة مع نظرائهم في البلدان التي يشكل فيها المسلمون أغلبية السكان، وسوف أستضيف مؤتمر قمة لأصحاب المشاريع المبتكرة هذا العام لتحديد كيفية تعميق العلاقات بين الشخصيات القيادية في مجال العمل التجاري والمهني والمؤسسات وأصحاب المشاريع الابتكارية

الاجتماعية في الولايات المتحدة وفي المجتمعات الإسلامية في جميع أنحاء العالم.

وفيما يتعلق بالعلوم والتكنولوجيا، سوف نؤسس صندوقًا ماليًا جديدًا لدعم التنمية والتطور التكنولوجي في البلدان التي يشكل فيها المسلمون غالبية السكان، وللمساهمة في نقل الأفكار إلى السوق حتى تستطيع هذه البلدان استحداث فرص للعمل، وسوف نفتتح مراكز للتفوق العلمي في أفريقيا والشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا، وسوف نعين موفدين علميين للتعاون في برامج من شأنها تطوير مصادر جديدة للطاقة واستحداث فرص خضراء للعمل لا تضر بالبيئة وسبل لترقيم السجلات وتنظيف المياه وزراعة محاصيل جديدة.

واليوم أعلن عن جهود عالمية جديدة مع منظمة المؤتمر الإسلامي للقضاء على مرض شلل الأطفال، وسوف نسعى من أجل توسيع الشراكة مع المجتمعات الإسلامية لتعزيز صحة الأطفال والأمهات. يجب إنجاز جميع هذه الأمور عن طريق الشراكة. إن الأمريكيين مستعدون للعمل مع المواطنين والحكومات ومع المنظمات الأهلية والقيادات الدينية والشركات التجارية والمهنية في المجتمعات الإسلامية حول العالم من أجل مساعدة شعوبنا في مساعيهم الرامية لتحقيق حياة أفضل.

إن معالجة الأمور التي وصفتها لن تكون سهلة ولكننا نتحمل معًا مسؤولية ضم صفوفنا والعمل معًا نيابة عن العالم الذي نسعى من أجله، وهو عالم لا يهدد فيه المتطرفون شعوبنا، عالم تعود فيه القوات الأمريكية إلى ديارها، عالم ينعم فيه الفلسطينيون والإسرائيليون بالأمان في دولة لكل منهم، وعالم تستخدم فيه الطاقة النووية لأغراض سلمية وعالم تعمل فيه الحكومات على خدمة المواطنين،

وعالم تحظى فيه حقوق جميع البشر بالاحترام. هذه هي مصالحنا المشتركة، وهذا هو العالم الذي نسعى من أجله والسبيل الوحيد لتحقيق هذا العالم هو العمل معًا.

أعلم أن هناك الكثيرون من المسلمين وغير المسلمين الذين تراودهم الشكوك حول قدرتنا على استهلال هذه البداية، وهناك البعض الذين يسعون إلى تأجيج نيران الفرقة والانقسام، والوقوف في وجه تحقيق التقدم، ويقترح البعض أن الجهود المبذولة في هذا الصدد غير مجدية، ويقولون إن الاختلاف فيما بيننا أمر محتم وإن الحضارات سوف تصطدم حتمًا. وهناك الكثيرون كذلك الذين يتشككون ببساطة في إمكانية تحقيق التغيير الحقيقي، فالمخاوف كثيرة وانعدام الثقة كبير، ولكننا لن نتقدم أبدًا إلى الأمام إذا اخترنا التقيد بالماضي.

إن الفترة الزمنية التي نعيش فيها جميعًا مع بعضنا البعض في هذا العالم هي فترة قصيرة، والسؤال المطروح علينا هو هل سنركز اهتمامنا خلال هذه الفترة الزمنية على الأمور التي تفرق بيننا أم سنلتزم بجهود مستديمة للوصول إلى موقف مشترك وتركيز اهتمامنا على المستقبل الذي نسعى إليه من أجل أبنائنا واحترام كرامة جميع البشر. هذه الأمور ليست أمورًا سهلة. إن خوض الحروب أسهل من إنهائها، كما أن توجيه اللوم للآخرين أسهل من أن ننظر إلى ما يدور في أعماقنا، كما أن ملاحظة الجوانب التي نختلف فيها مع الآخرين أسهل من العثور على الجوانب المشتركة بيننا. ولكل دين من الأديان قاعدة جوهرية تدعونا لأن نعامل الناس مثلما نريد منهم أن يعاملونا، وتعلو هذه الحقيقة على البلدان والشعوب، وهي عقيدة ليست بجديدة وهي ليست عقيدة السود أو البيض أو

السمر، وليست هذه العقيدة مسيحية أو مسلمة أو يهودية، هي عقيدة الإيمان الذي بدأت نبضاتها في مهد الحضارة والتي لا زالت تنبض اليوم في قلوب آلاف الملايين من البشر، هي الإيمان بالآخرين: الإيمان الذي أتى بي إلى هنا اليوم.

إننا نملك القدرة على تشكيل العالم الذي نسعى من أجله ولكن يتطلب ذلك منا أن نتحلى بالشجاعة اللازمة لاستحداث هذه البداية الجديدة، آخذين بعين الاعتبار ما جاء في القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[1] ونقرأ في التلمود ما يلي: «إن الغرض من النص الكامل للتوراة هو تعزيز السلام». ويقول لنا الكتاب المقدس: «هنيئًا لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعونَ».

باستطاعة شعوب العالم أن تعيش معا في سلام. إننا نعلم أن هذه رؤية الرب وعلينا الآن أن نعمل على الأرض لتحقيق هذه الرؤية. شكرًا لكم والسلام عليكم.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

رابعًا: شركة «بلاك ووتر».. تقود حملة صليبية في العراق في القرن الحادي والعشرين

* نشرت جريدة الأهرام في عددها الصادر بتاريخ ٧ من أغسطس ٢٠٠٩ ضمن «أخبار العالم» هذا الخبر تحت عنوان: «مفاجآت صاعقة في قضية شركة الأمن الأمريكية: «بلاك ووتر»: تورطت في جرائم قتل وإبادة وتهريب أسلحة للعراق». جاء فيه:

«شهدت محاكمة إريك برينس مؤسس شركة «بلاك ووتر» الأمريكية الخاصة للأمن عدة مفاجآت مثيرة، فعلى الرغم من أن برينس يواجه اتهامات بالقتل وتهريب السلاح والقتل المتعمد للمدنيين، إلا أن اثنين من العاملين السابقين في الشركة كشفا عن جرائم أكثر خطورة تورط فيها إريك رئيس الشركة التي تتولى حماية الدبلوماسيين الأمريكيين في العراق من خلال متعاقدين مدنيين (مرتزقة). وقال العاملان إن برينس قتل أو سهل قتل أشخاص كانوا يتعاونون مع المحققين الفيدراليين الأمريكيين الذين كانوا يحققون في جرائم وتجاوزات الشركة. بل أكدا أيضًا أن برينس يعتبر نفسه «**فارسًا صليبيًا**» مهمته الرئيسية هي تخليص العالم من المسلمين والإسلام. وأشارت المذكرة إلى أن الشاهدين أكدا أن الشركة شجعت وكافأت كل من يقتل عراقيًا، وتعاملت مع العراقيين بازدراء واستخدمت ألفاظًا عنصرية تحط من قدرهم. وأضاف الشاهدان أن مسئولي الشركة كانوا يعلنون أمام الجميع أنهم ذاهبون للعراق لقتل العراقيين، واعتبار ذلك شكلاً من أشكال الترفيه. كما أكدا أن برينس كان

حريصًا على تعيين أشخاص ينتهجون نفس أفكاره للعمل بالعراق، حيث يؤمنون بتفوق المسيحية وينتهزون كل فرصة ممكنة لقتل المدنيين العراقيين، وكانوا يعتبرون أنفسهم «فرسان المعبد» الذين شاركوا في الحملات الصليبية. وفي شهادة قانونية مكتوبة تحت القسم تم إيداعها في إحدى المحاكم الأمريكية ضمن وثائق تتكون من ٧٠ صفحة قدمها محامون أمريكيون يمثلون أسر ضحايا عراقيين للشركة قال الموظفان وأحدهما من مشاة البحرية السابقين (المارينز) إن الشركة قامت بعمليات تهريب أسلحة إلى العراق بصورة غير قانونية عبر الطائرات الخاصة بها، وأنها جنت أرباحًا من ذلك. وقال أحد الشاهدين إن الأسلحة المهربة كانت توضع في صناديق أطعمة الكلاب، وغالبًا ما كان يتم تهريبها لداخل العراق على متن الطائرة الخاصة برئيس الشركة، وأن العاملين ببلاك ووتر كانوا يستخدمون قذائف ومتفجرات محظورة دوليًا لتحقيق أكبر قدر ممكن من الدمار بين العراقيين، بالإضافة إلى تهرب برينس من الضرائب. كما أشار الشاهدان إلى أن العاملين بالشركة كانوا يتفاخرون بإراقة دماء المدنيين العراقيين ويتعاطون المنشطات، ناهيك عن استغلالهم للأطفال في أنشطة الدعارة. واتهما رئيس الشركة وكبار المديرين التنفيذيين بتدمير أشرطة فيديو ورسائل ألكترونية ووثائق أخرى تدينهم وأنهم تعمدوا خداع وزارة الخارجية الأمريكية والهيئات الفيدارلية الأخرى.

وتم حجب اسمي الشاهدين اللذين أعربا عن مخاوفهما من تعرضهما لعملية انتقام من جانب الشركة. وقد أدليا بهذه الشهادة المكتوبة تحت القسم وفقًا لقانون يعرضهما للمساءلة في حالة الإدلاء بمعلومات خاطئة. وذكرت

مجلة «نيشين» الأمريكية أن فريق الدفاع عن بلاك ووتر طالب المحكمة وهي في ولاية فيرجينيا برفض القضية التي رفعها بعض العراقيين وهي واحدة من عدة قضايا تتهم الشركة بارتكاب جرائم حرب وجرائم أخرى. وأكد المحامون أن موكليهم يعملون بإخلاص لخدمة عملاء الشركة في العراق وهي وزارة الخارجية الأمريكية.

وكانت أشهر مذابح بلاك ووتر ضد العراقيين قد وقعت يوم ١٦ سبتمبر ٢٠٠٧ عندما قتل مسلحوها ١٧ مدنيًا عراقيًا غير مسلحين ودون أن يمثلوا أي تهديد في ميدان ساحة النسور في بغداد».

«بلاك ووتر».. جرائم المستنقع الداكن

* ونشرت الأهرام في ١٦ من أغسطس ٢٠٠٩ تقريرًا خارجيًا تحت عنوان: «اسمها «الأسود» يعكس ممارستها المتطرفة: «بلاك ووتر».. جرائم المستنقع الداكن». جاء فيه:

«هل هي مجرد شركة للأمن الخاص أم لتوريد المرتزقة؟

تساؤلات كثيرة أثارتها المحاكمة الأمريكية لشركة «بلاك ووتر» للأمن الخاص حول نشاط الشركة المثير للجدل بالعراق، وما ارتكبته من جرائم دامية هناك على مدى خمس سنوات، تولت خلالها مهمة تأمين الدبلوماسيين والمنشآت الدبلوماسية الأمريكية في العراق، كما أنها تثير أيضًا التساؤلات حول مدى علاقة أنشطة هذه الشركة بذلة لسان الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش قبل سنوات قليلة – والتي اعتذر عنها لاحقًا – عندما اعتبر غزوه للعراق «حملة

صليبية» جديدة. الغريب في الأمر أن القانون الأمريكي يسمح بالتعامل مع مثل هذه الشركات وتخصيص ملايين الدولارات لتشغيلها، إلا أنها فوق القانون فليس من حق أي جهة مساءلتها أو فرض أي رقابة على المتعاقدين معها من مرتزقة!

لم تكن واقعة مقتل ١٧ مدنيًا عراقيًا وإصابة ٢٠ آخرين على أيدي عناصر شركة «بلاك ووتر» للأمن الخاص بميدان «النسور» العراقي عام ٢٠٠٧ سوى القشة التي قصمت ظهر البعير، ودفعت العراقيين للتمسك بحقهم في إخراج عناصر بلاك ووتر من أراضيهم وتجريدهم من الحصانة التي تمتعوا بها على مدى سنوات داخل العراق. لتكشف هذه الواقعة عن سلسلة من الأحداث المشابهة التي تورط بها المرتزقة العاملين لصالح «بلاك ووتر»، فهذه العناصر المسلحة القادمة من مختلف أنحاء العالم اتفقت على مبدأ واحد «اضرب أولاً واسأل ثانيًا». ووقف الجميع «أمريكيون وعراقيون» مكتوفي الأيدي أمام هذه الأحداث الدامية، يرجعونها تارة لحق هذه العناصر في الدفاع عن النفس بالشكل المناسب، ويعللونها تارة أخرى بما يتمتعون به من حصانة ضد المساءلة. وبمجرد إنهاء السلطات العراقية عمل بلاك ووتر على أراضيها، سارعت نحو ٦٠ أسرة عراقية لرفع قضية ضد الشركة تتهم عناصرها بقتل أحبائها بدون وجه حق.

ومن ثم انطلقت إفادات الشهود لتكشف عن الكثير من الاتهامات المثيرة للدهشة، على رأسها أن مؤسس الشركة ورئيسها المستقيل «إريل برينس» طالما **اعتبر نفسه فارسًا صليبيًا**، ولم يكن يستعين إلا بجنود مرتزقة يعتنقون نفس

أفكاره ويعرفون جيدًا أن مهمتهم الرئيسة في العراق هي القضاء على الإسلام والمسلمين. إضافة إلى تهريبه للأسلحة المحظورة دوليًا للعراق لتحقيق أكبر قدر ممكن من الدمار والخسائر البشرية، واستخدام جنوده للعقاقير المنشطة غير المشروعة واستغلال الأطفال العراقيين في أنشطة الرذيلة.

الحقائق تؤكد أن مؤسس «بلاك ووتر» وكل مدرائها خدموا في الإدارة الأمريكية السابقة تحت رئاسة بوش بشكل أو بآخر، فإريك برينس رئيس الشركة ومؤسسها عمل من قبل كقائد في البحرية الأمريكية، كما تدرب في البيت الأبيض خلال فترة رئاسة بوش، وهو من أبرز مؤيدي وممولي الحزب الجمهوري. أما «كوفر بلاك» نائب رئيس الشركة الحالي فقد شغل من قبل منصب مدير إدارة مكافحة الشغب بالمخابرات الأمريكية خلال فترة اعتداءات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كما شغل منصب منسق مكافحة الإرهاب بوزارة الخارجية الأمريكية من ديسمبر ٢٠٠٢ وحتى نوفمبر ٢٠٠٤. ويبدو أن برينس وضع النواة الأولى لشركته في التسعينيات من القرن الماضي، عندما أنفق ثروته لشراء ٦ آلاف فدان بجوار أحد المستنقعات في مدينة فيرجينيا بولاية كارولينا الشمالية الأمريكية ليؤسس مركزًا للتدريب، وكان عملاؤه من المنظمات العسكرية والقانونية، حيث درب عناصرها على استخدام الأسلحة الثقيلة والخفيفة وفنون الحرب والقتال المختلفة، سواء للجنود المرتزقة أو القوات الحكومية المختلفة. وقد أطلق على هذه الشركة اسم بلاك ووتر أو «المياه السوداء» نسبة إلى لون مياه المستنقع الداكنة. وفي عام ٢٠٠٢ أسس شركة بلاك ووتر الاستشارية للأمن وكانت واحد من عدة شركات أمنية خاصة تولت مهمة تأمين المصالح

الأمريكية في أفغانستان، ثم عملت بعد ذلك في العراق ضمن ٦٠ شركة خاصة للخدمات الأمنية. وكان أول أكبر عقد تحصل عليه الشركة هو ٢١ مليون دولار والمهمة هي حماية رئيس السلطة المدنية السابق في العراق «بول بريمر» عام ٢٠٠٣. وحصلت الشركة على أكبر تعاقد لها عام ٢٠٠٦ لحماية المنشآت الدبلوماسية الأمريكية في العراق. لتنشر بذلك نحو ٣٠ ألف جندي هناك – لا توجد أرقام رسمية وإن قدر البعض حجم قوتها بنحو ١٠٠ ألف جندي – لتعتمد عليهم وزارة الخارجية الأمريكية بشكل كامل في مهمة تأمينها بالعراق. وبلغ إجمالي قيمة تعاقدات الشركة مع الحكومة الأمريكية نحو مليار دولار. ووفقًا لما أكده السفير الأمريكي بالعراق «رايان كروكر» من قبل، فإنه بدون هذه القوات الخاصة بالعراق لم تكن وزارة الخارجية لتتمكن من تأمين رجالها ومصالحها في واحدة من هم بؤر النزاع في العالم.

إلى هنا يبدو الأمر كما لو كانت هذه الشركة مؤسسة عسكرية خاصة ولكن مرموقة تديرها مجموعة من أبرز رجال الجيش والمخابرات الأمريكية السابقين، وهو ما يضفي عليها صفة احترام ووقار من الصعب تجاهلهما. ولكن هذه الصورة تتداعى بمجرد الاطلاع على التقرير الذي نشره البرلمان الأوربي قبل عدة أشهر، واتهم فيه إريك برينس وشركته بالانتماء للجناح العسكري لفرسان مالطا «وهي الجماعة المسيحية اليمينية التاريخية التي ظهرت خلال الحملة الصليبية الأولى، ولكن أنشطتها حاليًا يكتنفها كثير من الغموض. وهو نفس ما أكده الصحفي الأمريكي الشهير «جيرمي سكاهيل» في كتابه الذي نشره عام ٢٠٠٧، بلاك ووتر: صعود أقوى جيش من المرتزقة في العالم»، والذي يؤكد فيه

أن شركة بلاك ووتر تديرها مجموعة من المسيحيين المتعصبين الذين يؤمنون بتفوق الديانة المسيحية، مشيرًا إلى أن رئيس الشركة «جوزيف شميت» المفتش السابق بوزارة الدفاع الأمريكية هو نفسه أحد فرسان مالطا. ويؤكد سكاهيل أن شميت يؤمن بأن دور أمريكا في العالم هو نشر «قانون الرب» بين البشر. وعندما فكر الكونجرس الأمريكي في مساءلة برينس حول المبالغ التي تتقاضاها العناصر المسلحة العاملة معه أو الشركة بشكل عام، فما كان منه إلا أن أجاب ببساطة وهدوء أنه «شركة خاصة» أي ليس من حق أي جهة الاستعلام عن موارده المالية أو مراقبته.

لقد دفعت حادثة ٢٠٠٧ الدامية وتطوراتها مجلس النواب الأمريكي إلى فرض قانون جديد يسمح للمحاكم الأمريكية بمقاضاة شركات الأمن الخاص العاملة في العراق وكل بؤر الصراع في العالم. أما وزارة الخارجية الأمريكية فأصدرت قرارات تقضي بمصاحبة عناصر أمنية تابعة لها قوات الأمن الخاص في كل مهمة يقومون بها، بالإضافة إلى فرض رقابة مشددة على هذه العناصر المرتزقة من خلال كاميرات مراقبة بكل السيارات العسكرية ومراقبة جميع الاتصالات اللاسلكية بين أفراد القوات الخاصة. هذه الإجراءات تشير إلى أن الإدارة الأمريكية طالما قصرت في مراقبة هذه العناصر كما أنها أنفقت ملايين الدولارات على جنود لا تعلم عنهم شيئًا، فقد اكتشفت أنهم يخرجون في مهام عسكرية وهم تحت تأثير العقاقير المنشطة فضلاً عن أنهم لا يلتزمون بالقواعد والآداب العسكرية.

هناك المئات من شركات الأمن الخاص حول العالم تعمل لصالح أهم المنظمات والحكومات، بل إنها تلعب دورًا فاعلاً في كل مجالات الحياة، حيث إنها تؤمن جميع المنشآت المهمة وتبلغ قيمة تعاملاتها نحو ٢٠ مليار دولار تقريبًا، تحتل الولايات المتحدة وبريطانيا نحو ٧٠٪ منها.

ولا توجد حتى الآن الأدلة الكافية لإدانة شركة بلاك ووتر وإدارتها.. فكل ما هو متوافر حاليًا عبارة عن مجموعة من الشهادات التي تتهم الشركة والمتعاقدين معها بارتكاب انتهاكات مشينة. ولكن هذه القضية ما هي إلا إضافة جديدة لملف إدارة بوش الأسود. فلو برأناها من تهمة الإهمال في انتقاء الشركات التي تمثلها، فهذا يعني أنها انتهجت استراتيجية متطرفة سرية. إن «بلاك ووتر» إن كانت تعبر عن شيء فإنما تعبر عن التفكير المتشدد الذي انتهجه المحافظون الجدد، وأداروا من خلاله الولايات المتحدة وسياساتها الخارجية على مدى ثماني سنوات هي فترة رئاسة بوش. العديد من التساؤلات تثيرها أزمة بلاك ووتر، أما الإجابات فمتروكة الآن للمحاكم الأمريكية».

* * *

وما زال ملف التعصب الديني والإرهاب والتهور مفتوحًا، وما زال ثمة من يدعى بأنه «صليبي» يريد إبادة المسلمين.

ولو انتشرت الثقافة الدينية بين الناس جميعًا لتعاطفوا وتراحموا، ولعرفوا أن الدين لله، وأنهم جميعًا لا يعبدون سواه.

ولو اعتنت المدارس كلها بمثل ما عنيت به المدرسة الألمانية الإنجيلية بالقاهرة من تدريس مقارنة الأديان في المرحلة الثانوية الذي يشرف عليه دكتور فرانك فان دير فيلدن Dr. Frank van der Velden وشاركتُه فيه زمنًا لقلَّ التعصب الديني، ولتعرف الناسُ كلٌّ على دين الآخر.

والله نسأل للجميع الهداية والمغفرة

عوني

الفهـــــارس

أولاً- فهرس الآيات القرآنية

م	الآية	الصفحة
١٠	﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ.... ﴾ [النور: آية ٣٠، ٣١].	١٥٧، ٢٦٧
١١	﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: آية ٢١].	١٥٢
١٢	﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: آية ٩].	٧٧
١٣	﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: آية ٩، ١٠].	٧٩

ثانيًا - فهرس الأحاديث النبوية(*)

(*) أتوجّه بالشكر إلى تلميذتي الآنسة/ **هدى عبد الغني باز** المعيدة بقسم اللغة العربية بكلية الألسن، التي قامت بتخريج هذه الأحاديث.

ثالثًا : فهرس المزاعم (الفِرَى) التي نُسبت إلى المسلمين والعرب

تزييف التاريخ والانتحال

رابعًا - فهرس الأعلام(*)

(*) يضم هذا الفهرس جميع الأعلام التي وردت في المتن دون الهوامش والتعليقات. ولم يدرج اسما محمد صلى الله عليه وسلم أو المسيح عليه السلام لورود اسميهما في معظم صفحات الكتاب: محمد ﷺ - النبي - الرسول - عيسى - المسيح - يسوع.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

شكر واجب

أدين بالشكر لمساعدتى فى الحصول على الموافقة على ترجمة الكتاب من الألمانية إلى اللغة العربية لكل من:

- سعادة السفير السابق للجمهورية الألمانية بالقاهرة

السيد برند ايربل Herrn Bernd Erbel

- د. هدى أحمد عيسى

الأستاذ المساعد بكلية الآداب – قسم اللغة الألمانية – جامعة القاهرة

والمدير العربى للمدرسة الألمانية الإنجيلية

- د. سيد تاج الدين

المستشار الثقافى بالسفارة المصرية ببرلين

وفقهم الله لما فيه الخير للناس، والنفع للعلم والمتعلمين.

عونى

١ /٧/٢٠١٠

المؤلفة فى سطور:

- زيجريد هونكه (١٩١٣-١٩٩٩) (Sigrid Hunke)

- مستشرقة ألمانية قامت بعدة رحلات إلى الشرق وتعرفت على شعوبه وألفت كتبًا يغلب عليها الميل إلى إنصاف العرب والمسلمين، ولا سيما العرب فى الأندلس، مما أدى إلى تعرضها لحملات استياء فى بلادها.

- زارت مصر مع زوجها بدعوة رسمية عام ١٩٦٢ تقديرًا لهما واعترافًا بالجميل لجهودهما المتواصلة فى خدمة العرب.

- حصلت على العضوية الشرفية بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالأزهر عام ١٩٨٣.

- ألفت أربعة عشر كتابًا معظمها عن أمجاد العرب والمسلمين والدفاع عنهم ، وترجم منها كتب ثلاثة:

- شمس الله تسطع على الغرب

Allah Sonne über dem Abendland

ترجم إلى العربية مرتين أولاهما للدكتور فؤاد حسنين على والثانية للأستاذين فاروق بيضون وكمال دسوقى.

- العقيدة والعلم، وحدة الدين الأوربى وعلم الطبيعة

Glauben und Wissen . Die Europaischer Religion und Naturwissenschaft.

ترجمة د.محمد أبو حطب خالد (نشر بالمشروع القومى للترجمة)

- الله ليس كمثله شىء. الكشف عن ألف فرية وفرية عن العرب

Allah ist ganz anders, Enthülung von 1001 Vorurteilen über die araber.

المترجم فى سطور:

أ.د. محمدعونى عبدالرءوف

- أستاذ اللغويات وصاحب الدراسات العلمية القيمة تأليفًا وتحقيقًا وترجمة.
- حصل على دكتوراه الفلسفة فى اللغات السامية من كلية الفلسفة بجامعة جوتنجن ١٩٦٥.
- عمل عميدًا لكلية الألسن بجامعة عين شمس (١٩٨٧-١٩٨٩). كما عمل مدرسًا فمديرًا عربيًا للمدرسة الألمانية الإنجيلية بالدقى (١٩٥٣-١٩٩٤).
- عضو العديد من اللجان والهيئات العلمية منها :

جمعية المستشرقين الألمان - جمعية الكتاب العلمى بألمانيا- لجنة الدراسات الأدبية واللغوية بالمجلس الأعلى للثقافة - المجالس القومية المتخصصة- اتحاد الكتاب - مقرر لجنة قطاع الآداب العليا لفحص بيانات المتقدمين لقوائم المحكمين وعضوية اللجان العلمية العاشرة (٢٠٠٨-٢٠١١) بالمجلس الأعلى للجامعات.

- <u>الجوائز</u>:

جائزة فريدريش ريكرت من ألمانيا الغربية (١٩٨٦)- جائزة جامعة عين شمس التقديرية(١٩٩١)- جائزة اتحاد الكتاب فى مجال دراسات الاستشراق (٢٠٠٣).

- <u>من أعماله العلمية</u>:

- فريدريش ريكرت عاشق الأدب العربى ١٩٧٤،٢٠٠٦.
- كتاب القوافى لأبى يعلى التنوخى (تحقيق)١٩٧٥، ٢٠٠٣، ٢٠٠٩.
- بدايات الشعر العربى بين الكم والكيف ١٩٧٦، ٢٠٠٥.

- القافية والأصوات اللغوية ١٩٧٧، ٢٠٠٤، ٢٠١٠.
- جهود المستشرقين فى التراث العربى بين التحقيق والترجمة، بالاشتراك مع إيمان السعيد جلال، (جزآن) ٢٠٠٤، ٢٠٠٦.
- كتاب الفهرست لابن النديم، تحقيق جديد، بالاشتراك مع إيمان السعيد جلال، (جزآن)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦.
- تاريخ الحكماء للقفطى، تحقيق ليبرت، ترجمة وتقديم وتعليق عونى عبدالرءوف، ٢٠٠٨.
- تاريخ الترجمة العربية بين الشرق العربى والغرب الأوربى، ٢٠٠٨.

المراجعان فى سطور:

١- أ.د. ناهد شفيق الديب

- دكتوراه الفلسفة فى الأدب الألمانى – جامعة هايدلبرج – ألمانيا الغربية ١٩٧٩ عن رسالة بعنوان: تأثير الكاتب المسرحى برتولد بريشت فى المسرح المصرى.
- ماجستير فى الأدب الألمانى – جامعة القاهرة – كلية الآداب ١٩٧٥
- عينت معيدة بقسم اللغة الألمانية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧١ وتدرجت فيه حتى حصلت على درجة أستاذ ١٩٩٤.
- تولت رئاسة مجلس القسم فى الفترة من ٢٠٠٥ - ٢٠٠٧.
- تولت منصب المدير العربى للمدرسة الألمانية الإنجيلية بالقاهرة خلال الفترة ١٩٩٤ - ٢٠٠٤.
- تولت منصب مدير مركز اللغات الأجنبية والترجمة التخصصية، جامعة القاهرة ٢٠٠٧ - ٢٠١٠.
- لها دراسات وأبحاث فى مجال اللغة الألمانية وآدابها وخاصة فى الأدب الألمانى الحديث والمعاصر والأدب المقارن بالإضافة إلى الترجمة من الألمانية وإليها.
- ناقشت وأشرفت على كثير من الرسائل العلمية فى الدكتوراه والماجستير فى أقسام اللغة الألمانية بالجامعات المصرية.
- شاركت فى العديد من المؤتمرات العلمية المحلية والدولية فى مجال الدراسات الجرمانية.
- عضو اللجنة العلمية الدائمة بالمجلس الأعلى للجامعات للدورتين التاسعة والعاشرة منذ ٢٠٠٥ وحتى تاريخه.
- عضو اللجنة العلمية للترقيات قسم اللغة الألمانية بجامعة الأزهر وأكاديمية الفنون.
- تعمل حاليًا أستاذًا متفرغًا بقسم الألمانية، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

٢ – أ.د. إيمان السعيد جلال

- أستاذ الدراسات اللغوية بكلية الألسن، جامعة عين شمس.
- لها عدد من المقالات والبحوث المنشورة فى الصحف والدوريات، ولها مشاركات فى ندوات ومؤتمرات منها:
- تطور لغة الخطاب الثورى فى مقالات فتحى رضوان، ندوة فتحى رضوان، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩– الحديث عن الذات فى أدب المازنى، مؤتمر إبراهيم المازنى إبداع متجدد، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩– جهود الدكتور شوقى ضيف فى تيسير النحو العربى، ندوة تكريم الدكتور شوقى ضيف، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠١– الأسس اللغوية للخطاب النقدى عند طه حسين، ندوة طه حسين بعد ثلاثة عقود، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٤– رؤية محمد مندور فى السياسة والاقتصاد والاجتماع، قراءة فى خطاب مفكر طليعى، ندوة مندور بعد أربعين عامًا، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥– التراث الشرقى وتعرفه من منظور الاستشراق البريطانى، مؤتمر الترجمة ومجتمع المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٦.

ومن الكتب:

- المصطلح عند رفاعة الطهطاوى بين الترجمة والتعريب، ٢٠٠٢، ٢٠٠٦.
- لغة الإعلان التجارى، ٢٠٠٦.
- ألفاظ الحضارة فى مصر بالقرن التاسع عشر، مع النص الكامل لكتاب قلائد المفاخر لرفاعة الطهطاوى، ٢٠٠٨.
- فى اللغة والأدب والحضارة. كتاب تذكارى تكريمًا للأستاذ الدكتور عونى عبد الرءوف، تحرير: إيمان السعيد وماجد الصعيدى، ٢٠٠٨، أصدرته جامعة القاهرة فى إطار الاحتفال بمئوية الجامعة.

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى: حسن كامل



هذا كتاب موضوعه الحضارة العربية الإسلامية وما يتميز به العرب من إيمان بالله جعلهم يسلكون سلوكًا قويمًا ويتحلون بفروسية أخلاقية ويقدمون للعلم التجريبى اكتشافات رائعة ويساعدون فى التقدم الحضارى .

تقدم المؤلفة عبر صفحات هذا الكتاب صورة مشرقة للحضارة العربية، وتدافع بموضوعية وإنصاف عن العرب والمسلمين، وتكشف عن زيف كثير من الفِرى التى ألحقت بهم.

إن صفحات هذا الكتاب تمتد بشجاعة إلى ما رسخ من أحكام مسبقة عن العرب والمسلمين، مما اكتسب بمرور الزمن وكثرة الإلحاح عليه ثباتاً جعل كثيراً من الأوربيين يعتقدون فى صحته مثل : إبادة الإسلام للمسيحية، ونشر الإسلام بالسيف والنار، وأن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية، وأن العرب مجرد نقلة للتراث اليونانى، وأنهم متعصبون لا يعرفون التسامح، وأنهم يشترون زوجاتهم.

وهى حين تتعرض لهذه المزاعم تبحث فى جذورها وتفندها، وتحاول أن تدلل على رأيها بالبرهان القاطع فى حيدة تامة.

لوحة الغلاف: منير شعرانى
تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح